

منتدى مكتبة الاسكندرية

روايات عالمية

العدد ٤٨٤ - قول يونيو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

أحبك. حيا ومينا

تأليف: إيفان تورجنيف

ترجمة: عبدالوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

روايات عالمية

العدد ٤٨٤ - أول يونيو ١٩٦٨

من الأدب الروسي

أحبك حيا وميتا

تأليف: إيفشان تورجنيف

ترجمة: عبد الوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

نقلت إلى العربية عن رواية

On The Eve

by

Ivan Turgenev

الشخصيات الهامة :

أنا فاسيليفنا ستاكوفا

Anna Vasilyevna Stakova

اندريا بتروفتش برزنيف

Andrei Petrovich Bersenev

أوجاستينا كريستيانوفا

Augustina Christianova

دمتري نيكانوروفتش انزاروف

Dmitry Nikanorovich Insarov

بافل يوكو فليفتش شوبين

Pavel Yokovlevich Shubin

كاتيا

Katya

نيكولاي ارتيميفتش ستاكوف

Nikolai Artemyevich Stakhov

يلينا نيكولايفنا

Yelena Nikolayevna

يوفار ايفانوفتش

Uvar Ivanovich

زويانيكيتشنا مولر

Zoya Nikitichna Muller

يرتدى معطفا أبيض فضفاضا ، ويلف حول عنقه النحيل
منديلا أزرق وقد وضع قبعته المصنوعة من القش الى
جواره على الحشيش .

أما صديقه فكان يبدو مسنا وهو يرقد الى جانبه ولم
يكن في مظهره ما يدل على أنه يستمتع بوقته . كان
أسمه اندريا بتروفتش بورزنيف ، بينما صديقه ذو
الشعر الأشقر يدعى بافل يوكو فليفتش شوبين .

وابتدر شوبين صاحبه : لماذا لا تستلقى على بطنك
مثلى ؟ ان ذلك أفضل بكثير ولا سيما عندما ترفع قدميك
وتدق كعبيك بعضها ببعض هكذا . ان الحشيش يكون
تحت أنفك مباشرة فاذا سئمت من التأمل فى المنظر
الطبيعى الذى أمامك فانك تستطيع أن تنظر الى دابة وهى
تقف على احدى الحشائش أو الى النملة التى لا تكل ولا
تمل . أوكد لك أن هذا أفضل من وضعت الذى يشبه
راقص الباليه وهو يستند الى صخرة من ورق الكارتون .
قل لنفسك ان لك الحق فى أن تستريح الآن ، ومما لاشك
فيه أن كونك الثالث فى الترتيب ليس بالأمر الهين .
استرخ يا صديقى ولا ترهق نفسك .

القى شوبين هذه الكلمات بلهجة مرحة مازحة أشبه
بلهجة طفل مدلل يتحدث الى أحد أصدقاء الأسرة الذين
يأتونه بالحلوى . ولما لم يتلق ردا قال: ان مايدهنشى كثيرا
فى النمل والهوام وغيرهما من الحشرات هو جديتها المدهشة .

(٩)

ذات يوم من أيام الصيف الحارة عام ١٨٥٣
استلقى شابان فى ظل شجرة كبيرة من أشجار الليمون على
نهر موسكفا بالقرب من كونسرفو أحدهما فارغ القوام
يناهز الثالثة والعشرين ذو أنف مدبب وجبهة عريضة ،
وقد رقد على ظهره واخذ يمد بصره بعيدا وهو يفكر وقد
ضاعت عيناه الصغيرتان الرماديتان قليلا وظهرت على
شفتيه العريضتين ابتسامة مكتوبة .

أما الآخر فقد انبطح على بطنه وأخذ هو الآخر يتطلع
الى الأفق البعيد وقد أسند رأسه الأشقر على يديه . كان
يكبر صديقه بثلاث سنوات الا أنه كان يبدو أصغر منه
كثيرا بشاربه الذى لم يكذب وينبت وزغب ذقنه الخفيف
وكانت ملامح وجهه الدقيقة تنطق بشئ من براءة الطفولة
وسحرها كما كانت عيناه العسليتان وشفته المثلثتان
تنمان عن هذه البراءة ذاتها . وكان منظره بصفة عامة ينم
عن الصحة والسعادة وسحر الشباب الذى خلا قلبه من
الهموم . وكان يغلط عينيه ويبتسم أو يرفع رأسه الى
أعلى كصبي يعرف أن الناس تحب أن تنظر اليه . وكان

انها تزحف الى أعلى وأسفل وتبدو جادة وكان حياتها هي الأخرى لها أهميتها • وهامو انسان • والانسان سيد المخلوقات وأرقاها - يحملق فيها وهي لاتبالي • والادهي من ذلك أن بعض الحشرات الدقيقة يحلو لها أن تستقر على أنف سيد المخلوقات وتتعدى عليها • ان هذا الأمر مشين • ومع ذلك فلنفكر في هذا الموضوع - لماذا نحتقر هذه الحشرات ؟ ولماذا لا تتباهى هذه الحشرات بنفسها مثلنا ؟ هيا أيها الفيلسوف حل لنا هذه المشكلة • لماذا لا ترد ؟

فتحرك برزنيف وسأل : ماذا قلت ؟

ماذا قلت ؟ صديقك يعرض أفكارا عميقة ولكنك لا تنصت إليه •

كنت استمتع بالنظر • انظر الى هذه الحقول كيف تضوى تحت أشعة الشمس • ألوان رائعة حقا • هذه هي الطبيعة في أبهى حللها •
فهز برزنيف رأسه قائلا :

عليك أن تظهر اعجابك بهذه الأشياء أكثر مني فهذا يتفق مع ميولك حيث انك فنان •

لا ياسيدي ليس الأمر كذلك • ان عملي يتعلق بالجسد • اننى أصنع نماذج للأكتاف والسيقان والأذرع • أما هذا المنظر فليس له شكل محدد بل انه يتبعثر على بقعة واسعة • ولا سبيل الى التقاطه •

- ولكن فيه جمالا أيضا • على فكرة هل انتهيت من عمل التمثال ؟

- أي تمثال •

- تمثال الطفل والعزلة •

- لا أهمية لهذا •• لقد أقيت نظرة على الأعمال الفنية لبعض الفنانين القدامى ثم حطمت التمثال الذي بداته • انك تقول وأنت تشير الى المنظر الطبيعي ، ان فيه جمالا أيضا • هناك جمال في كل شيء ، لا شك في هذا ، حتى في أنفك ، ولكنك لا تستطيع أن تتابع كل شيء جميل • فالقدماء لم يضطروا لمتابعة الجمال ولكن الجمال كان يهبط على أعمالهم من مكن لا يعرفه الا الله •• ربما من السماء • كان العالم كله عالمهم • ولكننا لا نستطيع أن نحيط به كله ، فنحن أضعف من ذلك • اننا نلقى بسنارتنا عند نقطة صغيرة ونراقبها ، ويواتينا الحظ ان نحن حظينا بشيء • أما اذا لم نحظ به •• وأخرج شوبين لسانه •

- فرد برزنيف : على رسلك فهذا موقف فيه تناقض انه اذا لم تشعر بالجمال واذا لم تقدره حيثما وجدته تشعر به في قلبك • فاذا لم يبعث المنظر الجميل أو الموسيقى الجميلة برسالة الى قلبك •• أعنى انك اذا لم تشعر بالجمال •

- فقاطعه شوبين وهو يضحك قائلا : بالطبع انك

عليك أن تعمل له تمثالا ولكنك تكتشف بعد ذلك أن الأمر ليس بهذه السهولة . هل لاحظتها وهي تنصت ؟ انها تنصت دون أن تتغير ملامح وجهها . نظرة عينيها هي التي تتغير ويبدو أنها تغير كل كيانها . ما الذي يستطيع مثال أن يفعله في مثل هذه الحالة خصوصا اذا كان فنانا بسيطا مثلني ؟ انها مخلوقة مدهشة - ثم أضاف بعد برهة وجيزة : شخصية غريبة .

- فرد برزنيف : فعلا . انها فتاة مدهشة .

ورغم ذلك فهي ابنة ستاكوف ، وقل بعد ذلك ما تشاء عن الوراثة والأجناس . والغريب أن أى انسان يستطيع أن يحكم أنها ابنة ستاكوف . انها تشبهه كما انها تشبه أمها أنا فاسيليفنا . اننى أحمل لأنا فاسيليفنا كل تقدير . انها تشملى بعطفها . ولكنها بلهاء . من أين اذن ليلينا هذا الذكاء ؟ ومن ذا الذى أوقد الشعلة فيها ؟ هذه معضلة أخرى عليك حلها أيها الفيلسوف .

ولكن « الفيلسوف » لم ينبس بكلمة فانه لم يكن ثرثارا بطبعه وكان اذا تحدث تلثم وأكثر الاشارة بيديه . وقد هبط عليه هذه المرة هدوء غريب ، هدوء قريب من الاجهاد والكآبة . وكان قد غادر المدينة منذ قليل بعد أن أتم عملا من الاعمال الشاقة المضنية التي استغرقت ساعات طويلة من وقته عدة أيام وكانت تختلج في قرارة

شاطر وفيلسوف متخرج في جامعة موسكو ومن الصعب مجادلته ولا سيما بالنسبة لطالب طب مثل لم يتم دراسته بعد . ولكن دعنى أقل لك اننى فضلا على فنى - أحب الجمال فى النساء وفى الفتيات ولو أن هذا لم يحدث الا أخيرا .

- ثم استدار على ظهره ووضع يديه تحت رأسه . وسار الصمت بينهما هنيهة وقد غيم السكون والقيظ على المكان .

- وقال شويبين وهو يقطع حبل الصمت : أما وقد تحدثت عن النساء لماذا لا يصطحب أحدهم ستاكوف ؟ هل رأيته فى موسكو ؟
- كلا .

لقد فقد الرجل العجوز عقله . انه ملازم لأوجاستينا كريستيانوفا طول اليوم لا يمل . انهما يجلسان معا ويحديق كل منهما فى الآخر . بالحماقة ! لقد وهب الله هذا الرجل أسرة رائعة ، ولكنه يتعلق باهداب أوجاستينا كريستيانوفا . لم أر فى حياتى شيئا أقبح من وجهها الذى يشبه وجه الأوزة . وقد رسمت لها نموذجا كاريكاتوريا لا بأس به سوف أطلعك عليه .

- فسأله برزنيف : والتمثال النصفى ليلينا نيكولايفنا ؟ هل انتهيت منه ؟

كلا . ان لها وجها فى منتهى الجمال واضح الملامح دقيق التقاطيع حتى ليخيل اليك لأول وهلة أنه يسسهل

نفسه انطباعات ومشاعر مختلفة منها المهديء ومنها المثير
وكان شابا شديدا الحساسة .

كان الجو لطيفا هادئا تحت شجرة الليمون .
أعواد الحشائش ساكنة ، زهور الليمون تتدلى جميلة من
الشجرة تحمل غيرها الى الصدور ، والمنطقة عبر النهر
تسبح فى ضوء الشمس القوي وقد سكنت الطيور واخذت
بعض الحشرات الصغيرة تقفز هنا وهناك . وكان الرقود
فى ظل شجرة الليمون ممتعا لذيذا يجلب النعاس ويثير
جميل الاحلام .

وتحدث برزنيف فجأة فقال : هل لاحظت ذلك
الشعور الغريب الذى تثيره فينا الطبيعة ؟ انها تزخر
بكل شيء ونحن نرى ذلك ونعجب بها . ولكنها تثير فى
نفسى دائما شعورا بالقلق الذى يصل أحيانا الى حد
الحزن . فما سر ذلك ؟ ربما لاننا نشعر عندما نتأملها بما
فيها من نقص أم ترى أن ما يرضيها هى لا يعتبر كافييا
بالنسبة لنا .

— فرد شوبين : سأخبرك يا بتروفتش عن مصدر
كل هذا . لقد وصفت لتوك مشاعر انسان يحس بالوحدة،
انسان لا يعيش ولكنه ينظر الى ما حوله ثم يغيب فى ذهول
طويل . ولكن لم تنظر حولك ؟ استمتع بحياتك وستجد
أن كل شيء قد أصبح على ما يرام . انك قد تطرق باب
الطبيعة لأى فترة تحلو لك ولكنها لن تجيبك اجابة
تفهمها .

— انها تصدر رنينا كالرنين الذى يصدر عن سلك
مشدود ولكنك تخطيء اذا انتظرت منها أن تشدو لك
بغنية . انها روح حية تستجيب . انها امرأة . واذا كان
الأمر كذلك يا صديقى فاننى انصحك أن تجد رفيقا
لقلبك وعندئذ سيختفى فى الحال كل ما تشعر به من
حزن . ان هذا هو ما « نحتاجه » على حد قولك . هذا
القلق وهذا الحزن هما فى الواقع نوع من الجوع .
فتناول الطعام تسر الامور على ما يرام . . . خذ مكانك فى
هذه الدنيا يا صديقى وكن صلبا قويا . ولنتساءل الآن
ما هى الطبيعة وما هو الغرض منها ؟ : استمع الى
يا صديقى : الحب — يالها من كلمة قوية ملتبهة ! . .
الطبيعة . . . يا لها من تعبير مدرسى بارد . . . اذن فلتحيا
ماريا بتروفنا أو بالأحرى . . . أظنك تفهمنى ؟

— واعتدل برزنيف واسند رأسه على يديه ثم قال :
هل من الضرورى أن تظهر استهزاءك وسخريتك ؟ أنت
على حق فى أن الحب كلمة عظيمة كما أنه شعور عظيم .
ولكن أى أنواع الحب تعنى ؟؟

— واعتدل شوبين هو الآخر ثم قال : تسألنى أى
نوع من الحب أعنى ؟ أى حب مادام حبا . أنا بصراحة
لا أعتقد أن هناك أنواعا مختلفة من الحب . انك اذا
احببت —

— قال برزنيف مقاطعا : بكل قلبك .

- هذا شيء مفروغ فيه ، فالقلب ليس تفاحة يمكن قسمتها انك اذا احببت فانت على حق . وانا لم أقصد أن أسخر أو استهزىء ، فان قلبي فى الوقت الحاضر ملء بالركة والحنان . لقد كنت احاول أن أبين السبب فى ان الطبيعة تؤثر فينا بالطريقة التى عبرت أنت عنها . انها تفعل ذلك لانها توفق فينا الحاجة الى الحب وهى الحاجة التى لا تستطيع هى ارضاءها ، انها تدفعنا برفق الى أحضان أخرى دافئة ولكننا لانفهمها ونتوقع منها هى شيئا ما . آه يا اندريا أن كل ما حولنا مدهش فالسماء والشمس وكل شيء غاية فى الجمال ولكنك رغم ذلك تشعر بالحزن . ولكنك اذا كنت فى هذه اللحظة تمسك فى يدك يد امرأة تحبها واذا كانت هذه اليد وهذه المرأة ملكا لك واذا كنت ترى الاشياء بعينيها وتشعر بها بشعورها فلن تثير الطبيعة فيك الشعور بالحزن أو القلق ، كما أنك لن تلاحظ جمال الطبيعة ولكنها هى سستبتهج وتترنم بترنيمتك لأنك تكون قد وهبتها لسانا .

- وهب شوبين واقفا وأخذ يسير جيئة وذهابا بينما أحنى برزنيف رأسه واعترى وجهه بعض شحوب ثم قال : اننى لا اوافقك تماما فالطبيعة لا توحى دائما بالحب بل انها تهددنا أيضا كما انها تذكرنا بأسرار مخيفة غامضة . ليس قدرا محتوما علينا أن تبتلعنا الطبيعة ؟ الا تبتلعنا الطبيعة على الدوام ؟ الطبيعة هى الحياة والموت وللموت فيها نصيب كنصيب الحياة تماما .

- وقاطعه شوبين قائلا : هناك حياة وموت فى الحب أيضا .

- واستمر برزنيف يقول : عندما أقف فى غابة وسط الأشجار فى الربيع وأتخيل أننى أسمع صوت مزمار أو أشعار بيرون الساحرة ..
وحيثذا شعر برزنيف بشيء من الحجل ثم أردف :
ليس ذلك .. ؟

- فقال شوبين : انه اشتهاه للحب واشتتهاه للسعادة لا أكثر . اننى أعرف هذه الأصوات كما أعرف المشاعر الدقيقة والآمال التى تطوف برأس الانسان وهو فى ظلال الغابة أو وهو فى الريف وقت المساء عندما تغرب الشمس ويكتنف الضباب صفحة النهر . ولكننى أتوقع وأريد أن أحصل على قدر من السعادة من الغابة ومن النهر ومن الأرض ومن السماء والسحاب ومن كل عود من أعواد الحشيش . اننى أشعر بها وهى قادمة واسمع نداءها فى كل شيء . نحن نتوق الى السعادة فى شبابنا ونملك زمام قدراتنا فى طريق الصعود لا فى طريق الهبوط . نحن لا نزال فى شرح الشباب كما اننا لسنا أغبياء أو مشوهين ، ولسوف نظفر حتما بالسعادة .

وحرك رأسه ونظر الى السماء نظرة كلها ثقة .
والتفت برزنيف اليه ثم قال : انك تتحدث وكأن ليس هناك ما هو أكثر أهمية من السعادة .

– ورد عليه شوبين قائلا : اذا فعل كل شخص كما تقول فسوف لا يذوق أحد التفاح لان كل شخص سوف يعطيه لغيره .

– قال برزنيف : هذا يعنى انه ليست هناك حاجة للتفاح . اؤكد لك ان هناك دائما من هم على استعداد لخطف طعام الآخرين .

– وساد الصمت بين الصديقين برهة . ثم قطعه برزنيف بقوله : لقد قابلت انزاروف مرة أخرى منذ أيام وطلبت اليه أن يأتى لزيارتي . بودى أن أقدمه لك ولعائلة ستاكوف .

– ومن يكون انزاروف هذا ؟ هل هو ذلك البلغاري الذى حدثتني عنه ؟ لعله هو الذى أوحى اليك بكل هذه الآراء الفلسفية .

– ربما .

– شخص غير عادى ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– ذكى وموهوب .

– انه ذكى ، ولكننى لا أعرف ان كان موهوبا أم

لا ؛ ولو أننى لا أعتقد أنه كذلك .

– فيم يبرز اذن !

– سترى . والآن أعتقد أن الوقت قد حان للعودة

ولابد أن أنا فاسيليفنا فى انتظارنا . كم الساعة الآن ؟

– فقال شوبين : وما هو الشيء الذى يفوق السعادة أهمية ؟

– فأجاب برزنيف : ها نحن هنا أنا وأنت . وكلانا فى شرح الشباب كما تقول ولنفترض اننا لسنا فى حالة سيئة وأن كلا منا يريد أن يكون سعيدا . هل هذه « السعادة » كلمة تستطيع أن تجمع بيننا وتثير فينا نفس المشاعر التى تجعلنا يدا واحدة ؟ ، أليست هذه الكلمة كلمة تنطوى على أنانية – أى تفرق أكثر مما توحد ؟ .

– هل تعرف أى كلمات توحد بين الناس ؟

– نعم أعرف منها الكثير ، شأنى فى ذلك شأنك .

– أنا اعرفها ؟ ما هى هذه الكلمات ؟

– منها الفن ، فانت فنان ، ومنها أرض الوطن والعلم والحرية والعدالة .

– وما رأيك فى كلمة الحب ؟

– كلمة الحب أيضا من الكلمات التى توجد ولكن هذا الحب ليس هو الحب الذى تتلهف عليه ولا هو الحب كمتعة ولكنه الحب كتضحية .

– وقطب شوبين حاجبيه وقال : هذا يناسب الألمان

فى تفكيرهم ولكننى أريد أن أحب لأمتع نفسى . أريد أن أشغل المكان الأول فرد عليه برزنيف : المكان الأول ؟ أنا أعتقد أننا خلقنا لنضع انفسنا فى المكان الثانى .

لقد أخطأت وما في ذلك شك . فقد أعطيتني انا فاسيلدينا
نقودا . للقيام برحلة الى ايطاليا ولكنني بدلا من الذهاب
الى ايطاليا ذهبت الى اوكرانيا لآكل الفطائر و ...
- فقاطعه برزنيف قائلا : لا داعي لاكمال حديثك
فانا اعرف ما تريد أن تقول .

- دعني أقل لك ان هذه النقود التي صرفتها لم
تضع سدى فقد رأيت هناك انواعا كثيرة من الناس ولاسيما
النساء انا أعلم طبعا انه ليست هناك حرية كما في ايطاليا
.. سنذهب الى ايطاليا ولا تفعل شيئا هناك . سترفرف
بجناحيك دون أن تطير . انا اعرف امثالك .

- لقد طار ستافسر الى ايطاليا اليس كذلك ، ولم
يكن الشخص الوحيد الذي طار . واذا لم استطع أنا أن
أطير فان هذا سيعنى انني كطائر البطريق - طائر بلا
أجنحة . اننى افتقد الهواء هنا اريد الذهاب الى ايطاليا
ففيها ضوء الشمس وفيها الجمال .

وظهرت ، فى تلك اللحظة ، فتاة تلبس قبعة من
القش وتحمل مظلة قرمزية وتسير فى نفس الطريق الذى
كان يسير فيه الصديقان .

- وصاح شوبين فجأة : ما هذا الذى أرى ؟ لقد أتى
الجمال لمقابلتنا حتى فى هذا المكان تحية الى زويا الساحرة
من فنان بسيط .

ورفع تبعته بطريقة مسرحية فوقفت الفتاة وهى تهز

- لقد تجاوزت الثانية . هلم بنا . ان الجو حار ،
وكانت هذه المناقشة تثير الدم فى عروقي ، كما كانت
هناك لحظات كنت أنت تثير غضبي . اننى فنان وأستطيع
أن أرى كل شيء . قل لى بصراحة هل هناك امرأة بعينها
تثير اهتمامك ؟

وتفحص شوبين وجه برزنيف ليرى تأثير سؤاله ولكن
برزنيف استدار وخرج من ظل الشجرة . وتبعه شوبين .
وسار برزنيف وقد رفع كفيه ومد رقبته . ورغم ذلك
فقد كان يبدو محترما أكثر من شوبين .

سهر الليل ليلياس
www.lilias.com

(٢)

هبط الشابان الى شاطئ النهر وسارا بمحازاة
الشاطئ وكانت المياه تجلب الانتعاش والاطمئنان .
- وقال شوبين : كم اتمنى أن أنزل للسباحة فى
الماء مرة أخرى ولكننى أخشى أن تتأخر . انظر الى النهر
وكانه ينادينا .. يا الهى ، متى تتاح لى فرصة للذهاب
الى ايطاليا ؟ متى .. ؟

- لعلك تعنى متى سنذهب الى أوكرانيا .
- يجدر بك أن تتجمل من نفسك يا اندريه بتروفتش ،
انك تلومنى على خطوة منهورة أسقت عليها اشد الأسف .

اصبعا تجاهه وظلت واقفة حتى وصل اليها الصديقان
فقالتا لهما بصوت رقيق : لماذا لم تحضرا لتناول الغذاء
ايها السيدان والطعام معد ؟

— فقال شوبين باستغراب : هل حقيقة ما أسمع ؟
هل آتيت انت يا زويا في هذا الطقس الحار لاصطحابنا ؟
أهذا هو ما أستطيع أن أفهمه من كلامك ؟ حدثيني : هل
الأمر كذلك .. كلا .. لا تفعلوا والا سقطت ميتا من
تأنيب الضمير .

— قالت الفتاة : كفى يا بافل ياكوفليفتش . ألا
تستطيع أن تتحدث الى حديثا جادا ؟ هل تريد اغضابي ؟
قالت هذا السؤال الأخير ومدت شفيتها في شيء من
الدلال .

— فرد عليها قائلا : انت لا يمكن أن تغضبي مني
يا زويا نيكيئتشنا . انت لا تقبلين أن تلقي بي في أعماق
اليأس القاتل . اما فيما يختص بالحديث الجدى فهو
فوق طاقتي لانى لست رجلا جادا .

— وهزت الفتاة كتفيها والتفتت الى برزنيف وقالت:
هذه هي الطريقة التى يعاملنى بها دائما . انه يعاملنى
وكأننى طفلة صغيرة ولكننى قد جاوزت الثامنة عشرة
ونضجت .

— فقال شوبين : يا الهه السماوات ..

قال هذا وقد رفع عينيه نحو السماء بينما ابتسم
برزنيف .

ودقت الفتاة الأرض بقدمها وقالت : سأغضب منك
يا بافل ياكوفليفتش .. سأغضب بجد . لقد خرجت
هيلين معى ولكنها فضلت البقاء فى الحديقة خوفا من
شدة الحرارة ولكننى لا أخاف الحرارة . هلم بنا .

قالت ذلك وتقدمتهما فى الطريق وهى تتثنى فى
مشيتها مع كل خطوة بينما راحت تحرك خصلات شعرها
الحريرى من على وجهها بيدها الرقيقة .

وتبعها الصديقان وكان شوبين يضغط قلبه بيديه
من آن لآخر دون أن يتكلم . ووصلا بعد دقائق الى كوخ من
الأكواخ العديدة التى تحيط بكونتوسوفو . كوخ خشبي
قرمزي اللون بين أشجار تنوسط حديقة جميلة . وفتحت
زويا الباب ودخلت الى الحديقة وصاحت : لقد أحضرت
الرجلين التائهن . وهنا قامت فتاة شابة ذات وجه جميل
معبّر من أحد المقاعد بجانب الممر لاستقبالهما . كما ظهرت
احدى السيدات على عتبة الكوخ وقد ارتدت ثوبا حريريا
ورفعت في يدها منديلا فوق رأسها تتقى به الشمس ،
وابتسمت لهم بفتور .

غنية • ولكنه سرعان ما تخلى عن الأمل الأول وتعلق بالثاني أكثر وأكثر فكان يذهب الى موسكو كل شتاء • وكان يتحدث بالفرنسية بطلاقة • لم يكن يعاقر الحمر ، لذا فقد اشتهر بأنه فيلسوف • وكان يحب الجدل والمناقشة •

— وكان ستاكوف فى الخامسة والعشرين عندما وقع فى شبابه أنافاسيليفنا فترك خدمة الجيش وتفرغ لإدارة المزرعة التى جاءته بها على سبيل « الدوطة » ولكنه سرعان ما مل حياة الريف • ولما كان مستأجرو الأرض يدفعون ايجارها بانتظام فلم تكن ثمة حاجة لبقائه فيها فانتقل الى بيت زوجته فى موسكو • ولم يكن يمارس أى رياضة فى شبابه ، فاتجه فى هذا الوقت للعب القمار وعندما حرمته الحكومة تحول الى غيره من ألعاب الورق • ثم سئم حياته العائلية فتعرف على أرملة من أصل المانى وكان يمضى معظم وقته فى بيتها •

وفى صيف عام ١٨٥٣ لم يرحل الى كونتسوفو بل بقى فى موسكو حتى لا يبتعد عنها • رغم ذلك فانه لم يكن يكثر التحدث معها ، وكان حديثه ، اذا فعل ، يدور حول موضوعات جدلية ، وقد أطلق عليه أحدهم اسم « المجادل » وأعجبه هذا اللقب ، وكان يقول : ليس من السهل اقناعى ولا يستطيع أحد أن يخدعنى • ولكنه لم يدر أن اوجاستينا كريستيا نوبا الأرملة كانت تسميه « المخرف » فى خطاباتهما التى كانت ترسلها الى ابنة خالها تيودوليندا بترسيليوست •

كانت أنا فاسيليفنا ستاكوفا قد فقدت والديها وهى فى سن السابعة وورثت مزرعة كبيرة • وكان لها أقارب على جانب كبير من الثراء وأقارب يعيشون فى فقر مدقع • وكان أقاربها الفقراء من أسرة والدها ، أما أقاربها الأغنياء ، ومنهم السناتور فولجين والأمير تشيكوراتوف ، فكانوا من أسرة والدتها • وقد ألحقها الأمير ارداليون تشيكورازوف بأرقى المدارس الداخيلية فى موسكو وضمها الى أسرته بعد أن أتمت تعليمها فيها • وكان يقيم فى بيته الكثير من حفلات الرقص ولا سيما فى الشتاء • وقد قابلها نيكولاى أرتيميفتش ستاكوف الذى تزوجها ، فيما بعد ، فى إحدى هذه الحفلات الراقصة وكانت ترتدى فيها ثوبا قرمزيا جميلا •

كان ستاكوف ابن ضابط متقاعد جرح عام ١٨١٢ وكوفىء بوظيفة مريحة فى بطرسبورج • وقد التحق ستاكوف بالمدرسة الحربية وهو فى السادسة عشرة ، وبعد أن أكمل دراسته التحق بالحرس الامبراطورى • كان وسيما قوى البنية ، يجيد الرقص فى الحفلات التى كان يقيمها مجتمع الطبقة الوسطى اذ كان الطريق الى المجتمع الراقى مغلقا أمامه • وكان منذ باكورة شبابه يتوق لتحقيق أملين : أن يعمل فى حرس الامبراطور ، ثم أن يتزوج فتاة

فبقي في البيت • وكان والداه ينويان أن يلحقاه بالجامعة
وقدما له كل ما يستطيعان من عون في هذا السبيل •
وقد أظهر منذ البداية ميلا للنحت • ورأى السناتور فولجين
دات يوم تمثالا صغيرا من صنع هذا الصبي وكان في
السادسة عشرة في منزل خالته فأعجب به وأعلن أنه
سوف يحتضن هذا الشاب الموهوب • ثم تسبب
موت والده المفاجي في تغيير مجرى حياته • وكان
كل ما فعله السناتور من أجله هو أن أهدها تمثالا
من الجبس لهيومر • أما أنا فاسيسليفنا فكانت تقدم
له العون المادي • وقد استطاع وهو في التاسعة
عشرة أن يلتحق بمدرسة الطب بالجامعة ، ولكنه لم
يكن لديه ميل لدراسة الطب • على أن الظروف في ذلك
الوقت لم تمكنه من الالتحاق بأية مدرسة أخرى ، كما أنه
كان يعتمز دراسة التشريح • ومع ذلك لم يدرس
التشريح ، فقد ترك الجامعة بمحض ارادته قبل نهاية
السنة الأولى لكي يتفرغ كلية للفن الذي أحبه • وأخذ
يعمل بجهد واجتهاد ولكنه كان يفعل ذلك في فترات دون
أخرى • وراح يتجول في ضواحي موسكو يرسم صورا
للرقيقات • وكان يلقي كثيرا من الشخصيات كبيرة
وصغيرة وبعض العظماء والنحاتين الايطاليين والفنانين
الروس ، ولكنه كان يرفض فكرة الالتحاق بالأكاديمية ،
كما كان يرفض الاعتراف بأى أستاذ • كان موهوبا
بالفعل وقد ذاع صيته في موسكو • وكانت والدته قد

كانت أنا فاسيليفنا زوجة ستاكوف امرأة نحيلة
القوام ذات تقاطيع دقيقة يغلب عليها طابع الحزن • وكانت
وهي بالمدرسة الداخلية مولعة بالموسيقى وقراءة القصص
ثم تركت هاتين الهوايتين للعناية بنفسها وجمالها ثم
تركت هذه أيضا • ولما تزوجت وانجبت ابنتها كرست
نفسها للعناية بها ، ولكنها سرعان ما تخلت عن العناية
بها وتركتها للمربية • ولم تفعل شيئا بعد ذلك بل أسلمت
نفسها للحزن • وكانت صحتها قد ساءت عندما وضعت
ابنتها يلينا نيكولايفنا الى درجة أن أصبحت لا تتحمل
المزيد من الأعباء ، أو انجاب أطفال وهو أمر كان ستاكوف
يشير اليه تبريرا لعلاقته مع الأرملة • وكانت أنا فاسيليفنا
شديدة الحزن ازاء جحود زوجها • وقد ألمها أبلغ الألم أنه
أهدى ذات مرة للأرملة حصانين أشهبين من حظيرتها
الخاصة • ولم تحاول بتاتا أن توجه اليه اللوم وجها لوجه
ولكنها كانت تشكوه لكل من في البيت حتى لابنتها •
ورغم أنها كانت لا تحب الخروج الا أنها كانت تشعر بكثير
من الارتياح اذا زارها أحد ، اما اذا خلت الى نفسها فانها
كانت تستسلم للحزن • كان قلبها رقيقا وطيبا ، وسرعان
ما حطمتها الحياة •

كان بافل ياكوفليفتش شوبين من أقاربها الأبعد •
وكان والده يعمل في الوظائف المدنية في موسكو • وكان
اخوته قد التحقوا بالمدرسة الحربية ، وكان هو أصغرهم ،
وكانت صحته معتلة ، فكان محل عناية والدته واهتمامها ،

علمته الفرنسية فقد ولدت في باريس وكانت تنتمي الى عائلة طيبة . وأخذت ترعى شئونه وتسهر على راحته . وكانت فخورة به . وعندما كانت على فراش الموت ، وقد عصف بحياتها مرض السل رغم صغر سنها ، أوصت أنا فاسيليفنا بالعبارة ، وكان حينذاك في الواحدة والعشرين . ونفذت أنا فاسيليفنا وصية الأم وخصصت له غرفة في بيتها .

(٤)

— قالت ربة البيت لضيوفها : هلموا لتناول الغداء . فساروا جميعا الى حجرة المائدة . ثم قالت : اجلسى الى جانبي يا زويا واعتنى يا هيلين بأمر ضيفنا . أما انت يا بول فارجوك أن تكف عن مضايقة زويا . اننى اليوم أشكو من الصداع . ورفع شوبين عينيه الى أعلى فالتقتنا بعيني زويا التي ابتسمت له ابتسامة خفيفة . كانت زويا نيكتيشنا فولر فتاة جميلة من أصل ألماني روسى ، شقراء ممتلئة القوام ذات أنف دقيق وشفقتين رقيقتين قرمزيتين وكانت تستطيع أن تغنى بعض الاغانى الروسية باتقان كما كانت تجيد كثيرا من الألعاب البسيطة ، وتتنق العزف على البيانو فى روح مرحة منطلقة . وكانت تهتم بمظهرها وأناقتها وقد أحضرتها أنا فاسيليفنا لتكون رفيقة لابنتها ولكنها كانت تستبقها دائما الى جوارها هى . ولم تكن يلينا تشكو من هذا ، اذ انها عندما كانت

تخلو الى زويا لم تكن تجد ما تحدثها فيه . واستمر الغداء فترة وتحدث برزنيف الى يلينا عن حياة الجامعة وعن مشروعاته وتطلعاته . أما شوبين فكان ينصت فى صمت وهو يتناول طعامه بشراهة وكان يتطلع من آن لآخر الى زويا التى كانت تقابل نظراته بنفس الابتسامة الفاترة . وبعد أن انتهى تناول الطعام خرجت يلينا الى الحديقة فى صحبة برزنيف وشوبين وتبعتهما زويا بنظراتها ثم جلست أمام البيانو . قالت لها : أنا فاسيليفنا : لماذا لم تخرجى معهم ؟ ولما لم تتلق جوابا . . قالت لها اعزفى لنا مقطوعة حزينة .

— فقالت لها زويا : هل أعزف لك مقطوعة اللقاء الأخير لويبر ؟

— فردت عليها : نعم أننى أحب ويبر . ثم جلست على أحد المقاعد ودمعة تترقرق فى عينيها . وقادت يلينا الصديقين الى منضدة صغيرة من الخشب صفت حولها بعض المقاعد الخشبية تحت احدى الاشجار . ونظر شوبين حوله وأخذ يقفز الى أعلى عدة مرات ثم همس قائلا : انتظر . ثم جرى عائدا الى حجرته وأحضر قطعة من الصلصال وبدأ يشكلها تمثالا لزويا وهو يهز رأسه ويتحدث الى نفسه ويضحك .

— قالت يلينا وهى تنظر الى ما يفعله : ها هو قد عاد الى الاعيبه القديمة . ثم التفتت الى برزنيف لاستئناف المحادثة التى بدأت أثناء تناول طعام الغداء .

- ورد شوبين قائلا : اعييه القديمة ! هذا موضوع ينتهى . انها اليوم لا تطاق .

- قالت يلينا : لماذا تتحدث عنها هكذا ؟ . ان من عك يتصور انها عجوز شريرة ، ولكنها فتاة رقيقة وجميلة .

- فقاطعها شوبين قائلا : اؤكد لك انها جميلة بل وجميلة للغاية . . وأنا واثق ان أى انسان يراها سيقول لنفسه « ها هى زميلة جميلة لرقيقة البولكا . أنا واثق أيضا انها تعرف ذلك وتفتبط به . ولكن لماذا هذا التعالى وهذا التواضع المفتعل ؟

أظنك تفهمين ما أعنى ولكنك لا تهتمين بمناقشة هذا الموضوع الآن . ثم حطم التمثال وأخذ يعجن الطين مرة أخرى بطريقة يبدو فيها الضيق والتبرم .

- وتوجهت يلينا بالحديث الى برزنيف قائلة : أنت تريد اذن أن تكون أستاذا بالجامعة .

- فأجابها بقوله : نعم . هذا هو الحلم الذى أريد تحقيقه . أنا أعلم جيدا أن هناك هوة كبيرة بينى وبين مثل هذا المنصب ولكننى آمل أن أحصل على تصريح بالسفر للخارج . وسأملك هناك ثلاث أو أربع سنوات اذا لزم الأمر ثم .

- وهنا توقف عن الكلام ونكس رأسه ثم رفعها بسرعة ومر بيده على شعره وهو يضحك ضحكة غريبة .

- وابتدته يلينا مرة أخرى قائلة : هل تريد أن تصبح أستاذا فى التاريخ ؟

- فأجابها : نعم

وأضاف فى صوت خفيض : أو الفلسفة ان أمكن .

- وعلق شوبين على ذلك بقوله : هو مولع بالفلسفة الى حد كبير .

- ثم قال وهو يحفر خطوطا عميقة فى قطعة الصلصال بمسمار فى يده ولكن هل لايد من السفر للخارج ؟

- واستأنفت يلينا حديثها فقالت له وهى تنظر الى عينيه : وهل ترضى حينذاك عن مركزك ؟

- فأجابها : كل الرضا يا يلينا . وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة أفضل من ذلك ؟ سأسير فى نفس الطريق الذى سار فيه جرانوفسكى . ان مجرد التفكير فى هذا يسعدنى . لقد باركنى أبى قبل وفاته وسوف لآنى أبدا كلماته الاخيرة .

- لقد توفى والدك فى الشتاء الماضى . أليس كذلك ؟

- نعم . فى فبراير الماضى .

- فقالت يلينا : قبل لى انه ترك مخطوطات بالغة الاهمية فهل هذا صحيح ؟

- نعم . لقد كان رجلا عظيما يا يلينا ولو كنت قد رأيته لأعجبت به .

نتحدث عن الطيور والزهور والعيون الجميلة والابتسامات
الساحرة ؟

- وأضافت يلينا قائلة : نعم وعن القصص الفرنسية
وملابس السيدات .

- فأجابها شوبين : ولم لا نتحدث عن ملابس
السيدات ما دامت جميلة .

- لم لا ؟ لنفرض اننا لانهتم بالحديث عن الملابس
انك تسمى نفسك فنانا متحررا ثم تعتدى بعد ذلك على
حريات الآخرين . ثم دعني اسألك سؤالا آخر : اذا كانت
هذه هي طريقتك فى التفكير ، لماذا اذن توجه النقد الى
زويا ؟ انها هى الشخص الذى يمكن التحدث اليه عن
الملابس والزهور . فاحمر وجه شوبين وقام من مقعده
وقال بصوت يدل على الانفعال : اذن هذا هو ماتقصدين .
تريدين أن اذهب اليها يا يلينا . أو بمعنى آخر ان وجودى
هنا غير مرغوب فيه اليس كذلك ؟

- أنا لم أفكر مطلقا فى ابعادك من هنا .

- ورد عليها شوبين بانفعال : تقصدين اننى لا
استحق صحبة غير صحبتها وأننى من طرازها ، وأنتى
سطحي وأبله وتافه كذلك الفتاة الألمانية اليس كذلك ؟
- فقطبت يلينا جبينها وأضافت : لقد كان لك فيها
رأى مخالف لهذا الرأى يا بافل .

- انك تؤنبنينى الآن . حسن ، اننى لا أنكر أنه

- أنا واثقة من ذلك . وما هو الموضوع الذى تناوله
هذه المخطوطات ؟

- هذا شيء يصعب شرحه باختصار . لقد كان
والدى من أنصار مدرسة شيلنج ولم تكن اللغة التى كان
يستعملها واضحة دائما .

- فقاطعته يلينا قائلة : أرجو أن تغفر لى جهلى
يا أندريا بتروفتش اذا سألتك ما معنى شيلنجى .

- فأبتسم برزنيف ابتسامة خفيفة وقال : اى انه
من اتباع الفيلسوف الالمانى شيلنج . أما فيما يخص
بنظريات شيلنج -

- فصاح شوبين فجأة وقال : رويدك يا أندريا
بتروفتش هل تنوى أن تلقى محاضرة على يلينا عن
شيلنج ؟ أرجو ان توفر عليها هذا العناء .

- فرد عليه برزنيف وقد احمر وجهه قائلا : كلا
لا أريد سوى ان . . . فتدخلت يلينا قائلة : وما هو
اعتراضك على المحاضرة ؟ اننا نستطيع اننا وانت ان
نستفيد ببعض المحاضرات يا بافل .

- فالتفت شوبين ناحيتها وانفجر ضاحكا . فسألته
بشيء من البرود : ما الذى يضحكك ؟

وكف شوبين عن الضحك وقال لاتغضبى . معذرة .
ولكن ما قيمة مناقشة الموضوعات الفلسفية فى مثل هذا
الجو وتحث هذه الأشجار ؟ اليس من الافضل لنا ان

مرت لحظة - لحظة واحدة فقط - كانت فيها هذه الوجنتا
النضرة ٠٠٠ ولكنني اذا بادلتك دقة بدقة وذكرك - طاب
مساؤك - لقد كدت أترك لساني يقلت منى ٠ ثم عجن
قطعة الصلصال التي كان قد صنع منها تمثالا لرأس
واندفع خارجا وذهب الى حجرته ٠

- فقالت يلينا وهي تتبعه بنظراتها : طفل ٠

- فرد عليها برزنيف قائلا : هو فنان وكل الفنانين

هكذا ولا بد من التلطف معهم ٠

- اجابت يلينا : صحيح ولكن بافل لم يبرهن حتى
الآن على أنه يستحق هذا ٠ ماالذي انجزه ؟ اعطني ذراعك
ولنخرج للسير قليلا فقد قطع علينا حديثنا ٠ لقد كنا
نتحدث عن مخطوطات والدك ٠

وتأبط برزنيف ذراع يلينا وأخذا يسيران في
الحديقة ، ولكنهما لم يستأنفا المحادثة التي قطعت بل
أخذ برزنيف يشرح آراءه عن عمل أساتذته الجامعة وعن
عمله في المستقبل ٠ وظل يسير الى جانب يلينا بخطوات
بطيئة وقد اتكأت على ذراعه ولكنه لم يحاول أن ينظر
اليها ٠ وأخذت الالفاظ تنساب من بين شفثيه في سهولة
ويسر ، وكان يستعمل جملا بسيطة دقيقة ٠ وكانت عيناه
تنتقلان من الأشجار الى الرمال الى الحشائش ويشع منها
بريق عاطفة هادئة وأحاسيس نبيلة ٠ وكان صوته الهادىء
ينم عن السرور الذي يشعر به من يدلى بأفكاره الى شخص
عزيز ٠ وكانت يلينا تنصت باهتمام بالغ ووجهها متجه

اليه وقد ثبتت نظرها على محياه وعلى عينيه ، ولكنه كان
يتجنب النظر الى عينها ٠

كان قلبها يتفتح وكان هناك شيء رقيق ونبيل وطيب
يتدفق اليه أو ربما ينمو فيه ٠

(٥)

أمضى شوبين في حجرته بقية اليوم ٠ وعندما ترك
برزنيف أنا فاسيلينا ويليينا وزويا وصعد الى حجرة
صديقه كان الظلام قد حل وتلاوات النجوم وتوسط القمر
السماء ، ولما وجد باب الغرفة مغلقا طرقة فرد شوبين من
الداخل قائلا : من الطارق ؟

- وأجابه برزنيف : أنا يا شوبين ٠

- وماذا تريد ؟

- افتح يا شوبين ولا داعى للغضب ٠ انت لا شك
تشعر بالحجل من نفسك ٠

- أنا لست غاضبا - اننى نائم كما اننى أحلم
بزويا ٠

- كف عن هذا الحديث وافتح الباب فانا أريد أن
أتحدث اليك

- ألم يكفك الحديث مع يلينا ؟

– افتح الباب ودعنى أدخل •

ولكن شوبين أجاب بشخير مفتعل فهز برزنيف كتفيه
وبدأ يسير عائدا الى بيته •

الليل حار ساكن ، برزنيف يتوقف من أن لآخر يرقب
ما حوله ويسمع حفيفا يشبه حفيف ملابس النساء • فكان
هذا يثير فيه شيئا من الخوف • وسرت فى جسده رعشة
خفيفة وتجمدت فى عينيه دمعة وود لو انه أستطاع أن
يختبئ • أو أن يستمر فى السير بخطوات هادئة • وهبت
عليه نسمة من الهواء ، وفجأة ، سقط على الارض جعران من
أحد فروع الأشجار وأحدث سقوطه صوتا أفزعه وجعله
يتوقف عن السير مرة أخرى • ثم تذكر يلينا فاخفت كل
هذه المشاعر والأحاسيس العابرة فى الحال وبقيت انطباعاته
القوية السابقة عن الفترة التى قضاها مع يلينا التى ملكت
صورتها كل مشاعره •

وعاود السير وأخذ يسترجع كل ما قالته له • وخيل
اليه أنه يسمع وقع أقدام مسرعة خلفه فأنصت جيدا وتبين
له ان هناك شخصا يعدو كى يلحق به • وفجأة ظهر شوبين
من بين الظلال المعتمة للأشجار المحيطة به • كان لا يلبس
قبعته ، ولم يكن مهندما ، وكان يبدو شاحبا فى ضوء
القمر • قال وهو يلهث : من حسن الحظ أنك سلكت هذا
الطريق لأننى لو لم ألق بك لما ذقت النوم لحظة واحدة •
اعطنى يدك • اعتقد انك ذاهب الى البيت • اليس كذلك؟

– نعم •

– سارافك •

– اين قبعتك ؟

– لا تهتم بذلك • لقد خلعت رباط عنقى كذلك فالجو
حار •

وسار الصديقان صامتين فترة من الوقت •

– وتكلم شوبين فجأة فقال : أظن أننى ظهرت بمظهر
غير لائق اليوم • اليس كذلك ؟

– فقال له برزنيف : هذا صحيح والحق انى لم أتهمك
لا سيما اننى لم أرك تتصرف على هذا النحو من قبل •
ما الذى أغضبك الى هذا الحد ؟ لقد كان السبب فى غابة
التفاهة •

– أجاب شوبين بحدة : هذه وجهة نظرك أنت •
ولكننى لست فى حالة تسمح بمناقشة هذه التفاهات •
ولك أن تعتقد ما تشاء • ولكننى أريد أن أقول لك اننى ••
اننى •• أحب يلينا •

– ورد عليه برزنيف وقد توقف عن السير : أنت
تحب يلينا ؟

– قال شوبين : نعم • هل هذا يثير دهشتك ؟
سأقول لك أكثر من هذا • لقد كنت أمل حتى هذا المساء
أن يأتى يوم تبادلنى هى فيه هذا الحب • ولكننى تبينت
هذا المساء أنه لا أمل لى فى ذلك فهى تحب شخصا آخر •

- هل الامر كذلك ؟ ومن هو هذا الشخص ؟

- هذا الشخص هو أنت .

- قال ذلك وضرب برزنيف براحته على كتفه . .

- انا ؟

- أجل .

فترجع برزنيف قليلا ووقف واجما بينما أخذ شوبين يحدق النظر فى وجهه ثم قال له : يبدو أنك صدمت . أنت شاب متواضع ولكنها تحبك فليطمئن قلبك من هذه الناحية .

- فرد عليه برزنيف بشيء من الضيق قائلا : ماهذا

الهراء الذى تقوله ؟

- هذا ليس هراء . ولكن لماذا توقفنا عن السير ؟

دعنا نسير وذلك أفضل كثيرا . اننى أعرف يلينا منذ زمن طويل وقد خبرتها جيدا ولا يمكن أن أخطيء وقد استحوذت على قلبها ومضى الوقت الذى كانت تميل الى فيه . . ان مزاحى لا يستهويها ولكنك رجل جاد قوى الخلق وقوى البنية كما انك تفيض حماسة وتمثل بحق أولئك العلماء الذين يفخر بهم نبلاء روسيا . فضلا عن ذلك فقد شاهدتني يلينا منذ أيام وأنا أقبل يدى زويا .

- يدى زويا ؟

- نعم يدى زويا . لقد خاننتى مقاومتى . ان لها

كتفين جميلين .

- كتفين ؟

- نعم . كتفين أو يدين . ما الفرق ؟ لقد شاهدتني زويا فى هذا الموقف بعد العشاء رغم اننى كنت انتقدتها قبل العشاء أمامها . وأخشى الا تفهم يلينا أن مثل هذا التناقض شيء طبيعى . ثم جئت انت بعد ذلك وأنت رجل حساس رقيق المشاعر تستطيع ان تتحدث عن شيلر وشيلينج ، وهى تسعى دائما وراء الرجال المرموقين ، لذا فقد فزت أنت أما أنا فاننى تعس رغم اننى أحاول أن أبدو مرحا . . اننى . .

وانفجر شوبين باكيا ثم خطا جانبا وجلس على الأرض وأمسك شعره بيديه . .

- فاقترب برزنيف منه وقال له : انك تتصرف كطفل يا بافل . ما الذى أصابك هذه الليلة ؟ وما هذا الهراء الذى تقوله ؟ هانذا أراك تبكى . أنا أعتقد أن كل هذا تظاهر .

- فنظر اليه شوبين والدموع تترقرق فى عينيه وابتسم ثم قال :

لك أن تعتقد ما تشاء يا اندريا اما أنا فأعتقد اننى أصبت بحالة هستيرية . ولكننى احب يلينا - اقسام اننى أحبها ولكنها تحبك أنت . على أى حال ، لقد وعدت أن أصحبك الى بيتك وسأفى بوعدى . ثم انتصب واقفا وهتف : ياله من ليل ساحر يشعر المحبون فيه بمنتهى

السعادة • انهم لا ينامون فى مثل هذه الليلة • سوف لا تنام يا أندريا ، أليس كذلك ؟

- ولم يجب برزنيف ولكنه أسرع الحطى • فقال شوبين : لماذا تسرع هكذا ؟ تأكد أنه لن تمر بك ليله كهذه طول حياتك ، وكل ما ينتظرك فى بيتك هو شيلنج • لا شك أنه سانك وقوى مركزك اليوم ولكن حتى هذا لا يعتبر مبررا لكى تسرع هكذا • ألا تعرف الغناء ؟ ارفع صوتك بالغناء قدر ما تستطيع أو اخلع قبعتك وامرح وابتمس للنجوم فانها جميعا تنظر اليك وحدك • ان النجوم تنظر الى المحبين وهذا هو سر جمالها • انك تحب يا أندريا أليس كذلك ؟ انت لا تريد أن تجيبنى • لماذا لا تجيبنى؟ ما دمت تشعر بالسعادة فمن الأفضل ألا تجيب • اننى أثرثر لاننى تعس - لاننى شخص لا يحبه أحد • أنا كامثل أو مهرج السيرك • وكم كنت أشعر بالنشوة فى مثل هذه الليلة تحت هذه النجوم المتلألئة لو أننى عرفت أن هناك من يجبنى • هل تشعر بالسعادة يا برزنيف ؟

استمر برزنيف فى السير دون أن ينبس • وبدت أمامهما انوار القرية التى يعيش فيها وهى تظهر وتختفى من بين الاشجار • كانت هذه القرية تتكون من اثنى عشر كوخا • وكان على يمين الطريق حانوت بدال أغلقت نوافذه وانساب من بابه المفتوح شعاع من النور • وكانت فتاة يبدو أنها خادمة تقف فى الدكان تساوم صاحبه • كانت تضع منديلا حول رأسها ووجنتيها وتضمه بيدها عند

ذقنها • ومر الرجلان عبر شعاع النور ونظر شوبين الى داخل الدكان وتوقف ثم صاح « أنوشكا » فاستدارت الفتاة برشاقة وظهر وجهها الجميل وعيناها العسلتان وحاجباها الاسودان • وناداهما شوبين مرة أخرى « أنوشكا » • فظفرت الفتاة اليه وخرجت مسرعة من الدكان وقد بدا عليها الخوف والحجل دون أن تكمل مشتمياتها وعبرت الطريق الى الجهة المقابلة وأسرعت الحطى وهى تتلفت خلفها أما البقال فانه كغيره من بقالى الريف لم يظهر أى اهتمام بأى شىء وسعل وتثاب بينما التفت شوبين الى برزنيف وقال : انها •• انها •• هنا أسرة أعرفها •• انها •• لا تذهب بخيالك بعيدا •• وأسرع خلفها دون أن يكمل جملته •

- وقال له برزنيف وهو يحاول أن يمنع نفسه من الضحك : جفف دموعك على الأقل يا شوبين • ولكنه عندما عاد الى بيته كان قد اختفى من وجهه كل تعبير للمرح ولم يعد يشعر بالرغبة فى الضحك • انه لم يصدق كلمة واحدة مما قاله شوبين ولكن الكلمات تغلغلت الى أعماق قلبه وقال لنفسه : كان بافل يستدرجنى ولكن هذه الفتاة لابد أن تقع فى الحب يوما • من يا ترى سيكون هذا الشخص ؟

كان برزنيف يمتلك « بيانو » فى حجرته ولو أنه كان قديما ، فجلس اليه وأخذ يعزف بأصبع واحد • لقد تلقى كغيره من النبلاء الروس دروسا فى الموسيقى وهو

ضفيرة من الشعر الكستنائي الفاتح • كان كيانها كله
وتعبير وجهها الذي ينم عن شيء من الحجل ونظرتها الصافية
وابتسامتها الجميلة وصوتها العذب توحى كلها بجاذبية
غريبة وان كانت جاذبية لا تروق لكل الناس وكانت
يدها نحيلتين وأصابعها طويلة كما كانت قدمها صغيرتين
وكانت خطواتها سريعة رشيقة • وكانت يلينا فى طفولتها
طفلة غريبة • فقد أحبت والدها حبا جما فى أول الأمر ثم
هامت بحب والدتها ولكن عاطفتها نحوها ونحو والدها
بالذات اعتراها الفتور بعد ذلك • وبدأت تعامل والدتها
وكأنها كانت تعامل جدتها العجوز المريضة • فى حين أن
والدها الذى كان فخورا بها وهى طفلة بدأ يخشاها بعد ان
كبرت ويقول عنها انها جمهورية النزعة شديدة الحماس
للحزب الجمهورى • كانت تكره الضعيف ولا تتحمل الغباء
ولا ترضى عن النفاق • ولم يكن ثمة شيء يجعلها تتزحزح
عن مبادئها • وان حدث وفقد انسان احترامها وما أسرع
ما كانت تصدر حكمها على الناس • فانها كانت لا تعترف
بوجوده كانت كل انطباعاتها تؤثر فيها تأثيرا عميقا ، ولم
تكن الحياة بالنسبة لها أمرا يسيرا •

المربية التى عهدت اليها انا فاسيليفنا بالاشراف على
اكمال تعليم ابنتها - وهو التعليم الذى يمكن أن يقال ان
هذه المرأة لم تبدأه - كانت - روسية ابنة رجل فقد مركزه
بسبب الرشوة ، وقد تلقت تعليمها فى معهد خاص لبنات
الطبقة الراقية وكانت عاطفية طيبة القلب ولكنها كانت

صبى فى المدرسة ولكنه لم يكن يجيد العزف ، ورغم ذلك
فقد كان يعشق الموسيقى • لم يكن يحب فن الموسيقى أو
الصور الموسيقية ولكنه كان يهوى الموسيقى البسيطة التى
تثير فى الانسان مجموعة من المشاعر المختلطة • واستمر
يعزف أكثر من ساعة وهو يدق نفس الانغام مرات ومرات
ويتعثر وهو يبحث عن غيرها ويتوقف ثم يعاود العزف •
كان قلبه مثقلا • وترقرقت الدموع فى عينيه أكثر من مرة
دون أن يشعر بالحجل فقد كان يذرفها فى الظلام • وقال
لنفسه : كان بافل على حق حين قال اننى لن أرى ليلة
كهذه مرة أخرى • ثم قام من مكانه واشعل شمعة واستبدل
ملابسه ثم أمسك المجلد الثانى من كتاب تاريخ الهنستوفيين
من تأليف رومر وجلس يقرأ وهو يتنهّد •

(٦)

عادت يلينا الى حجرتها وجلست أمام النافذة
المفتوحة وأخذت رأسها بين راحتيها • لقد اعتادت أن
تمضى ربع ساعة كل مساء أمام النافذة تسترجع أحداث
اليوم السابق • كانت فى العشرين من عمرها وكانت
فارعة القوام ذات بشرة ناعمة وعينين رماديتين واسعتين
وحاجبين مقوسين وجبهة عريضة وأنف دقيق وشفتين
رقيقتين وذقن مدببة • وكانت تتدلى على عنقها الرقيق

لكاتيا خاة عجوز شريرة تكرهها كاتيا وتردد قولها بانها تريد أن تهرب منها لتعيش فى عالم « الحرية التى وفرها الرب للجميع » وكانت يلينا تنصت بشئى من الاحترام والرهبة الى هذه الالفاظ الجديدة التى لم تالفها . وكانت تركز نظراتها على كاتيا التى كان كل شئ فيها - عيناها السوداوان اللامعتان ببريق غريب ويداها اللتان أحرقتهما الشمس وصوتها وحتى رداؤها البالى - يبدو أمامها غريبا . وعندما كانت لينا تعود لبيتها كانت تظل تفكر فترة طويلة فى المتسولين وفى « الحرية التى منحها الرب للجميع » . كما كانت تفكر فى أن تقطع لنفسها عصا من فرع احدى الأشجار وتحمل مخللة على كتفها وتهرب مع كاتيا . كانت تفكر فى أن تجوب الشوارع والطرق وقد وضعت على رأسها اكليلًا من سنابل القمح كما كانت كاتيا تفعل أحيانا . واذا تصادف ودخل حجرتها أحد أفراد العائلة وهى فى لحظة من هذه اللحظات فانها كانت تقابله بتجهم وعدم ارتياح . وقد ذهب ذات يوم مطير لرؤية كاتيا فابتل ثوبها ، ورآها والدعا فأنبها ، فاحمر وجهها وتألّت ، فقد كانت شديدة الحساسية . وكثيرا ما كانت تسمع كاتيا وهى تغنى اغنية من أغاني الجنود فحفظتها . وقد سمعتها أنا فاسلفنا ذات مرة وهى تغنيها فعتقتها وسألتها من أين جاءت بهذه الاغنية المبتذلة .

- فنظرت يلينا الى أمها دون أن تنبس بكلمة ، وكانت تشعر بانها لا يمكنها أن تبسح بسرّها حتى ولو

زانفة وكانت كثيرة العشق وانتهت بان تزوجت وهى فى الحُسين - وكانت يلينا فى السابعة عشرة - من ضابط سرعان ما هجرها وكانت مولعة بالادب ولها بعض محاولات فى قرض الشعر .

وقد ولدت فى يلينا حب القراءة . ولكن يلينا لم تكتف بالقراءة بل كانت منذ طفولتها تتوق للنشاط وللقيام بعمل الخير . كان الشحاذون والمرضى والمعوزون يشغلون جزءا كبيرا من تفكيرها . كانت تراهم فى أحلامها ، وتعطيهم المعونات وتوفر لهم المساعدات بكل طاقاتها . كانت الحيوانات الضعيفة والقطط الجائعة والطيور الصغيرة التى سقطت من أعشاشها بل وحتى الحشرات والزواحف تجد العناية والمساعدة عند يلينا التى لم تكن تتأف من اطعامها بيدها . ولم تكن والدتها تلقى بالا لهذا الامر أما والدها فكانت تثيره هذه التصرفات التى كان يسميها « عاطفة مبتذلة » ، وكان يقول ان كلابها وقططها ستدفعه الى هجر البيت . وكان أحيانا يناديها ويقول لها : لينا ، تعالى بسرعة فهناك عنكب يمتص دماء ذبابة مسكينة فأنقذها . وسرعان ما تهزول يلينا منزعجة وتنقذ الذبابة .

وعندما كانت يلينا فى سن التاسعة تعرفت على سائلة اسمها كاتيا . وكانت تتسلل خلسة الى الحديقة لكى تقابلها وتقدم اليها بعض الطعام والحلوى والمناديل والنقود . وكانت تجلس معها على الارض فى ركن ناء فى الحديقة وتقاسمها خبزها الجاف وتنصت الى قصصها . وكانت

قطعت اربا ، وعاودها احمرار وجهها وتألمها . ومهما يكن الأمر ، فان اتصالها بكاتيا لم يستمر طويلا فقد مرضت الفتاة المسكينة بالحمى وفارقت الحياة .

وعندما علمت يلينا بخبر وفاة كاتيا حزنت عليها كثيرا وجفاها النوم عدة ليال ، وظل صوت هذه الفتاة المسكينة وكلماتها الاخيرة تتردد فى أذنها ، بل وخيل اليها أنها تنادىها .

وهكذا تتابعت السنون وشبت يلينا ، وكان شبابها يبدو هادئا الا أنه كان يتسم بالصراع والقلق . ولم يكن لها صديقات ولم يكن لسلطة الوالدين وزن لديها . وكانت تتمتع باستقلال كبير منذ أن بلغت السادسة عشرة . وكانت تعيش حياة خاصة بها تغلب عليها العزلة والوحدة، كانت ترفرف كالطائر الحبيس دون أن تكون حبيسة فلم يكن هناك من يحبسها أو يقيد حركتها ، ورغم ذلك كانت تنشق للحرية . وكانت أحيانا تعجز عن فهم نفسها بل وكانت تهاب نفسها . كانت الأشياء المحيطة بها تبدو لها غريبة . وكانت تخاطب نفسها : كيف يمكن أن أعيش بدون حب ؟ ولكن ليس هناك من أحب . وكانت هذه الأفكار والمشاعر تقض مضجعها . وقد أصيبت وهى فى سن الثامنة عشرة بحمى خبيثة كادت تقضى عليها ، وأثرت هذه الحمى على صحتها تأثيرا سيئا ولكنها شفيت منها تماما . على أن أباهما ظل يتحدث دائما عن أعصابها حديثا يخلو من العطف . وكانت تتصور أحيانا أنها تريد شيئا

لا يريد به أى انسان آخر ولا يفكر فيه أحد فى روسيا قاطبة . ثم تتراجع عن ذلك وتضحك من نفسها . وقد تمضى أياما خالية البال وفجأة يثور فى أعماقها شيء لا تميزه ولكنه شيء قوى لا قبل لها بمقاومته شيء يبحث لنفسه عن مخرج . ثم تهدأ العاصفة فى حنايا صدرها ويعاودها الهدوء . ولكن هذه الانفعالات العنيفة كانت تهزها . ورغم انها كانت تحاول جاهدة أن تملك زمام نفسها فقد كان الصراع الذى يعتمل فى نفسها يعبر عن نفسه حتى فى هدوئها الظاهرى وكانت زميلاتها على حق فى التعجب من تصرفاتها وكن يعجزن عن فهمها .

وفى اليوم الذى بدأت فيه قصتنا مكثت يلينا أمام النافذة أكثر مما اعتادته وأخذت تفكر كثيرا فى برزنيف وفى حديثها معه . لقد شعرت بميل نحوه وآمنت بصدق عواطفه وطيب نواياه . لم يسبق لبرزنيف أن تحدث معها على هذا النحو وتذكرت نظرة عينيه وابتسامته . وهنا ارتسمت ابتسامة على شفيتها وأخذت تفكر ولكنها لم تكن تفكر فيه . لقد أخذت تحديق النظر « فى الليل » من خلال النافذة المفتوحة . وظلت تنظر الى السماء المظلمة فترة ، ثم قامت من مكانها ورفعت يديها لأعلى نحو السماء دون أن تدري لذلك سببا ثم أنزلتها وركعت الى جوار سريرها ووضعت وجهها على وسادتها ثم انفجرت باكية رغم محاولاتها ألا تستسلم للمشاعر التى سيطرت عليها .

الحجرة غير مرتبة كما ترى . . اننى لم أرتب أمورى بعد
اذ لا وقت لدى .

كان انزاروف يتحدث الروسية جيدا وكان ينطق
كل كلمة بدقة ووضوح ، ولكنه كان يتحدث بلهجة غير
روسية . . وكان أصله الاجنبى أكثر وضوحا فى مظهره .
كان يناهز الخامسة والعشرين ، كان نحىلا ذا ملامح دقيقة
وأنف مقوس وشعر أسود وجبهة صغيرة وعينين ثاقبتين
وحاجبين أشعثين وشفقتين رقيقتين . وكان يرتدى معظفا
أنيقا .

وسأله برزنيف قائلا : لماذا تركت مسكنك السابق ؟

— هذا المسكن أرخص وأقرب للجامعة .

— ولكننا الآن فى العطلة . هل تنوى تمضية الصيف
فى المدينة ولقد كان من الأفضل لك أن تستأجر كوخا
مادمت قد قررت ان تترك المسكن الاول .

ولم يجبه انزاروف وقدم له غليوننا وقال له : معذرة -
فليس عندى سجائر أو سيجار . وتناول برزنيف الغليون
وأشعله .

— وتحدث برزنيف قائلا : لقد استأجرت كوخا
بالقرب من كونتسوفو وهو رخيص ولطيف وهناك حجرة
فائضة فى الدور العلوى .

— ومرة أخرى لم يجب انزاروف .

فى اليوم التالى استقل برزنيف عربة وعاد الى
موسكو . كان يريد أن يشتري بعض طوابع البريد وبعض
الكتب وأن ينتهز الفرصة لمقابلة انزاروف . وكان اثناء
محادثته الاخيرة مع شوبين قد فكر فى دعوة انزاروف الى
مسكنه ولكنه أمضى وقتا طويلا فى التعرف على مكان هذا
البلغارى . وكان انزاروف قد انتقل الى مسكن جديد لم
يكن من السهل بلوغه . فقد كان يقع فى الغناء الخلفى لأحد
المنازل المشيدة على طراز بطرسبرج بين شارع أرباط
وشارع بوفارسكايا . وأخذ برزنيف ينتقل من منزل الى
آخر وهل يسأل حارس المنزل أو من يجده ولكنه لم يوفق
فى محاولاته تلك . واخيرا رقت لحاله امرأة ترتدى ثوبا
باليا وأشارت له الى مسكن انزاروف ، وهناك وجده
برزنيف وكانت الحجرة التى يستأجرها انزاروف كبيرة
وشبه خالية . كان بها ثلاث نوافذ وفراش صغير فى
أحد الاركان ومقعد من الجلد فى ركن آخر وقد علق على
الحائط قفص كان به ، ذات يوم ، كروان حبيس وقد هرع
انزاروف الى مقابلة برزنيف حال اجتيازه باب الغرفة
وهتف به : أى ريح طيبة أتت بك الى هنا . ثم شد على
بده وقاده الى المقعد الوحيد فى الحجرة ، وهو يقول :
اجلس على هذا المقعد . بينما جلس هو على حافة المنضدة .
ثم أضاف مشيرا الى كومة من الأوراق والكتب على الأرض :

– وجدب برزنييف نفسا طويلا من الغليون وقال له : كنت أقول لنفسى لو اننى وجدت شخصا مثلك على استعداد لشغل تلك الغرفة لكان هذا شيئا جميلا . ما رأيك يا ديمترى ؟
فنظر اليه انزاروف وقال : هل تعرض على أن أسكن معك ؟

– نعم فعندى حجرة زائدة فى الدور العلوى .
– أشكرك جدا يا اندريا ولكننى أعتقد ان مواردى لا تسمح بذلك .
– لماذا ؟

– امكانياتى لا تسمح لى بالمعيشة فى الريف . كما أن الاحتفاظ بمسكنين فى وقت واحد عملية لا تتحملها مواردى .

– فقال برزنييف : ولكننى لم . . . ثم توقف . وعاد فقال : ولكن ذلك لن يكلفك أى مصاريف اضافية . سوف تحتفظ بهذا المسكن طبعاً ، ستجد ان كل شىء رخيص للغاية ، كما اننا نستطيع أن ننظم عملية تناول الطعام معا .

ولاذ انزاروف بالصمت ، وشعر برزنييف بشىء من الحرج . ولكنه قطع الصمت قائلاً : تفضل بزيارتى على الأقل . وسيكون من بواعث سرورى أن أعرفك باحدى العائلات التى تسكن الى جوارى . ولهذه العائلة ابنة

مدهشة حقاً . كما ان لى هناك صديقاً عزيزاً . وهو رجل موهوب ، وأنا واثق انك سترحب بصداقته . أستحلفك أن تأتى . ولو أننى أفضل أن تنتقل الى مسكنى . سيكون فى وسعنا أن نعمل ونقرأ معا . اننى أدرس التاريخ والفلسفة وهى مواد تهتم كما أننى أمتلك مجموعة كبيرة من الكتب .

وقام انزاروف من مكانه وأخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهاباً ثم قال : هل لى أن أسالك كم تدفع ايجاراً لكوخك ؟

– مائة روبيل من الفضة .

– وكم عدد غرفه .

– خمسة .

– أى ان ايجار الغرفة عشرون روبيلاً .

– نعم . ولكننى فى الحقيقة لست فى حاجة الى هذه الغرفة وهى خالية .

ورد انزاروف بلهجة قاطعة : لن أقبل هذا العرض الا اذا وافقت على أن أدفع ايجار الغرفة ان فى استطاعتى أن أدفع عشرين روبيلاً خصوصاً انك قلت انى أستطيع أن أوفر فى كل شىء .

– بالتأكيد . ولكننى لا أشعر بالارتياح لهذا الحل .

– أنا لا أقبل أى حل آخر يا أندريا .

- حسن • لك ماتريد ، ولكن اسمح لي أن أقول
انك صلب الرأي •

ومرة أخرى لم يجب انزاروف ••

واتفق الصديقان على اليوم الذي سيرحل فيه
انزاروف • واستدعيا المالك ولكنه أرسل ابنته أولا وهي
فتاة في السابعة من عمرها فاستمعت الى كل ما قاله لها
انزاروف ثم خرجت في هدوء ودخلت امها وكانت حاملا
في شهرها الاخير فأخبرها انزاروف انه سيرحل الى الريف
بالقرب من كونتسوفو ولكنه يريد أن يحتفظ بمسكنه
وطلب منها ان تعتني بحوائجه • فخرجت وأخيرا دخل
المالك بنفسه وقد بدا عليه انه يفهم الموقف ، ولكنه سأل
قبل أن يغادر الحجرة : بالقرب من كونتسوفو ؟ أليس
كذلك ؟ ولكنه عاد وتساءل : ولكن أستحتفظ بالحجرة ؟
لا بد لي أن أعرف • فأكد له انزاروف أنه سيحتفظ بها
وعاد برزنيف الى بيته وهو في غاية السرور لنجاح
مهمته • وأوصله انزاروف الى الباب مودعا ثم خلع معطفه
بكل عناية وبدأ في ترتيب أوراقه •

(٨)

جلست انا فاسيليفنا ذلك المساء في حجرة الجلوس
وهي توشك على البكاء • كان معها زوجها وضيف اسمه

بوفارايغانوفتش ستاكوف وآخر اسمه نيكولاي ارتيميفتش
من الاقارب الأبعد وهو ضابط متقاعد في الستين من عمره
تقريبا ضخم الجثة ذو وجه منتفخ • وكان منذ تقاعده
يعيش في موسكو على دخل يأتيه من ثروة تركتها له زوجته
وكانت من أسرة تعمل بالتجارة قبل وفاتها ولم يكن هذا
الضابط المتقاعد يقوم بأى عمل بل ولم تكن لديه قدرة
على التفكير قط واذا فكر فانه كان يحتفظ بأفكاره
لنفسه •

أما يوفار ايغانوفتش فكان يرتدي حلة بنية اللون
ويلف حول عنقه منديلا أبيض • وكان يأكل كثيرا وبكميات
كبيرة • وكان اذا أراد ان يعبر عن رأيه ثنى أصابع يده
اليمنى ورفعها في الهواء في عصبية • كان يتكلم بصعوبة
وكان يجلس على مقعد كبير بالقرب من النافذة ويتنفس
بمشقة •

وكان نيكولاي ارتيميفتش ستاكوف يغدو ويروح في
الحجرة وقد وضع يديه في جيبه وارتسمت على وجهه نظرة
تنم عن عدم الرضا • وأخيرا توقف وهز رأسه ثم قال :

- نعم •• لقد كانت أخلاق الشباب في أيامنا تختلف
عما هي عليه الآن • فالشباب في أيامنا لم يكونوا
يتجاهلون من يكبرونهم • ولكن الانسان يدهش من
سلوكهم الآن • قد أكون على خطأ وهم على صواب - ربما •
ولكنني لا أزال أحتفظ بأرائي الخاصة عن كل شيء •

على أى حال ، أنا لم أولد غيبيا • مارأيك فى هذا يا بوفار
ايفانوفتشس ؟

ونظر اليه بوفار وأخذ يثنى أصابعه •
ومضى ستاكوف فى حديثه قائلا :

– خذ يلينا نيكولايفنا مثلا ، اننى حقيقة لا أفهمها
فعقلى يعجز عن ذلك ان قلبها كبير حتى أنه يتسع لجميع
المخلوقات الى أصغر صرصور أو ضفدعة • انه يتسع لكل
شئ ولكل انسان الا اياها • أنا أعرف ذلك ولكننى
لا اتدخل فيما لا يعنينى فذلك أمر يتعلق بالاعصاب والعلم
والتحليق فى الآفاق العليا وهى كلها أمور لا أفقه فيها
شيئا • ولكن ما خطب المستر شوبين • أنا أسلم بأنه فتان
عظيم ولا أجادل فى هذا ، ولكن عدم احترامه لشخص
يكبره سنا ويدين هو له بالكثير شئ لا أقبله أنا لا أبالغ
ولكن لكل شئ حد •

ودقت انا فاسيليفنا الجرس بانفعال وجاء الخادم
فسأله قائلة : أين بافل ياكوفليفتش ولماذا لا يأتى عندما
أناديه ؟

فهز ستاكوف كتفيه وقال :

– لماذا تريدنه ؟ انا لم أطلب منك ان ترسلنى فى
طلبه ولا اريد أن تفعلنى ذلك •

– ماذا تعنى بسؤالك هذا ؟ لقد ضايقتك • وربما

أثر ذلك فى سير علاجك • اننى أريد أن يوضح لى كل
شئ كما اريد أن أعرف كيف أغضبك •

– أكرر أنى لا أرغب فى ذلك • واستأنف يقول
بالفرنسية : تصورى كيف يكون هذا أمام الخدم !
فاحمر وجه انا فاسيليفنا قليلا ثم قالت :

– لا تقل هذا يا نيكولاى ارتيميفتش • اننى لا أفعل
مثل هذه الاشياء ••• (وأضافت بالفرنسية) أمام الخدم
•• اذهب يافيديا واحضر بافل ياكوفليفتش فى الحال •
فخرج الخادم ••

وقال ستاكوف : لا داعى لذلك أنا لم أقصد هذا
أبدا •

ثم أخذ يسير فى الحجره جيئة وذهابا مرة أخرى ••
– ولكن لا بد لبول أن يعتذر لك •

– له ؟ وما أهمية اعتذاره ؟ ان الاعتذار ليس
الا مجرد كلمات ••

– ماذا تعنى بقولك – لماذا – لا بد لنا أن نؤنبه •
– افعلنى ذلك انت فقد يستمع اليك • اما انا فانى
لا أحمل له أى ضغينة •

– كلا ، كلا ، يانيكولاى ارتيميفتش • لقد أصبحت
حاد الطبع منذ مجيئك • بل ويبدو انك فقدت كثيرا من
وزنك فى الفترة الاخيرة ، وأخشى أن تكون المياه المعدنية
قد أصبحت لا تفيدك •

– أنا لا أستطيع أن أستغنى عن المياه المعدنية وهى
ضرورية لكبدى المريض .

وحضر شوبين فى هذه اللحظة كان يبدو عليه التعب
وكانت ابتسامة ساخرة تعلق شفقيه . وسألها قائلا :
– هل أرسلت فى طلبى يا انا فاسيليفنا ؟

– بالطبع . استمع الى يابول . هذا شىء مريع . انا
غير راضية عنك . لماذا تظهر عدم الاحترام لنيكولاى
ارتيميقتش ؟

– هل اشتكى لك نيكولاى ارتيميقتش منى ؟
وجه اليها هذا السؤال وهو ينظر الى ستاكوف
والابتسامة الساخرة لا تبارح شفقيه . فابتعد ستاكوف
وخفض عينيه ..

– أجل . أنا لا أعرف كيف أهنته ولكنك لابد أن
تعتذر له فى الحال فصحته ليست الآن على مايرام . ثم
ان من واجب الشبان أن يحترموا من يحسنون اليهم .
وحدث شوبين نفسه قائلا :

– يا الهى . ياله من منطوق ! ثم استدار الى ستاكوف
وقال له وهو ينحن أمامه نصف انحناءة :

– أنا على استعداد لأن أقدم لك اعتذاراتى يانيكولاى
ارتيميقتش اذا كنت قد جرحت مشاعرك .

فأجابه ستاكوف قائلا : وليس الأمر كذلك على

الاطلاق . وعلى كل فقد عفوت عنك عن طيب خاطر وأنت
تعلم أننى لا أحمل ضغينة لأحد .

قال شوبين : لاشك فى هذا . ولكن هل لى أن
أسأل : أتعرف انا فاسيليفنا ما ارتكبتة أنا فى حقك ؟
فقالت أنا وهى تمد رقبتها : كلا أنا لا أعرف
شيئا .

فصاح ستاكوف قائلا : يا الهى . فقد طلبت اليك
ورجوتك وأخبرتك عدة مرات انى أكره هذه المواقف . ان
الانسان يأتى الى البيت لينشمد الراحة فيقال له ان هناك
اجتماعا عائليا وان عليه أن يتصرف كرب اسرة ، لا يجد
الانسان فى بيته الا المتاعب لا يستطيع الانسان أن يستريح
فى بيته ، اذا فانه يجد نفسه مضطرا للذهاب الى النادى
أو لآى مكان آخر . نحن بشر ولبدننا علينا حق ولكن بدلا
من ذلك ..

ونفض ستاكوف وخرج مسرعا دون أن يكمل
حديثه وأغلق الباب خلفه . ونظرت انا فاسيليفنا اليه وهو
يخرج وقالت هامسة : الى النادى ؟ لن تذهب الى النادى
أيها الرجل الماجن ، فليس فى النادى من تهديه جوادين
أشهبين من حظيرتى الخاصة ، ايها المنافق . لست ذاهبا الى
النادى . وأنت يابول ألا تشعر بالحجل من نفسك ؟
قالت ذلك وهى تهتم بالوقوف . ثم أضافت قائلة :
كنت أعتقد أنك قد نضجت . اننى أشعر بصداع .
ألا تعرف أين زويا ؟

— أعتقد أنها فى الدور العلوى • انها كالتغلب الماكر
تختبىء فى ركنها الخاص عندما يكون الجو بهذا الشكل •

ونظرت أنا فاسيليفنا حولها وهى تبحث عن شىء ثم
قالت : من فضلك يا بول • ألم تر نظارتى ؟ حق رجائى
ولا تفعل ما يغضبنى بعد الآن ••

— كيف أستطيع أن أ غضبك يا خالتي ؟ دعيني أقبل
يدك • أما نظارتك فقد رأيتها على منضدتك فى حجرة
المكتب •

فقالت وهى تغادر الحجرة : ان داريا يخطيء دائما
ولا يضعها فى المكان الصحيح •

وقام شوبين ليلحق بها ولكنه توقف عندما سمع
صوت يوفار ايفانوفتش خلفه يقول : ليست هذه •• هى
المعاملة التى ينبغى أن تصدر من شخص مثلك •

فسار شوبين اليه وقال له : لم لا أيتها المحترم ؟
— لم لا ؟ انك صغير السن وواجبك ان تظهر
الاحترام •••

— لمن ؟
— الا تعرف لمن ؟ انت تعرف لمن •

فوضع شوبين ذراعيه على صدره وقال : لا بد انك
تمثل مبادئ هذا المجتمع وأساس هذا البناء الاجتماعى •
وثنى يوفار ايفانوفتش أصابعه وقال : كفى ايها
الشباب ولا تخرجنى عن طورى •

ومضى شوبين يقول : ها أنذا أرى نبيلا لم يعد
شابا كما كان ولكنه يبدو سعيدا ولا يزال يتمسك بعقائد
الأطفال •• احترام •• يالها من كلمة • هل تعرف ايها
الرجل البدائى لماذا غضب نيكولاي ارتيميفتش منى ؟ لقد
كنت أنا وهو فى بيت الأرملة طوال الصباح وكنا نغنى
إنحن الثلاثة أغنية « تلكأ معى قليلا » لابد انك سمعتها
وأظنك تحب مثل هذه الأشياء • وأخذنا نغنى ونغنى حتى
شعرت بالملل فبدأت فى مضايقتها وقد فعلت ذلك بمهارة
وقد غضبت هى منى فى أول الأمر ثم غضبت منه ثم غضب
هو منها وقال انه لا يشعر بالراحة الا فى بيته الذى يشبه
الجنة • وقالت هى انه شخص لا خلاق له • غادر البيت
بينما بقيت أنا • وجاء هو الى هنا — الى الجنة — فوجدها
لا تطاق فبدأ يزمجر • والآن من منا المخطيء ؟

اجابه يوفار ايفانوفتش : أنت بالطبع • فحملك
شوبين فى وجهه وقال له فى تذلل مصطنع : هل لى أن
أسألك أيها الفارس العظيم ما اذا كنت قد تقوهت بهذه
الألفاظ الغربية نتيجة استعمالك لقدرتك على الفهم أو انك
قلتها مدفوعا بدافع مؤقت لاحداث صوت تسميه بالكلام ؟
فرد عليه يوفار ايفانوفتش بغضب قاتلا : قلت لك
لا تخرجنى عن طورى ••

وخرج شوبين وهو يضحك ••
ومضت ربع ساعة تقريبا ونادى ايفانوفتش الخادم

قاتلا :

احضر لى ٠٠ كأسا من الفودكا .

فأحضر الخادم الفودكا وبعض الطعام على صينية ،
فاخذ يوفار الكاس من الصينية برفق واخذ يتفحصها وكأنه
لا يعرف ما بها . ثم نظر الى الخادم وسأله أكان اسمه
فاسكا . ثم شرب الفودكا وتناول بعض الطعام ، ثم أخذ
يبحث فى جيبه عن منديله . وبعد أن حمل الخادم الصينية
وزجاجة الخمر والتهم بقية طعام كان يوفار ايفانوفتس
لا يزال يمسك فى يده بمنديله وهو يحملق بشدة فى
النافذة والارض ، والجدران .

(٩)

كان شوبين قد عاد لتوه الى حجرته وفتح كتابا عندما
دخل اليه خادم ستاكوف وأسلمه ورقة صغيرة تحمل
خاتما خاصا . وفض شوبين الرسالة وقرأ فيها ما يلى :
« أرجوك كرجل شريف ألا تشير أى اشارة الى
موضوع الكميالة الذى جرت مناقشته هذا الصباح .
انك تعرف علاقتى ومبادئى وما الى ذلك ثم هنالك بعض
الاسرار العائلية التى يجب احترامها . كما أن الوفاق بين
أفراد الأسرة شىء مقدس لا يحاول النيل منه سوى من
لا قلب لهم ، ولا أستطيع أن أنسبك اليهم . (ارجو اعادة
هذا الخطاب) ... »

فكتب شوبين بالقلم الرصاص فى آخر الخطاب

ما يلى :

« لا تقلق - ما زلت قادرا على الاستغناء عن سرقة
المناديل من جيوب الآخرين . » ثم أعاد الخطاب للخادم
وعاد لقراءة كتابه . ولكن الكتاب سقط من بين يديه .
ونظر الى السماء والى لون الشفق ساعة الغروب ثم الى
شجرتين كبيرتين من أشجار الصنوبر نمتا متباعدتين عن
بقية الأشجار ثم قال لنفسه : ان أشجار الصنوبر يكتنفها
لون يميل الى الزرقة أثناء النهار ولكنها تكتسى بلون أخضر
جميل عند الغروب .

ثم نزل الى الحديقة يراوده الأمل فى أن يقابل ييلينا .
ولم يخب ظنه فقد رآها على الطريق الذى تحف به الأشجار
فلحق بها ولما أصبح الى جوارها قال لها : لا تنظرى الى فانا
لا أستحق هذه النظرة .

فنظرت اليه وابتسمت له ابتسامة خاطفة وسارت
الى ركن بعيد فى الحديقة وتبعها شوبين ثم قال لها : لقد
طلبت اليك الا تنظرى الى ورغم ذلك فاننى أتحدث اليك
وهذا تناقض واضح . ولكن هذا لا يهم فليست هذه أول
مرة أفعل فيها هذا . اننى لا أزال أفكر فى أننى لم أطلب
منك الصفح عن حماقتى بالأمس . أرجو ألا تكونى قد
غضبت منى يا ييلينا نيكولايفنا .

فوقفت ولكنها لم تجبه فى الحال . لم يكن ذلك

فاحمر وجه يلينا قليلا ثم مدت له يدها فسلم عليها
شوبين بحرارة .

قالت : يبدو كأنك قد أوقعتنى فى مازق أستحق
عليه اللوم ولكن شكوكك لا أساس لها من الصحة ، فانا
لم أفكر فى أن أتجاهلك ..

– حسن . ولكنك تفريين أن هناك الآن ألف فكرة
فى ذهنك ولكنك سوف لا تسرين الى بوحدة منها . اليس
كذلك ؟

– ربما .

– لماذا ؟

فردت عليه يلينا قائلة : اننى لا أفهم أفكارى .

فقال شوبين : هذا أدعى الى الافضاء بها لشخص
آخر .. ولكنى سأحدثك عن السبب فى أنك لا تفعلين
ذلك . السبب هو انك لا تفكرين كثيرا فى أنا .
– أنا ؟

– أجل لأنك تتصورين أن كل شىء أقوم به فيه
تظاهر كثير لأننى فنان وأننى غير قادر على القيام بأى عمل
– قد تكونين محقة فى هذه الفكرة – وقد ترين أننى
لا أستطيع أنأ شعر بأحاساس حقيقى عميق واننى لا أستطيع
حتى أن أبكى بكاء حقيقيا وأننى لست الا شخصا ثرثارا ..
وما ذلك الا لأننى فنان . يالنا من طبقة تعسة نحن الفنانين
اننى أراهن أنك لا تؤمنين بندمى .

نتيجة غضبها بل لفرقتها فى لجة من الافكار وقالت له أخيرا:
– كلا ليست غاضبة منك قط .

فعض شوبين على شفتيه وتمتم قائلا : ياله من وجه
ينطق بامارات الانشغال والسأم معا . ثم قال بصوت
مسموع : هل لى أن أقص عليك قصة ياييلنا نيكولايفنا ؟
لقد كان لى صديق وكان له صديق كان سلوكه طيبا فى
أول الأمر ولكنه أذمن الحمر فيما بعد . وقد التقى به
صديقى صباح أحد الأيام فى الشارع – وكانت صداقتهم
قد انتهت قبل هذا اللقاء – ولاحظ انه ثمل فتجنبه ولكن
ذلك الصديق سعى اليه وقال له : لا يهمنى أنك لم تحينى
بايعة من رأسك ، ولكننى أريد أن أسألك لماذا تجنبتنى؟
اننى أفعل ما أفعله لأننى أعانى بعض المشاكل ولعل الله
يمنحنى راحة البال ..

وسكت شوبين :

فقالت له يلينا : هل هذا كل ما عندك ؟

– نعم .

– ولكننى لم أفهم ما تشير اليه . لقد طلبت منى
لتوك ألا أنظر اليك .

– نعم . وقد أخبرتك الآن كم من الصعب أن يتجنب
المرء غيره أو أن يتجاهله .

فقالت له يلينا : ولكن هل فعلت أنا ذلك ؟

– ألم تفعل ذلك ؟

— أنت مخطيء يا بافل ياكوفليفتشس • اننى أوْمَن
بندمك كما أنتى أصدق دموعك •

قال يحدث نفسه : أرى أن هذه كما يقول الاطباء،
حالة ميثوس منها • كل ما أستطيع أن أعمله أن أحنى
رأسى خضوعا • ولكن يا الهى •• هل يمكن أن أظل أُثير
الضجة حول نفسى رغم وجود هذه المخلوقة الرائعة الى
جانبي ؟ وأن أظل أعرف أننى عاجز عن النفاذ •• الى أعماق
هذه النفس • او أجهل سبب حزنها أو سعادتها وأجهل
ما يدور بنفسها وما تصبو اليه والى أين تسير ؟

ثم قال لها بعد برهة وجيزة : هل تعتقدين أنك
لا يمكن أن تقعى فى حب، فنأن تحت أى ظرف من الظروف؟
فنظرت اليه يلينا نظرة فاحصة ثم قالت :

— لا أعتقد أن يحدث هذا يا بافل ياكوفليفتشس •

ورد يقول فى أسى : لقد ثبت ماتقولين • ويبدو لى
أنه يجب على ألا أفسد عليك خلوتك أكثر من ذلك رأنت
تسيرين بمفردك •• ولو كان محدثك أستاذا فى الجامعة
لسألك قائلا : وما هى الأسباب التى تجعلك ترفضين
ولكننى لست أستاذا جامعيا • انتى طفل فى نظرك •
على أية حال ليس للانسان أن يتجاهل الاطفال •• تذكرى
هذا والى اللقاء ولينحنى الله الراحة •

كانت يلينا على وشك أن توقفه ولكنها عدلت عن
ذلك وقالت : الى اللقاء ••

وخرج شوبين من الفناء • وبعد أن ابتعد قليلا عن
كوخ ستاكوف التقى ببرزنيف الذى كان يسير بنشاط
وقد أحنى رأسه وأمال قبعته فوق مؤخرة رأسه •

وناداه شوبين : اندريا بتروفتش •
فوقف برزنيف ••

ولكن شوبين قال له : استمر فى سيرك استمر
وادخل الى الحديقة رأسا فستجد يلينا هناك أعتقد أنها
تنتظرك • على أى حال •• هل تنتظر أحدا • هل تفهم
ما تعنى هذه الألفاظ ؟ انها تنتظر • وهل تعلم ما هو أغرب
شئ ؟ لقد عشت معها فى بيت واحد طوال سنتين • اننى
أحبها ولكننى لم أرها حقيقة — ولا أريد أن أقول ما فهمتها—
الا هذه اللحظة • لقد رأيتها وتعجبت • أرجو ألا تنظر الى
وعلى شفتيك هذه الابتسامة التى لا تتناسب سخريتها مع
ملامح وجهك الكريم • أنا أعلم انك تريد أن تذكرنى
بأنوشكا • وماذا فى ذلك ؟ أنوشكا وأمئالها هو ما يريد
أمئالى • اذن فلتحيا أنوشكا وأمئالها وزويا وأمئالها بل
وحتى أوجستينا كريستيانوفا وأمئالها • اذهب أنت الى
يلينا الآن • أما أنا فذاهب لزيارة ••• هل ظننت اننى
ذاهب لزيارة أنوشكا ؟ — لا •• لا •• انها زيارة أسوأ من
ذلك • اننى ذاهب للأمير تشيكورازوف فهناك أحد مشجعى
الفن بهذا الاسم • انظر الى بطاقة الدعوة هذه • انهم
لا يريدون أن يتركونى وشأنى حتى فى الريف • وداعا •

في جوتنجن وألف كتابا عن « مظاهر الحياة الروحية في العالم » وهو كتاب ضمنه آراء شيلنج وسوبدنبورج وغيرهما بطريقة مبتكرة . وقد جاء والد برزنيف به الى موسكو بعد وفاة أمه مباشرة وأخذ يشرف على تعليمه بنفسه . وكان يعد كل درس ويعمل بمثابرة وجد ، ولكن دون أى نجاح . وكان يقضى وقتا طويلا فى القراءة ، وكان متصوفا ويتحدث بصوت متعثر لا تعبير فيه ، ويستعمل لغة غامضة بليغة منمقة يكثر فيها من التشبيهات . وكان خجولا حتى مع ابنه الذى كان يحبه من كل قلبه . لا عجب إذن فى أن ابنه كان يتطلع اليه أثناء الدروس ولكن دون أن يحرز تقدما ما . وأخيرا رأى الرجل الذى كان قد ناهز الحمسين وتزوج ثانية أن هذه الطريقة غير مجدية فأرسل أندريا الى مدرسة داخلية . وبدأ أندريا يدرس دراسة جدية ، ولكنه لم يخرج عن اشراف والده فكان والده يزوره كثيرا ودون انقطاع وكان ينقل على ناظر المدرسة بمناقشاته وأحاديثه . وكان الأساتذة ينظرون بضيق الى هذا الضيف الثقيل وكان من آن لآخر يأتى لهم بكتب عن التربية كانوا يصفونها بأنها كتب جافة ذات مستوى عال . حتى التلاميذ كانوا لا يشعرون بالارتياح اذ ينظرون الى وجهه الذى ترك عليه الجدرى آثاره التى لا تمحى والى قوامه النحيل وهو يرتدى حلته الرمادية . ولم يكن يخطر ببالهم أن هذا الرجل العبوس الذى يبدو عليه الاكتئاب ، هذا الرجل ذو المشية السريعة والأنف الطويل ، كان يحبهم

استمع برزنيف الى حديث شوبين الحماسى فى صمت وكان حديث صديقه قد حيره ثم دلف الى فناء بيت ستاكوف . أما شوبين فقد ذهب بالفعل الى منزل الأمير تشيكورازوف وألقى على مسامعه كثيرا من الأشياء المقذعة بطريقة لطيفة . وضحك الأمير ملء شديقه كما ضحك ضيوفه ولكن واحدا منهم لم يشعر ، فى الحقيقة ، بالبهجة والسرور وعندما انفض الاجتماع عاد كل الى عبوسه .

(١٠)

رحبت يلينا ببرزنيف ترحيبا وديا - وكانت فى حجرة الاستقبال - واستأنفت باهتمام المناقشة التى كانا قد بدأها فى اليوم السابق . كانت بمفردها اذ كان ستاكوف قد خرج فى هدوء ، كما كانت أنا فاسيليفنا ترقد فى الدور العلوى وقد ربطت يدها بضمادة وزويا الى جوارها وقد أراحت يديها فى حجرها . أما يوفاز ايفانوفتش فكان مستلقيا على أريكة مريحة فى حجرة أخرى .

وتحدث برزنيف عن والده مرة أخرى وكان يؤمن أن ذكره شىء مقدس . ولا يفوتنا أن نذكر هنا نبذة عنه . لقد كان يمتلك اثنين وثمانين من العبيد أطلق سراهم جميعا قبل وفاته . وكان رجلا واسع الثقافة تلقى تعليمه

ويعطف عليهم بقدر ما يحب ابنه ويعطف عليه . وقد رأى ذات يوم أن يتحدث اليهم عن واشنطنطن . وعندما بدأ حديثه قال لهم : أصدقائي الصغار . ولكن ما ان سمع التلاميذ صوته الغريب حتى تفرقوا وانفضوا عنه . لقد سار هذا الرجل في طريق وعر وكانت تطورات التاريخ وغير ذلك من المشاكل والاعتبارات تملؤه حسرة وأسى . وبعد أن التحق برزنيف بالجامعة كان أبوه يصحبه في قاعات المحاضرات ، ولكن صحته أخذت تسوء . وقد سببت له أحداث عام ١٨٤٨ صدمة كبيرة ، ومات في شتاء سنة ١٨٥٣ قبل أن يتخرج ابنه ولكن بعد أن هنأه مقدما وباركاً رغبته في العمل في مجال العلوم . قال الأب لأندريا قبل وفاته بساعتين : اننى أسلمك مشعلا ظللت أحمله طالما واتتني القدرة على ذلك . وعليك أنت أيضا ان تحمل هذا المشعل حتى آخر لحظة في حياتك .

حدث برزنيف يلينا كثيرا عن والده . ولم يعد يشعر بالحنج أو الارتباك في وجودها . ثم عرّبت المحادثة بينهما على الحديث عن الجامعة وقالت له يلينا : هل كان هناك أشخاص ذوو حيثية بين زملائك من الطلبة ؟

فتذكر برزنيف ما كان شوبين قد قاله له وأجابها قائلا : كلا يا يلينا نيكولايفنا لم يكن بينهم أشخاص ذوو حيثية ولم يكن ذلك ممكنا . يقال ان الأمور كانت تختلف في جامعة موسكو عما هي عليه الآن ، لقد تغيرت عما كانت عليه فغدت مدرسة لا جامعة (وهنا خفض من صوته

وأضاف قائلا) : كما ان علاقتى بزملائى لم تكن طيبة . . . وتساءلت يلينا : أحقا لم تكن علاقتك طيبة بزملائك؟ فاستأنف برزنيف حديثه قائلا : أريد أن أشير الى حالة استثنائية فى هذا الصدد اننى أعرف طالبا ولو أنه كان فى فرقة غير فرقتي - من الشبان المرموقين فسألته يلينا باهتمام واضح : وما اسمه ؟

- اسمه ديمترى نيكافوروفتش انزاروف وهو بلغارى .

- هو ليس روسيا اذن .

- كلا انه ليس روسيا .

- فلماذا يعيش فى روسيا اذن ؟

- لقد جاء الى هنا للدراسة . هل تعلمين حكمة التعليم كما يراها ؟ ان الفكرة المسيطرة عليه هى تحرير بلاده . كذلك فان حياته حياة غير عادية .

فقد كان والده تاجرا غنيا فى مدينة تيرنوفو . تيرنوفو مدينة صغيرة فى الوقت الحاضر ولكنها كانت فى الماضى عاصمة بلغاريا عندما كانت لا تزال مملكة مستقلة . وكانت له معاملات مع صوفيا كما كانت له علاقات مع روسيا . ولا تزال أخته وهى عمّة انزاروف تعيش فى كييف وهى متزوجة من مدرس تاريخ .

وفى سنة ١٨٣٥ أى منذ ثمانية عشر عاما ارتكبت جريمة شنعاء فقد اختفت والدة انزاروف فجأة ثم عثروا عليها وقد ذبحت بعد ذلك بأسبوع .

ارتعشت يلينا وتوقف برزنيف عن الكلام . ولكنها
قالت له : استمر في حديثك ، استمر .

- فقال : لقد أشيع أن القائد الذكي اختطفها ثم
قتلها . وقد استطاع زوجها وهو والد انزاروف ان يعرف
كل شيء عن هذا الموضوع وحاول أن ينتقم لنفسه ولكنه
لم يفعل أكثر من انه اصاب القائد بجرح بخنجره ولكنه
هو لقي حتفه . . .

- لقي حتفه ؟ تعني انه قتل دون محاكمة ؟

- نعم . وكان انزاروف في الثامنة من عمره فأواه
بعض الجيران ، وعلمت عمته بما حل بأسرة أخيها وطلبت
أن يرسل ابن أخيها اليها . فأخذ الى أوديسا ومنها الى
كييف حيث عاش اثنتي عشرة سنة ، وهذا هو السبب في
انه يتحدث بالروسية بطلاقة .

- وهل يتحدث الروسية ؟

- كما تتحدثيها أنت وأتحدثها أنا . وعندما بلغ
العشرين أي في أوائل عام ١٩٤٨ صمم على العودة الى وطنه
وذهب الى صوفيا وتبرنوفو وأخذ يتجول في جميع أنحاء
بلغاريا وأمضى هناك سنتين وعاد يتعلم لغة بلاده . وقد
اضطهدته الحكومة التركية ، وأعتقد أنه قد تعرض لمخاطر
كثيرة خلال هاتين السنتين .

وقد رأيت ذات مرة أثر جرح كبير على رقبته ولكنه
لا يحب أن يتحدث عنه . وهو بطبيعته قليل الكلام . وقد

حاولت أن أوجه اليه بعض الأسئلة ولكنني لم أحصل منه
على اجابة شافية . انه عنيد الى حد كبير . وقد عاد الى
روسيا عام ١٨٥٠ لاستكمال دراسته وتوطدت علاقته مع
الروس . ولكن عند التخرج . . .

- فقطعته يلينا متسائلة : ماذا عند التخرج ؟

- عند التخرج سيري مايكون فمن الصعب التنبؤ
الآن . وظلت يلينا تحدد في برزنيف فترة طويلة . ثم قالت
له : لقد قصصت على قصة غريبة حقا . وما شكل صديقك
هذا ؟

هل قلت ان اسمه انزاروف ؟

- أعتقد أنه وسيم . وعلى كل فانك ستحكيين
بنفسك .

- وكيف ذلك ؟

- سأحضره الى هنا . انه سيأتي الى قريتنا بعد غد
وسيشترك معي في السكن .

- حقا ؟ ولكن هل يكثر بالحضور الى هنا ؟

- يكثر ؟ انه سعيد بقدمه .

- هل هو متكبر ؟

- متكبر ؟ كلا . ولكنه متكبر بمعنى آخر ، فهو

لا يحاول ان يقترض نقودا من أحد . . .

- وهل هو فقير ؟

.. كلا ..

– ولماذا ذهب الى صوفيا ؟

– لقد عاش أبوه هناك .

– فقالت يلينا وهي تفكر : عاش أبوه هناك ..

ثم اردفت :

لكي يحرق بلاده ... انها الفاظ مخيفة ولكن
عظيمة .

وهنا دخلت فاسيلينا وانقطعت المحادثة ..

كان برزنيف يحس احساسا غريبا وهو يسير في
الطريق الى بيته ذلك المساء . لم يندم لأنه عرض أن يقدم
أنزاروف الى يلينا ووجد من الطبيعي أن تهزها قصته و
البغاى الشاب . ولكنه أحس بشعور غامض يجيش في
صدره وشعر بحزن غريب بيد أن هذا الحزن لم يمنع
عندما وصل الى مسكنه من أن يأخذ كتاب « تاريخ
الهنستوفيين » ، ويستأنف القراءة من حيث توقف في
اليوم السابق .

(١١)

وصل انزاروف ومعه متاعه الى بيت برزنيف بع
يومين كما سبق أن وعده . ولم يكن معه خادم ولكنه

– انه ليس غنيا . وقد استطاع أثناء وجوده في
بلغاريا أن يجمع بعض المال من الممتلكات التي تركها له
والده . وعلاوة على ذلك فان عمته تساعده ولكن هذه
المساعدة لا تكاد تذكر .

– لا بد انه على خلق كريم .

– نعم : انه رجل من حديد . وعلى كل ، فسترون
أنه رغم تحفظه بل ورغم تكتمه برىء براءة الطفولة ولكن
براءته ليست من النوع الساذج كما أنها ليست براءة من
لا يجدون شيئا يستحق الاخفاء وعلى كل انتظري حتى
أحضره الى هنا .

– سألته يلينا قائلة : انه ليس خجولا ، اليس
كذلك ؟

– كلا فان من يخجلون هم شديدا الحساسة .

– وهل أنت شديد الحساسة ؟

فنظر اليها برزنيف بارتباك .

– وأضافت قائلة : لقد أثرت في نفسي حب
الاستطلاع ولكن قل لي هل انتقم لنفسه من القائد التركي :
فابتسم برزنيف وقال : هذا لا يحدث الا في القصص
يا يلينا نيكولايفنا . وعلاوة على ذلك فقد يكون القائد
التركي قد مات خلال السنوات الاثنتى عشرة السابقة .

– فقالت له : ولكن ألم يحدثك صديقك عن هذا ؟

معه تحت سقف واحد • وكروسي اصيل وجد برزنيف
ان هذه الدقة المتناهية شيء معقول بل ومثير للضحك ولكنه
اعتادها بمضى الوقت بل ووجدتها ، في آخر الامر ،
مريحة •

استيقظ انزاروف في اليوم التالي لوصوله في
الرابعة صباحا وقام بجولة سريعة في معظم أنحاء كونسوفو
واستحم في النهر وشرب كوبا من اللبن المثلج ثم بدأ
يعمل ، كان يدرس التاريخ الروسى ، والقانون والاقتصاد
السياسى كما كان يترجم بعض الاغانى والمقالات البلغارية،
ويقوم بجمع المعلومات عن مشكلة الشرق الأدنى • وكان
قد بدأ في تأليف كتاب عن قواعد اللغة الروسية
للبلغاريين وكتاب عن قواعد اللغة البلغارية للروس •

وجاءه برزنيف في زيارة قصيرة للتحديث معه عن
فورباخ • وأولاه انزاروف أذنا صاغية وكانت تعليقاته
القليلة الرقيقة تدل على أنه كان يحاول أن يقرر ما اذا كان
الامر يقتضى أن يدخل معه في مناقشة حول فورباخ
أم لا •

وتعرض برزنيف لموضوع مؤلفات انزاروف منه أن
يريه بعضها فقرأ له انزاروف الترجمات التى أعدها لأغنيتين
بلغاريتين ثم سأله رأيه فيها فانبأه برزنيف أن الترجمة
في رأيه سليمة وان كان ينقصها التعبير • وتقبل انزاروف
هذا النقد راضيا • ثم انتقل برزنيف من الحديث عن

استطاع دون مساعدة أحد أن يرتب حجراته وما بها من
أثاث • وقد أمضى وقتا طويلا فى وضع المكتب فى مكانه
ولكنه لم يستطع رغم ما بذل من جهد أن يضعه فى المكان
المحدد له بين النافذتين • وبعد ان وضع كل شيء فى
مكانه عرض على برزنيف أن يأخذ عشرة روبيلات من
الايجار مقدما ثم أخذ فى يده عصا وخرج لاستكشاف
المنطقة المحيطة بمسكنه الجديد ، عاد بعد حوالى ثلاث
ساعات فطلب اليه برزنيف ان يشاركه طعامه فقبل ولكنه
أخبره انه سيحصل على غذائه مستقبلا من صاجبة
البيت التى اتفق معها على ذلك • وعلق برزنيف هل ذلك
يقوله : ستتناول اذن وجبات رديئة فهى لا تجيد الطهى •
ولكن لماذا لا تريد ان تتناول طعامك معى ؟ فى استطاعتنا
ان نتقاسم التكاليف •

فابتسم انزاروف بهدوء وقال : لا طاقة لي بتحمل
تكاليف أصناف الطعام التى تتناولها ••

كانت ابتسامته من النوع الذى يحول دون الالحاح
عليه ، لذا فان برزنيف لم يزد عما قاله شيئا • وبعد تناول
الطعام اقترح برزنيف ان يذهبا لزيارة بيت ستاكوف
ولكن انزاروف اعتذر بأنه يعتزم أن يمضى فترة المساء
كلها فى كتابة خطابات لمواطنيه ، ومن ثم رجاه أن يؤجل
هذه الزيارة ، وكان برزنيف يعرف من قبل مدى صلابه
رأى انزاروف ولكنه لم يكتشف أن انزاروف لا يمكن أن
يغير رأيه أو أن يؤجل تنفيذ وعد وعده الا بعد أن عاش

وأعتقد أنك أنت المستر انزاروف أليس كذلك ؟

- نعم هذا هو اسمي .

- اعطني يدك اذن ولنتعارف . لست أدري ما اذا كان برزنيف قد حدثك عنى ولكنه قد حدثنى كثيرا عنك . لقد تركت المدينة اذن وانتقلت الى هنا ؟ عظيم . أرجو ألا تؤول نظرتى الطويلة اليك تاويلا خاطئا ، فاننى مثار بحكم مهنتى وبودى أن تسمح لى بعمل تمثال لرأسك .

- قال له انزاروف : رأسى تحت تصرفك .

- فقال شوبين وهو يجلس على مقعد قصير وشبك يديه على ركبتيه : ما الذى سنفعله اليوم يا اندريا بتروفتش ؟ هل أعددت يا صاحب السعادة برنامجا لهذا اليوم ؟ ان الطقس جميل مشبع برائحة الفاكهة ولا بد لنا أن نستمتع بوقتنا وأن نطلع نزيل كونتسوفو الجديد على معالمها العديدة .

- (فقال برزنيف فى نفسه : انه يشاغب)

لماذا لا نتحدث يا صديقى هوراشيو؟ تحدث واسمعنا صوتك .

- فرد عليه برزنيف قائلا : كيف بى ان اعرف ما يريد انزاروف . . . اعتقد ان لديه أعمالا .

- فاستدار شوبين فى مقعده وسأل انزاروف : هل لديك عمل ؟

لاغانى الى الحديث عن الموقف فى بلغاريا . ولأول مرة حس برزنيف بالتغير الكبير الذى طرأ على انزاروف لمجرد كمر بلاده فلم تتغير ملامحه ولم يرتفع صوته فحسب بل ن كيانه كله سرت فيه هزة قوية ، وتحركت شفثاه فى صرار ، ولعت عيناه ببريق لا ينطفىء . ومع أن انزاروف لم يكن يرحب بالحديث عن رحلته الى بلغاريا الا أنه كان يلى استعداد للحديث عن بلاده مع أى امرى ، كائنا من نان ، فتحدث فى تودة عن الأترك وما لجئوا اليه من ضطهاد وما حل بمواطنيه من مصائب وويلات وعن آمالهم مطامحهم . وكانت كل كلمة من كلماته تعبر تعبيرا ، بما ما تحمله من عاطفة طال كبتها .

- وقال برزنيف لنفسه : ربما دفع ذلك القائد لتركى ثمن قتل والدى انزاروف . . .

وقبل أن ينتهى انزاروف من حديثه فتح الباب وظهر موبين على عتبته .

دخل شوبين وقد بدت عليه الثقة وروح الدعابة . فهم برزنيف الذى كان يعرفه حق المعرفة أن لديه ما يريد أن يقوله .

وبدأ شوبين الحديث وقد لاحت على وجهه نظرة تم بين الصراحة والوضوح فقال :

« اسمح لى أن أقدم نفسى دون تكلف . اسمع موبين وأنا صديق لهذا الشاب وأشار الى برزنيف .

- فأجابہ انزاروف : كلا . لا عمل عندى اليسوم
وأستطيع أن أقوم بجولة .

- فقال شوبين : عظيم . اذهب يا صديقى أندريا
بتروتش وضع قبعة على رأسك المتلىء بالحكمة ولننبح
انوفنا ، ان حاسة الشم عندنا قوية وسوف تذهب بنا
بعيدا . اننى أعرف مطعما صغيرا ولكنه بديع نستطيع أن
نتناول فيه وجبة بديعة وسنستمتع فيه بوقتنا تماما .
هيا بنا .

وما أن انقضى نصف الساعة حتى كان الثلاثة
يسرون بمحاذاة نهر موسكفا . وكان انزاروف يرتدى
غطاء رأس غريب الشكل يغطى أذنيه وتثير ضحكات
شوبين . وكان انزاروف يسير بخطى وثيدة وهو يتحدث
وينظر ويتسم بكل هدوء . كان يحاول ، بعد ان استقر
الرأى على اللهو ، ان يستمتع بوقته تماما . وهمس شوبين
فى اذن برزنيف قائلا : هكذا يمضى الشبان المهذبون أيام
الأحد . وكان شوبين يمرح ما وسعه المرح وكان يجرى
ويقف متخذاً أوضاع تماثيل الشخصيات المشهورة كما
كان يتقلب على الأرض . لم يكن هذا منه اعترافا على هدوء
انزاروف ولكن هذا الهدوء جعله هو يتصرف كمرح
السيرك . وسأله برزنيف: لماذا هذا التهريج أيتها الفرنسى؟
فأجاب شوبين : نعم فرنسى نصف فرنسى وأنصحك أن
تظل متارجحا بين الهزل والجد وهى نصيحة كان يوصى
بها دائما خادم بأحد المطاعم .

وابتعد الثلاثة عن النهر وساروا فى منخفض عميق
بين حقلين من حقول القمح الذهبية كان أحدها يلقي عليهم
ظللا زرقاء . وكانت الشمس تلقى أشعتها على أعواد القمح
والهواء يحمل اصداء تغريد الطيور وصفير الحشرات
الصغيرة . كانت الريح الدافئة تحرك الحشائش التى كانت
تنتشر على هيئة بساط أخضر حولهم وأعواد الزهور .
وبعد أن تجولوا كثيرا تسامروا وتوقفوا - بل ان شوبين
حاول أن يداعب أحد الفلاحين ويقفز على كتفيه مما أثار
ضحك الفلاح - وصلوا أخيرا الى المطعم الصغير واستقبلهم
الخادم وقدم لهم طعاما رديئا مع بعض النبيذ البلقانى ،
ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع بوقتهم كما توقع
شوبين الذى كان أكثرهم ضجيجا وأقلهم مرحا . وشرب
نخب فنبيبلين العظيم ونخب الملك كروم ملك بلغاريا الذى
كان يحكم قريبا من عهد آدم .

- ولكن انزاروف صححه قائلا : فى القرن التاسع

- فصاح شوبين : فى القرن التاسع آه .

يا للفرصة .

لاحظ برزنيف أن شوبين رغم كل تهريجه ودعابته
وفكاهاته كان يحاول أن يسير أغوار انزاروف فى حين ظل
انزاروف هادئا كعادته .

وأخيرا عادوا الى البيت وقد عقدوا العزم على انهاء
اليوم بزيارة آل ستاكوف فى المساء . وأسرع شوبين
لاخطارهم بالزيارة .

- فسألته زويا : هل السيد انزاروف صغير السن؟
- فأجابها شوبين على الفور : عمره مائة واربعة
وأربعون عاما .

- وأعلن الخادم وصول الصديقين ، فدخلا . وقام
برزنيف بتقديم انزاروف . وطلبت اليه يلينا أن يجلس
ثم اتخذت هي مجلسا بينما صعدت زويا الى الدور العلوى
لاخطار أنا فاسيليفنا . وبدءوا يتحادثون ويتبادلون
المجاملات كما جرت العادة بين من يتعارفون لأول مرة .

وجلس شوبين في أحد الأركان يرقب ولو أنه لم يكن
هناك ما يستحق ذلك . كان كل ما لاحظته في يلينا أثرا
لضيق مكبوت منه . ثم نظر الى برزنيف وانزاروف وقارن
بين وجهيهما من وجهة نظر المثال وقال في نفسه : ليس
لأى منهما وجه وسيم . ان للبلغارى وجهها تقليديا من
السهل عمل تمثال له لا سيما وأن الاضاءة عليه جيدة
الآن . اما وجه الروسى فهو أنسب للرسم اذ أن له شخصية
وان كانت تعوزه الخطوط . ولكننى أستطيع أن أقول انها
جديران بالحب . انها ستقع بلا ريب فى حب برزنيف ولو
انها لم تجبه بعد . ودخلت أنا فاسيليفنا الى حجرة
الجلوس واتخذ الحديث اتجاها آخر وتشعبت موضوعاته ،
ولكن كانت تتخلله فترات سكون قصيرة .

والتفتت أنا فاسيليفنا الى زويا فى احدى هذه
الفترات ، وفهم شوبين مغزى هذه اللفتة . فقد قامت زويا

صاح شوبين وهو يدخل الى حجرة الجلوس فى بيت
ستاكوف حيث وجد يليفنا وزويا . سيصل خلال لحظات
البطل انزاروف .

- فقالت زويا بالألمانية : حقا ؟ كانت تتحدث اذا
فوجئت بلغتها القومية واعتدت يلينا فى جلستها . ونظر
شوبين اليها نظرة ذات مغزى . وأحست بالمرج ولكنها
لم تقل شيئا .

- وتحدث شوبين مرة أخرى قائلا : هل سمعت ؟
انزاروف قادم .

- فقالت : سمعت . كما سمعت النعت الذى نعته
به . انك تثير دهشتى حقا . ان السيد انزاروف لم يأت
الى هنا من قبل ولكنك مع ذلك لا ترى بأسا فى القيام
بدور المهرج .

- فطأطأ شوبين رأسه وقال : انت على حق يا يلينا
نيكولايفنا . انت دائما على حق . ثم اردف وهو يتلثم :
ولكننى لم أكن أقصد اساءة صدقيني . لقد أمضينا اليوم
كله نتجول معا وأؤكد لك انه شخص ممتاز .

- فقالت يلينا وهى تقوم من مكانها : انا لم اسألك
عن ذلك .

- فرد انزاروف قائلا : أعتقد أنهم قوم طبيون
لا سيما الابنة فهي فتاة لطيفة • عاطفية ولكن عاطفتها
صادقة •
- فقال برزنيف : لابد لنا ان نزورهم من وقت
لآخر •

- وأجابه انزاروف : نعم • ولم يتكلم ثانية حتى
بلغا البيت هناك اغلق على نفسه الحجره ولكن شمعة ظلت
موقدة فى الحجره الى ما بعد منتصف الليل •

ولم يكن برزنيف قد قرأ صفحة واحدة من رومير
حين ألقيت على نافذته حفنة من الرمل • فانزعج وفتح
النافذة واذا به يرى شوبين ، وقد امتقع لونه •

- قال برزنيف ، يا لك من مشاغب • أنت
كالفراشة تماما •

- وقاطعه شوبين قائلا : صه •• لقد أتيت لك
خفية ، أريد أن أسر اليك بشيء •

- حسنا ، اصعد •

- فأجابه شوبين وقد استند الى قاعدة النافذة ،
لا حاجة لذلك - فالحديث هكذا أكث اثاره • دعنى أولا
أهنتك فان أسهمك فى ارتفاع • أما رجلك ، رجل
الأعاجيب ، فقد فشل وعندى الادلة ولكم ، أبين لك مدى
حيادى فاسمح لى أن أدلى اليك برأى المفصل فى السيد
انزاروف • انه شخص غير موهوب لا بميل للشعر ولا

الى البيانو وأخذت تعزف وتغنى ما تعرفه من أغنيات
قصيرة • وظهر يوفار ايفانوفتش أمام عتبة الباب وهو
يلوى أصابعه ولكنه تراجع • وقدم الشاى وبعدها خرجت
الجماعة كلها الى الحديقة •
وهبط الليل وغادر الزوار المكان •

لم يكن التأثير الذى تركه انزاروف على يلينا من القوة
بالقدر الذى كانت تتوقعه أو بمعنى أصح كان مختلفا
عما توقعتة • وقد أعجبتها أخلاقه البسيطة القويمة ، كما
أنها أعجبت بوجهه • وأياما كان الأمر فقد كان تكوين
انزاروف كله ، وهدهوؤه وحزمه وبساطته ، يختلف عن
الصورة التى رسمتها له استنادا الى وصف برزنيف •
لقد كانت تنتظر دون سبب مفهوم أن ترى شابا جذابا •
وقالت لنفسها : انه لم يتحدث كثيرا اليوم ولكن هذا
ذنبى ، فانى لم أوجه اليه سؤالا • سأنتظر للمرة القادمة
ان عينيه معبرتان • عينا شخص مستقيم • وأحسنت
وكانها كانت تحببه فصافحته باليد لا بمجرد انحناء ،
وداخلها شيء من الارتباك فقد كانت لديها فكرة مختلفة
عن الرجال من أمثال انزاروف - عن « الأبطال » وقد
ذكرتها هذه الكلمة بشوبين فاحمر وجهها غضبا وهى
ترقد فى فراشها •

وفى طريق العودة سأل برزنيف انزاروف •
ما رأيك فى معارفك الجدد ؟

كبراً أنه لا يجب أن يعرف لماذا يستعمل قرنيه ، بل عليه أن يستعملهما وحسب .

وعلى كل . فربما كان الذين يحتاج اليهم وقتنا هذا ابطالا من نوع آخر .

– وسأله برزنيف قائلاً : ولماذا تشغل نفسك يا يا نزاروف ؟

– أنا لا أتصور أن تكون قد آتيت الى هنا عدوا لمجرد أن تصفه لي .

– فرد قائلاً : آتيت لاننى شعرت بكآبة فى البيت .

– حقا ؟ أرجو ألا تبدأ فى البكاء مرة أخرى .

– لك أن تسخر منى اذا أردت . لقد آتيت الى هنا لاننى بانس ، ولاننى أعانى شعورا بالغيرة والغضب .

– تشعر بالغيرة ممن ؟

– منك ومنه ومن كل رجل آخر . اننى أتعذب عندما أفكر فى اننى لو كنت قد فهمتها من قبل ولو كنت عرفت كيف أتصرف معها . ولكن ما الفائدة الآن ؟ سينتهى بى الأمر الى أن أضحك وأمرح وأقوم بدور المهرج كما تقول هى . ثم أخرج وأنا أود لو أننى استطعت أن أشنق نفسى .

– شنق نفسك هو الشيء الوحيد الذى لا تستطيع أن تقدم عليه .

– لن أقدم عليه فى ليلة ، كهذه بالطبع . ولكن

قدرة كبيرة على العمل وذاكرته قوية ، وله عقل متعرج وان لم يكن جبارا . وهو جاف وعنيف بل وطلق اللسان عندما تذكر بلغاريا – تلك البلاد الموحشة . ما رأيك ؟ هل تقول انى لست منصفاً ؟ وئمة ملاحظة أخيرة . أنت لا يمكن أن تأتلف معه ولم يحدث أن اتتلف مع أحد كائنا من كان . انه يبغضنى لاننى فنان – الأمر الذى أفخر به . انه جاف كعود القش بيد انه يستطيع أن يسحقنا جميعا كما يسحق الدقيق . انه شديد التعلق بوطنه وهو فى هذا يختلف عن بعض الأشخاص الذين يحاولون استرضاء الشعب ولكن مهمته أبسط وأكثر يسرا .

ان كل ما على القوم أن يفعلوه هو أن يطردهوا الاثراك – وليس هذا بالعمل الجليل . ولكن كل هذه الصفات لا تستهوى النساء لحسن الحظ . انه يفقد المذاذية والسحر – على عكسنا أنت وأنا .

– فتمتم برزنيف قائلاً : ومالى أنا وكل هذا ؟ كذلك فانك مخطيء فى بعض ما ذهبت اليه لأنه لا يبغضك على الاطلاق كما أنه على علاقة طيبة بأبناء وطنه وأنا أعلم هذا .

– هذا موضوع آخر . انه بطل بالنسبة لهم أما أنا فلا بد أن أعترف أن فكرتي عن البطل تختلف عن هذا . فالبطل عندى يجب ألا يعرف كيف يتكلم وإنما يكفي أن يخور كالثور . لا بد أن يضرب الجدار بقرنيه ليهدمه ،

انتظر حتى يأتي الخريف . ان من الناس من يموت في ليلة كهذه أيضا ولكنهم يموتون من السعادة . . اه . . يا لها من كلمة . ان كل ظل يمتد عبر الطريق من احدى الاشجار يبدو وكأنه يهمس قائلا : « أنا أعرف مكان السعادة . هل تريدني أن أخبرك ؟ » .

كنت أريد أن أطلب اليك أن تسير معي بعض الوقت ولكنني أراك مشغولا بالقراءة . ستاوى الى فراشك ولعلك ترى أحلاما تحبها . أما قلبي فإنه ينزف دما . عندما ترون شخصا يضحك فانكم تعتقدون انه قرير العين بالحياة . ان في وسعكم أن تثبتوا انه يناقض نفسه وأنه لا يعاني شيئا . على أية حال ، سيروا على طريقتمكم .

وابتعد شوبين عن النافذة . وهم برزنيف بأن يصيح وراءه هاتفاً : « انوشكا » ولكنه أمسك عن ذلك فقد كان وجه شوبين ينطق بالآلم . وقد خيل لبرزنيف بعد برهة أنه سمع شخصا يبكي فقام من مكانه وفتح النافذة ولكن الليل كان شاحبا في الخارج عدا أن أحد السابلة راح يترنم باحدى الاغنيات على البعد .

(١٣)

لم يتردد انزاروف على دار ستاكوف خلال الخمسة عشر يوما التي أعقبت مجيئه الى كوونتسوفو أكثر من أربع

أو خمس مرات . أما برزنيف فكان يزورهم يوما بعد يوم . وكانت يلينا تشعر بالسرور لمجيئه ، وكانت محادثاتها تتسم دائما بالحيوية والاهتمام ورغم ذلك فإنه كثيرا ما كان يعود لبيته حزينا كاسف ابال . أما شوبين فلم يكن يظهر الا نادرا . . كان يكرس كل وقته لفنه فاما أن يجلس نفسه في حجرته التي كان اذا بارحها ظهر الصلصال عالقا بملابسه أو يمضى وقته في مرسمه في موسكو حيث كان يزوره بعض موديلات الرسم أو النحت وبعض المثالين الايطاليين والأصدقاء والأساتذة . ولم تكن الفرصة قد واثت يلينا لتتحدث الى انزاروف على النحو الذي تريده . كان يرد على ذهنها في غيابها كثير من الأسئلة التي تريد أن تسألها له . ولكنه عندما كان يأتي كانت تستشعر بالحجل مما أعدته . كان هدوء انزاروف يجعلها تشعر بالحرج حتى أنها اعتقدت أن من غير اللائق أن تواسيه بالكلام ، لذا فقد قررت أن تتحين الوقت المناسب ورغم كل ذلك فقد كانت تشعر بالميل اليه أكثر وأكثر مهما كان من بساطة حديثهما ولكن الفرصة لم تتح لها للانفراد به .

وكانت كثيرا ماتتحدث عنه الى برزنيف الذي أدرك أنه قد أثار اهتمامها وأحس بالسرور لنجاح صديقه محيطا لها أكده شوبين . وقد أدلى اليها في حماس واسهب بكل مايعرفه عن انزاروف . ولم يحدث الا نادرا - وقد رأى وجنتيها وقد علتها حمرة خفيفة وعينيها وقد التمعت

وازدادت اتساعا - ان اعتصر قلبه الحزن الكئيب الذي كان قد أحس به مرة من قبل .

زار برزنييف آل ستاكوف ، ذات يوم ، فى العاشرة صباحا وكان توقيتا غير عادى للزيارة وخرجت يلينا لمقابلته فى حجرة الجلوس فقال لها وهو يفتعل ابتسامة : تخيلي أن صديقنا انزاروف قد اختفى .

فاضطربت يلينا وقالت : اختفى ؟

- نعم . خرج أول أمس ولم يعد حتى الآن .
- هل أخبرك عن وجهته ؟
- كلا .

وارتبت يلينا على أحد المقاعد . ثم قالت وهى تحاول أن تبدي عدم الاهتمام وتتعجب من حكمة قيامها بهذه المحاولة : لعله ذهب الى موسكو .

فأجابها برزنييف : لا أظن فانه لم يخرج بمفرده . . . من كان معه ؟

- زاره أول أمس قبيل الغداء .

- رجلان أعتقد أنهما من مواطنيه .

- من البلغاريين ؟ وما الذى يجعلك تعتقد ذلك ؟

- سمعتهم يتحدثون لغة سلافية ولو أننى لا أعرفها . وهكذا ترين أن ما يكتنف انزاروف من غموض ليس كافيا . ولكن هل هناك ما هو أكثر غموضا من هذه الزيارة ؟

لقد دخلا الغرفة وأخذا يصيحان ويتجادلان ، وكان هو الآخر يصيح :

- أحقا كان يصيح ؟ . .

- نعم . لقد صاح فيهما . ويبدو أن مشادة قامت بينهما . . . آه لو رأيت هذين الزائرين ! كان لكل منهما وجه أسمر وأنف مقوس كلاهما جاوز الأربعين كانت ملابسهما رثة وقد غطاها التراب والعرق ، وكان مظهرهما غريباً لا يعرف منه ما إذا كانا من أصحاب الحرف أم من السادة ولا يعلم كنههما الا الله .

- وهل خرج معهما ؟

- نعم . قدم لهما بعض الطعام ثم خرجوا معا . وقد ذكرت لى صاحبة البيت أن هذين الرجلين قد أتيا على طبقين كبيرين من العصيدة وقالت انهما كانا يلتهمان الطعام بشراهة ذئاب جائعة .

- فابتسمت يلينا ابتسامة خفيفة ثم قالت :

يخيل لى أن كل هذا سوف يتمخض فى النهاية عن شيء تافه .

- أرجو ذلك . ولكنك ما كان يجب أن تستعملى هذه الكلمة . فليس فى انزاروف شيء تافه وان كان شوبين يصر .

- فقاطعته يلينا قائلة : شوبين - طبعاً . ولكنك

تقر ولا شك أن الرجلين وهما يلتهمان الطعام .

اذ كان قد سمع من احدى الغسالات انها تعطف على جميع
الحيوانات . ولم يخطئ ظنه فقد أعطته يلينا مبلغا لا بأس
به نظير الجروين .

ومدت بصرها داخل بيت الكلاب واطمأنت الى أن
الجروين كانا بخير وأن القش الذى وضع فى أرضية البيت
قد استبدل به قش نظيف . ثم استدارت واذا بها ترى
انزاروف قادما بمفرده فى الطريق . وكادت تصرخ من
المفاجأة .

— قال لها وهو يقترب منها وقد رفح قبعته محييا :
— طاب مساؤك .

ولاحظت أن وجهه قد لفحته الشمس فعلا . ومضى
يقول : لقد أردت أن أحضر مع اندريا بتروفتش ولكن لم
يكن قد استعد بعد . فجنث بمفردى . ليس فى بيتكم
أحد فالجميع اما نائم أو يتمشى . وهأنذا قد حضرت .

وردت يلينا قائلة : انك تتحدث وكأنك تعتذر . .
ليس هناك ما يدعو للاعتذار . نحن جميعا نسر لرؤيتك .
هلم بنا نجلس على هذا المقعد فى الظل .

وجلست وجلس انزاروف الى جوارها . .

قالت : علمت انك تغيبت عن البيت خلال الايام
القليلة الماضية .

— فقال : هذا صحيح . . هل أخبرك اندريا
بتروفتش بذلك ؟

— فعلق برزنيف على كلامها بابتسامة قائلا :

كان ثميستوكليس هو الآخر يأكل بشراهة عشية
معركة سالاميس .

— فقالت : هذا صحيح ولكن كانت ثمة معركة
حينذاك . . على أى حال أرجو أن تبلغنى بعودته .

ثم حاولت تغيير الموضوع ولو أن الحديث لم يسلس
قياده لنا .

ودخلت زويا الحجره على أطراف أصابعها وكان هذا
دليلا على أن أنا فاسيليفنا كانت لا تزال نائمة .

وقام برزنيف وغادر المكان .

وفى المساء وصلتها رسالة من برزنيف جاء فيها
ما يلى : عاد وقد لفحته الشمس وغطى التراب كل جسده

حتى حاجبيه ولكنى لا أعرف أين كان ولا لماذا خرج .
هل فى مقدورك أن تعرفى ذلك ؟

— فهمست يلينا لنفسها قائلة : هل فى مقدورك أن
تعرفى ذلك ! هل بيدلنى الحديث أبدا ؟

(١٤)

بعد ظهر اليوم التالى كانت يلينا تقف فى الحديقة
امام بيت صغير للكلاب كانت تحتفظ فيه بجروين . كان
البستانى قد وجدتهما بالقرب من السور فأحضرهما لها ،

ونظر اليها وابتسم وأخذ يعبث بقبعته • وكان وهو
يبتسم يرمش سريعا بعينيه وقد مد شفثيه فبدأ شخصا
طيبا •

ثم أضاف وهو لا يزال يبتسم : لا بد أن اندريا
بتروفتش قد أخبرك اننى خرجت مع شخصين رثى الهيئة •
وشعرت يلينا بشىء من الحرج ، ولكنها تنبهت بعد
لحظة الى أنه من الواجب قول الصدق لانزاروف • فأجابت :
نعم •

– فسألها فجأة : وماذا كان رأيك فى ؟

ف نظرت يلينا اليه وأجابته قائلة :

– أنا اعتقد •• اعتقد أنك تعرف دائما ما تفعل
وأنك لا تستطيع أن ترتكب خطأ ••

– شكرا لك على هذه الثقة ••

ثم قال وهو يدنو منها وكأنه يسر اليها أمرا :

– نحن نكون هنا أسرة صغيرة وبعضنا لم يتلق الا
قدرا ضئيلا من التعليم ، ولكننا جميعا نكرس حياتنا
للقضية المشتركة • ومع ذلك ، فاننا لسوء الحظ لانستطيع
أن نعيش دون أن نختلف ونظرا لأنهم جميعا يعرفوننى
ويثقون فى ، فقد استدعيت لتسوية أحد الخلافات وكان
لا بد لى أن أذهب ••

– وهل كان المكان بعيدا عن هنا ؟

– لقد ذهبت الى تروبتسكى بوسار وهى تبعد حوالى

استين كيلو مترا من هنا ويعيش فيها بعض مواطنى فى
الدير • وعلى كل فلم تكن العملية مضيعة للوقت فقد
تمكنت من تسوية الموضوع ••

– وهل كانت المهمة شاقة ؟

– نعم فقد كان أحدهما عتيدا وكان يرفض التنازل

عن بعض النقود •

– ماذا هل تعنى أنهما تشاجرا بسبب النقود ؟

– نعم ، ولم يكن المبلغ كبيرا • هل كنت تعتقد ان

أن الأمر يتعلق بشىء آخر ؟

– هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذا الموضوع

التافه ؟ وهل هو يستحق أن تنفق فيه ثلاثة أيام ؟

– الأمر لا يصبح تافها يا يلينا نيكولايفنا عندما

يتعلق بأبناء وطنى • ولو أننى رفضت لكنت مخطئا • انى

أراك لا تضمنين بالمساعدة حتى على الكلاب وأنا أقدر فيك

هذا • ولا ضير على من اضاعه بعض الوقت ، فانى أستطيع

أن أعوضه • ان وقتنا ليس ملكا لنا •

– ملك من اذن ؟

– ملك لمن هم فى حاجة اليه • انى أقول لك هذا

الانى أقدر رأيك • اننى أستطيع أن أتصور مدى الدهشة

التي سببها لك اندريا بتروفتش •

ف قالت له يلينا بصوت منخفض :

– هل تقدر رأيى ؟ ولكن لماذا ؟

فابتسم أنزاروف مرة أخرى وقال: لأنك فتاة لطيفة
ولست ارسستقراطية هذا هو السبب واعقبت ذلك فترة
سكون قصيرة *

- ثم قالت يلينا : هل تعلم يادمتري نيكيا نوروفتش
ان هذه أول مرة تحدثني فيها بهذه الصراحة ؟

- حقا ؟ لقد كنت أظن أنى كنت أكاشفك دائما بما
يجول بخاطرى *

- كلا . هذه أول مرة وأنا بها فى غاية السرور .
أنا بدورى أريد أن أكون صريحة معك . فهل تسمح لى
بذلك ؟

فضحك انزاروف وقال : لك هذا .

- اذن فلتحذر فانى كثيرة الاسئلة .

- لا بأس . تحدثى *

- لقد حدثنى اندريا بتروفتش كثيرا عن حياتك
وشبابك حديثا سريعا . انى أعرف حدثا معينا . وأعلم
أنك عدت بعده الى وطنك .

- استحلفك بالله ألا ترد على سؤالى اذا رأيت أنه
مخرج . ولكن هناك ما يحز فى نفسى . قل لى : هل التقيت
بذلك الرجل ؟ قالت ذلك مبهورة الأنفاس .

كانت تشعر بالحجل والغزع من جرأتها . وكان
انزاروف يحملق فيها وقد ضاقت عيناه وهو يعبث بذقنه .
وأجابها أخيرا وكان صوته أكثر خفوتا . الأمر الذى

أخاف يلينا - قال : أعرف الرجل الذى تعنين . لم أقابله
واحمد الله على ذلك . . . والواقع أنى لم أكن أبحث عنه .
ولا يعنى هذا أننى كنت أعتقد أنه ليس من حقى أن أقتله
- كلا . . . ما كنت لأحجم عن قتله ، وأنا مستريح الضمير
- ولكن يجب ألا يكون هناك مجال للانتقام الشخصى عندما
تكون المسألة متعلقة بانتقام شعب .

- كلا ، ليس هذا هو التعبير الدقيق ، ينبغى أن
أقول : عندما تكون المسألة متعلقة بتحرير شعب ، فإن
أحدهما يحول دون الآخر . ولكن سيأتى اليوم لهذا
أيضا . لهذا أيضا . . .

كررها ثم هز رأسه ، فنظرت اليه يلينا نظرة جانبية
. . . ثم سألته فى تحفظ :

- هل تحب وطنك كثيرا ؟

فأجابها قائلا : سترين الدليل على ذلك . . . لا يمكن
أن يقال ان الانسان يحب وطنه الا اذا مات فى سبيله .

فقالت يلينا : معنى ذلك انك اذا منعت من العودة
الى بلغاريا ستجد الحياة صعبة فى روسيا فأحنى انزاروف
رأسه ثم قال : لا أعتقد أننى أستطيع أن أتحمل هذا . . .
فسألته يلينا : هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية ؟

- كلا . ومن العار ألا يتعلم كل روسى اللغة
البلغارية . يجب على كل روسى أن يعرف اللهجات
السلافية . هل تريد ان أحضر لك بعض الكتب

الشكوك؟ ما هو الشيء الوحيد الذى يؤمن به الانسان بعد
ايمانه بربه؟ عندما تشعرين أن بلادك فى حاجة اليك
لا تنسى أن أبسط فلاح وأفقر فقير فى بلغاريا وأنا نريد
جميعا نفس الشيء • ليس لنا سوى •• هدف واحد •
ولك أن تتصورى مدى الثقة والقوة التى نستمدتها من
ذلك •

وصمت انزاروف فترة قصيرة ثم عاد للحديث عن
بلغاريا • وكانت يلينا تنصت له بانتباه وحزن وقد
تملكتها الدهشة • وبعد أن انتهى من حديثه قالت له مرة
أخرى :

– ليس هناك اذن ما يدفعك الى البقاء فى روسيا •

ظلت يلينا بعد أن تركها انزاروف تتبعه بعينها
طويلا • لقد أصبح شخصا مختلفا بالنسبة لها فى ذلك
اليوم • ان الرجل الذى كانت تتحدث اليه منذ لحظة لم يكن
هو نفس الرجل الذى قابلته منذ ساعتين •

وراح يتردد عليها كثيرا منذ ذلك اليوم بينما لم يكن
برزنيف يزورها الا لماما • لقد تسلسل شيء غريب بين
الصديقين شيء كانا يخشيان التحدث عنه • كل منهما
يحسه بوضوح وجلاء دون أن يستطيع تعريفه •

ومر شهر على هذه الحال ••

البلغارية؟ سترين بنفسك كم هى سهلة هذه اللغة •
كذلك فان أغانيها جميلة وهى لا تقل جمالا عن أغنى
الصرى • اسمح لى أن أترجم لك احدى هذه الأغنيات •
انها عن – هل تعرفين تاريخنا؟

– كلا • لا أعرف شيئا عنه •

– سأحضر لك كتابا عن تاريخنا يعطيك على الأقل
فكرة عن وقائعه الهامة • والآن اسمع لى لأغنية • ووا أنى
أفضل أن أقدم لك ترجمة مكتوبة •

– اننى واثق من أنك سوف تحبيننا لأنك تحبين كل
مظلوم • بلادى مليئة بالحيرات ورغم ذلك فانها تداس
بالأقدام ويسام شعبها العذاب • ثم قال وهو يحرك يديه
حركة لا ارادية وقد علت وجهه سحابة من الحزن : نحن
محرومون من كل شيء وقد نهب منا كل شيء – كنا سنا
وحقوقنا وأرضنا • الاتراك الملاعين يعاملوننا كالسوائم •
انهم يذبوننا •

قالت يلينا متعجبة : ماذا بل يا دمتري نيكانوروفتش

فتوقف عن الكلام وقال : أرجو المغفرة فاننى
لا أستطيع الحديث عنها بهدوء • ولكنك كنت تسأليننى
منذ لحظة • ما اذا كنت أحب بلادى • اذا لم يحب الانسان
بلادته فهل هناك شيء آخر يستحق أن يحب • ما هو الشيء
الوحيد الذى لا يقبل التغيير؟ ما هو الشيء الذى يرتفع فوق كل

باللغة الروسية ومرة أخرى بالفرنسية بخط زويا . وكانت
أنا فاسيليفنا تختار بنفسها ملابس السفر للفتيات
المشترتات في الرحلة . وعندما انتهى الاستعداد للرحيل
إذا ستانوف يصل من موسكو وهو منحرف المزاج - كان
لا يزال على خلاف مع أوجاستينا كريستيانوفا - ولما علم
بالموضوع أعلن بلهجة قاطعة انه لن يشارك في الرحلة .
كما أعلن انه من العبث الذهاب من كونتسوفو الى موسكو
ومن موسكو الى تسارتسينو ثم من تسارتسينو الى موسكو
ومن موسكو الى كونتسوفو في طريق العودة . ثم أردف:
وأخيرا أريد أن أثبت لى أى امرىء أن هناك مكانا على سطح
الارض فيه متعة أكثر من أى مكان آخر . وعندئذ أفكر فى
الذهاب .

لم يكن من اليسير اثبات ذلك . . . وكانت أنا
فاسيليفنا على وشك التخلي عن القيام بالرحلة لافتقارها الى
رفيق مناسب ولكنها فكرت فى يوفار ايفانوفتش فأرسلت
تستدعيه وراحت تحدث نفسها: ان الغريق يتمسك بقشة .
وأوقظ يوفار من النوم . ونزل لمقابلتها واستمع لاقتراحها
فى صمت وأخذ يثنى أصابعه وأدهش الجميع بموافقتها :
فقبلته أنا فاسيليفنا على وجنته وشكرته . فابتسم
ستاكوف بازدياء وقال بالفرنسية : يالك من تافه ! كان
مولعا باستعمال بعض الجمل الفرنسية الغريبة اذا سمحت
له الظروف بذلك .

وفى السابعة من صباح اليوم التالى جهزت العربتان

كانت أنا فاسيليفنا كما يعرف القارىء تحب البقاء
فى البيت الا انه كانت تملكها من آن لآخر رغبة جامحة
فى القيام بشىء غير عادى لتنظيم حفل تخرج بهجته عن
المالوف ، وكانت كلما زادت صعوبة تنظيم الحفل وكلما
زادت الاستعدادات والترتيبات اللازمة له وكلما زاد
انهماكها فى ذلك تزداد سرورا . واذا تملكها هذه الرغبة
فى فصل الشتاء ، فقد كانت تحجز مقصورتين أو ثلاثا
وتذهب الى المسرح أو الى إحدى الحفلات التنكرية مع كل
صديقاتها ومعارفها . أما فى الصيف فقد كانت تقوم
بتنظيم رحلة الى منطقة ريفية بعيدة ثم تشكو ، فى اليوم
التالى ، من الصداع والألم وتبقى فى البيت . وما يمضى
شهران الا وتعاودها الرغبة فى القيام بشىء « غير عادى »
وهذا ما حدث هذه المرة أيضا . فقد تحدث بعضهم فى
حضورها عن جمال تسارتسينو ، فأعلنت فى الحال أنها
ستذهب الى تسارتسينو بعد يومين . وبدأ البيت يموج
بنشاط غير عادى . أرسل رسول على وجه السرعة الى
موسكو لاستدعاء ستاكوف وصحبه خادم لشراء النميذ
والفطائر وغير ذلك من المأكولات . وطلب الى شوبين أن
يستاجر عربة خاصة لان العربة العامة لا تكفى ، وأن يجهز
عددا أكبر من الخيل . وكان على الخادم أن يذهب مرتين
الى كل من برزنيف وانزاروف يحمل دعوات مكتوبة مرة

- ثم أضاف وهو يشير الى يلينا بحركة من حاجبه :
انها الآن فى بلغاريا ..

كان يوما جميلا وكان كل شيء متفتحا مفردا • كانت
المياه تلمع فى البحيرات على بعد • وكان كل شيء يثير
النشوة • وأخذت انا فاسيليفنا تكرر من وقت لآخر قولها:
آه •• ياله من منظر جميل ! •• آه •• ما اجمله من
منظر ! وكان يوفار ايفانوفتش يتبين صيحاتها الجذلة
ويؤمن عليها بهزة من رأسه • وكانت يلينا تتبادل مع
انزاروف بعض التعليقات من آن لآخر • أما زويا فكانت
تمسك حافة قبعتها العريضة بين أصبعها وهى تسير وقد
مال جسدها الى الامام فيما يشبه الخجل • كانت تلبس
رداء أرجوانيا وحذاء رماديا بدون كعب وجعلت تتلفت على
جانبيها وخلفها • وفجأة قال شوبين بصوت منخفض :
أوه ! أظن ان زويا تنظر خلفها • لعل من الافضل أن
أذهب اليها • ان يلينا نيكولايفنا تحتقرنى الآن وتحترمك
يا اندريا بتروفتش ولو ان النتيجة واحدة فى الحاليتين •
اننى ذاهب فقد تلكات أكثر من اللازم • أما أنت أيها
الرجل المعجوز فانى أنصحك أن تعنى بدراسة النباتات
التي حولك فهذا أحسن شيء تفعله ثم ان هذا مفيد لك من
الناحية العلمية •• الى اللقاء •

ثم جرى الى زويا وقدم لها ذراعه وهو يقول : ضعى
يدك هنا ياسيديتى • ثم أسرع فى السير •
أما يلينا فقد توقفت ونادت برزنيف وأمسكت

الكبيرة والصغيرة وخرجتا من الغناء • واستقلت السيدات
والخادمة وبرزنيف العرببة الكبيرة بينما ركب انزاروف الى
جوار السائق • أما العرببة الصغيرة فقد استغلها يوفار
ايفانوفتش وشوبين • وأشار يوفار ايفانوفتش الى شوبين
لكى يجلس الى جواره وكان يعلم ان شوبين سيضايقه طوال
الطريق الى تسارتسينو ولكن رابطة غريبه كانت تربط هذا
الرجل بانفنان الى جانب الصراحة الزائدة عن الحد • ومع
هذا ، فقد ترك شوبين صديقه وشأنه ، ولاذ بالصمت •
كان شارد الذهن رقيقا •

كانت الشمس فى كبد السماء الزرقاء عندما وقفت
العربتان امام قلعة تسارتسينو التى بدت كتيبة منقرة
وقت الظهيرة • ونزلت الجماعه على النيل وساروا جميعا
الى الحديقه • كانت يلينا وزويا وانزاروف يسرون فى
المقدمة تتبعهم انا فاسيليفنا وقد اتكات على ذراع يوفار
ايفانوفتش واكتسى وجهها بسعادة لاحد لها • أما يوفار
ايفانوفتش فكان يلهث وهو يسير الهونيا وقد ضغطت
القبة القش على جبهته وأحس بحرارة قدميه وهو يرتدى
الحذاء الطويل الرقبه ، ولكنه كان هو الآخر يستمتع
بالنزهة •

وكان شوبين وبرزنيف يسيران فى المؤخرة ••

- وقال شوبين لبرزنيف هامسا: نحن من الاحتياطى
ياصديقى كالمحاربين القداماء •

شجرة المنظر الجميل فوقوا جميعا لكي يستمتعوا بجمال
البحيرات الصغيرة في تسارتسينو وهي تمتد عدة
كيلومترات ، ونقع خلفها غابة كثيفة .

ونات الحشائش الصغيرة التي تغطي المنحدرات
حتى البحيرة الرئيسية تضيء على المياه لونا اخضر جميلا .
ولم تكن المياه تتحرك أو تتحرك حتى بالقرب من الشاطئ .
وبدت لبرنة كبيرة ملئت بزجاج سائل تجمد فاصبح ثلثة
كبيرة شفافة تعدس فتحتها زرقه السماء وهيكلا الاشجار
الهائلة . ووقفوا بعض الوقت يستمتعون بجمال المنظر في
صمت . حتى شوبين كان صامتا وحتى زويا كانت
مستغرقة في التأمل وأخيرا قرروا جميعا أن يركبوا قاربا .
وجرى شوبين وانزاروف وبرزنيف على المنحدرات التي
تغطيها الحشائش وراء بعضهم البعض . ووجدوا قاربا
كبيرا والى جانبه رجلان للتجديف، فنادوا السيدات فذهبن
اليهم وفي أثرهن يوفار ايفانوفتش الذي كان يتحسس في
حذر موضع قدميه . وقد أثار ضحك الجميع وهو يخطو
الى القارب ويتخذ فيه مكانه .

— قال له أحد الرجلين وكان قصير الانف ويرتدي
صدرياً : احذر ياسيدي حتى لا تفرق القارب .
— فأجابه يوفار ايفانوفتش قائلا : اخرس أيها المجرم .
وأخذ القارب يتحرك . وأمسك الشبان الثلاثة
بالمجاديف ولكن انزاروف كان الوحيد بينهم الذي يستطيع

بذراعه وهي لا تزال مستمرة في الحديث مع انزاروف .
وسألته عن الاسماء البلغارية للزنبق والوادي والبلوط
وشجرة الليمون . (فقال برزنيف التمس في نفسه :
بلغاريا !) .

وبتة ، سمعوا صيحة . ونظر الجميع امامهم فراوا
غلبة سيجار شوبين وقد قذفتها زويا . تطير في الهواء
وتسقط وسط شجرة صغيرة فصاح بها : سأسير معك
حتى رغم هذا .

ثم سار الى الشجرة واستعاد غلبة السيجار وعاد الى
زويا . ولكنه ما أن اقترب منها حتى طارت غلبه السيجار
مرة أخرى عبر الطريق . وتكررت هذه العملية أربع أو
خمس مرات وهو يضحك ويتوعد بينما كانت هي تبتسم
ابتسامة مآكرة وتقهقه أحيانا . وأخيرا أمسك بأصابعها
وضغطها بشدة حتى صرخت ثم أخذت تنفخ على أصابعها
فترة وهي تتظاهر بالغضب بينما كان هو يهمس ببعض
الكلمات في أذنها . فعلمت انا فاسيلقنا على ذلك بقولها
بمرح ليوفار ايفانوفتش : طيش شباب .

فأخذ يثنى أصابعه . . .

— وقال برزنيف محدثا يلينا : ما رأيك في زويا
نيكيتشنا ؟

— فقالت له : وما رأيك في شوبين ؟

كانت الجماعة قد وصلت الى شجرة تعرف باسم

التجديف • واقترح شوبين عليهم أن يغنوا معا أغنية روسية • وبدأ هو بغنائه (عبر نهر الفولجا) وقد انضم له برزنيف وزويا ، حتى انا فاسيليفنا انضمت اليهم (لم يستطع انزاروف أن يغنى) ولكن النتيجة لم تكن مشجعة فقد تعثر المغنون في الفقرة الثالثة وظل برزنيف وحده يحاول الاستمرار في الغناء بصوت خفيض ولكنه ما لبث أن توقف هو الآخر • وأخذ الريجان المسكبان بالمجاديف يتغامزان ويتسلمان • فقال شوبين وهو ينتجه اليهما : يبدو ان السيدات والسادة لا يعرفون الكثير عن الغناء • أليس كذلك ؟ فهز الرجل ذو الصديري رأسه • فقال له شوبين : انتظر أنت ياذا الانف القصير وسوف ترى • أرجوك يا زويا نيكتيشنا أن تغنى أغنية البحيرة لغيدرمير •

وأوقفوا التجديف • وارتفعت المجاديف المبللة كالاجنحة الحائمة وقطرات الماء تتساقط منها في البحيرة • وأخذ القارب ينساب في الماء مسافة أخرى ثم وقف وهو يهتز قليلا كالأوزة • وحاولت زويا أن تتمتع • ولكن انا فاسيليفنا شجعتها ، فخلعت زويا قبعتها وأخذت تغنى • • لم يكن صوتها قويا ولكنه كان واضحا • وأخذ هذا الصوت ينساب فوق صفحة البحيرة اللامعة فيسمع صدى كلماتها في الغابة البعيدة • كان يبدو كأن شخصا آخر يغنى بصوت واضح غامض ولكنه ليس كاصوات البشر ولا ينتمى الى عالمنا هذا • وما أن انتهت زويا من الغناء حتى

ارتفعت اصوات تهتف لها وتصفق • وقد انبعثت هذه الاصوات من خلف شجرة كبيرة على الشاطئ • واندفع نحوهم عدد من الشبان الالمان حمر الوجوه كانوا قد أتوا الى تسارستينو لاحتساء الخمر • وكان بعضهم قد خلع المعاطف وأربطة العنق والصدريات وصاحوا : أعد • أعد وهم في حالة من الهياج الشديد دفعت انا فاسيليفنا الى الاصرار على التحرك بسرعة الى طرف البحيرة البعيدة • ولكن قبل أن يرسو القارب على الشاطئ خرج عليهم يوفار ايفانوفتش بمفاجأة جديدة فقد لاحظ ان الصوت يرجع في بعض أجزاء الغابة بصدى واضح فبدأ يصيح ، فجأة ، مقلدا بعض الطيور • وانزعج الجميع في أول الامر ولكنهم لم يلبثوا ان اعجبوا به اعجابا حقيقيا ، فقد كان يوفار بارع التقليد وشجعه نجاحه على أن يموء كالقط ولكنه لم يكن يجيد ذلك فعاد للصياح مرة أخرى • ثم لاذ بالصمت بعد أن استعرض وجوه الجماعة كلها • فقام اليه شوبين وأخذه بين ذراعيه وقبله ، ولكنه دفعه عنه وكان القارب قد بلغ الشاطئ ونزلت منه الجماعة وأحضر السائق والخادم والخدامة سلال الطعام من العربة وأخذوا يقدمون الطعام على الحشائش في ظل بعض أشجار الليمون وقد التفوا حول مفرش فرشوه على الارض وبدءوا في تناول الفطائر وغيرها من أنواع الطعام • كان الجميع يتناولون طعامهم في تلهذ وشهية وكانت انا فاسيليفنا تزود ضيوفها بكميات وفيرة من الاطعمة بين آونة وأخرى وهي

تؤكد لهم أن تناول الطعام في الهواء الطلق مفيد للصحة .
وكانت توجه حديثها الى يوفار ايفانوفتش كذلك وكان
يقول لها وقد امتلا قمه بالطعام : لا تقلقى ..

وكانت هي تردد من آن لآخر قولها : ياله من يوم
جميل ! لقد حدث لها تغير ملحوظ وكأنها قد رجعت الى
الوراء عشرين عاما . وقد لقت برزنيف نظرها الى ذلك
فردت تقول : نعم . لقد كنت مجتهدة أيام الدراسة وكنت
دائما من العشر الأوائل .

وأخذ شوبين الذى جلس الى جوار زويا يملا كأسها
بالبنيذ المرة تلو المرة ، وكانت ترفض ولكنه كان يلح عليها
وكان الموقف ينتهى بأن يشرب هو كأسها ثم يعيد الكرة
مرة أخرى . وكان يؤكد لها أنه يريد أن يضع رأسه فى
حجرها ولكنها لم تكن تسمح له بمثل هذه الحرية
الزائدة ، وكانت يلينا تبدو جادة أكثر منهم جميعا ولكن
قلبا كان مفعما بهدوء لم تجرب مثله منذ وقت طويل .
كانت تشعر بطيبة لا حد لها وأرادت ألا ينفرد انزاروف
بصحبتها بل أن يكون برزنيف أيضا الى جوارها .

ولم يكن اندريا بتروفتش يدرك مغزى ذلك بوضوح
وكانت تصدر منه من آن لآخر تنهدات خفية .

مرت الساعات سريعا ، واقترب المساء . وفجأة
احسنت أنا فاسيليفنا بالانزعاج وهتفت : يا الهى لقد
تاخرنا كثيرا . لقد تناولتم الطعام والشراب أيها السادة
وحان وقت الرحيل .

واخذت تصسخب وكذلك فعل الأخرى . قاموا
وساروا نحو القلعة التى تركوا الى جوارها العربات وتوقفوا
عند مرورهم بالبحيرات ليستمتعوا بالنظر الى تسارتسينو
للمرة الاخيرة . كان الريف يلتف فى غلالة حمراء كساه
بها شفق الغروب . وكانت السماء قرمزية اللون ، وكانت
أوراق الشو تلمع وهي تهتز بفعل الهواء وهي تعكس
خليطا من الألوان الزاهية كما كانت المياه تلتصق على البعد
كانها ذهب سائل . وكانت القباب الصغيرة الحمراء
المنتشرة فى الحديقة تظهر بوضوح أمام خضرة الاشجار
الفاتحة . وتمتمت أنا فاسيليفنا بصوت خافت قائلة :
وداعا يا تسارتسينو . سوف لا ننسى نزهة اليوم . وفى
نفس اللحظة حدث شيء لم يكن من الممكن أن ينسى سريعا .
فما أن ألقت أنا فاسيليفنا على تسارتسينو تحية الوداع
حتى تعالت على مسافة قريبة ضحكات وصياح وضجيج من
خلف احدى الاشجار ، واندفع نفر من الرجال فى هيئة
رثة - نفس الجماعة التى صفتت وهتفت لزويا - الى
الطريق . كان واضحا أنهم قد أفرطوا فى الشراب .
ووقفت جماعتهم أمام السيدات . وتقدم أحدهم وهو شاب
ضخم الجثة له رقبة كرقبة الثور وعينان حمراوان وهو
يتمايل وينحنى بغير اتزان ، واقترب من أنا فاسيليفنا
التي تسمرت فى مكانها من الخوف ثم قال لها بصوت
اجش : طاب صباحك ياسيدتى . كيف حالك ؟
فتراجعت أنا فاسيليفنا الى الوراء فى فزع . وأردفت

الرجل بلغة روسية ركيكة : لماذا لم تعيدوا الغناء عندما
صاحت جماعتنا « أعد » ؟

فصاح باقي أفراد الجماعة : نعم .. لماذا ؟ وخطأ
انزاروف الى الأمام ولكن شوبين أوقفه وتوسط هو بين
أنا فاسيليفنا والألماني ثم قال : اسمح لي أيها السيد المحترم
أن أخبرك عن استنكارنا الشديد لسلوكك . اننى
أستطيع أن أستنتج انك تنتمى الى الفرع السكسونى من
الجنس القوقازى وهذا يجعلنا نفترض انك على علم بقواعد
اللياقة ، ورغم ذلك فيها أنت توجه الخطاب الى سيده دون
أن يقدمك أحد لها . وصدقنى اننى كنت أرحب بالتعرف
عليك فى أى وقت آخر فاننى أرى أن عضلاتك قوية
وبصفتى مثالا فاننى كنت أرحب بك كنموذج لتمثال أما
الآن فأرجوك أن تتركنا وشأننا .

واستمع « السيد المحترم » لكلام شوبين وهو ينظر
اليه باحتقار وقد وضع يديه فى وسطه ثم قال له : لم أفهم
شيئا مما قلته .. ربما كنت تعتقد اننى اسكافى أو
ساعاتى . ها .. اننى موظف .. نعم .. موظف .
فقال له شوبين : أنا لم أشك فى ذلك .

فنجاه الرجل بذراعه القوى كمن يزيل غصنا من
طريقه ثم قال : ولكنى أقول لماذا لم تعيدوا الغناء عندما
صحننا « أعد » وعلى كل فانى ذاهب ، ولكنى أريد من هذه
الفتاة - لا هذه المرأة - كلا .. هذه الفتاة أو هذه الفتاة -

مشيرا الى يلينا وزويا - أن تمنحنى قبلة صغيرة .. كما
يقول بالألمانية .. نعم قبلة صغيرة .. ولا ضرر فى هذا .
فعبأ صدقاؤه قائلين :

- أجل ، قبلة صغيرة . لا يضرر منها ..

أسكتت زويا بذراع انزاروف ولكنه انتزع ذراعه
منها وتصدى للرجل مخاطبا اياه بصوت منخفض حاد
النبرات : ابتعد من فضلك ..
ففقده الألماني ثم قال :

- ماذا تعنى ابتعد ؟ اننى أحب أن أقف هنا .
ألا أستطيع أن أسير قليلا أنا أيضا ؟ ماذا تعنى بهذه
الكلمة .. ابتعد ؟ ولماذا ابتعد ؟

أجاب انزاروف وقد امتقع وجهه : لانك تجرات على
مضايقة السيدة ولأنك تمل .

- كيف هذا ؟ أنا تمل ؟ هل سمعت يا هرسايداس ؟
هل سمعت يا هربروفيزور ؟ أنا موظف ورغم ذلك فانه
يتجرأ - والآن لابد لي من ترضية .. أريد قبلة صغيرة .
فأنذره انزاروف قائلا : اذا خطوت خطوة أخرى ..

- حسن ماذا سيحدث ؟

- سأقذف بك فى الماء .

- فى الماء ؟ هل هذا كل ما هنالك ؟ حسن ، سنرى .
انه لشيء مثير أن تلقينى فى الماء .

ورفع « الموظف » يديه وتقدم الى الامام ولكن حدث
نجاة شيء فريد . فقد صدرت عنه آنة ثم ارتفع جسمه
الضخم عن الارض واخذت قدماه تضربان الهواء وقيل أن
نصرخ السيدات وقيل أن يتبين أى شخص حقيقة ما حدث
سقط « الموظف » فى البحيرة واختفى فى الحال تحت سطح
الماء .

فصاحت السيدات جميعا فى صوت واحد : أوه !
وقال واحد من الألمان بلغة قومه : يا الهى . . ومزت دقيقة
ثم ظهر على سطح الماء رأس مستدير يقطيه الشعر المبلل
وتخرج منه فقاعات من الهواء ، وظهرت يدان تضربان الماء
فى دعر وعصبية فصاحت انا فاسيليفنا بانزاروف الذى
وقف يلهث على الشاطئ وقدماه متباعدتان : سيفرق . .
ادركه . . ادركه .

فقال لها بنبرة يختلط فيها الاحتقار والقسوة :

- بل سيخرج سليما . . هيا بنا . .

ثم أخذ ذراع انا فاسيليفنا وقال :

- هلم بنا يا بوفار ايقانوفتش هلمى بنا يا يلينا

نيكولايفنا .

وفجأة صاح الألماني التعس الذى تمكن من الامساك
ببعض النباتات النامية على الشاطئ : أوه . . آه . . . أما
الآخرون فقد ساروا خلف انزاروف وتعدده هو وصاحبه
وجين المهرجون بعد أن فقدوا زعيمهم ولم ينطقوا بكلمة
الا واحدا منهم كان أشجعهم ، فقد تمت وهو يهز رأسه :

- الآن . . هذا . . الله وحده هو الذى يعلم ما هذا .

وخلع آخر قبعته . كان انزاروف يبدو لهم مخيفا
وكانوا على حق فقد كانت تملو وجهه نظرة تنذر بالشر .
واندفع الألمان الى زميلهم وانتشلوه من الماء وما ان وجد
نفسه على أرض صلبة حتى بدأ يسب ويلعن والدموع
تنساب من عينيه « أولئك المجرمين الروس » ويصيح قائلا
انه سوف يشكوهم وأنه سيقدم شكواه لصاحب السعادة
الكونت فون كيزاريتز شخصيا . ولكن «المجرمين الروس»
أسرعوا الى القلعة غير مباليين بضجيجهم . كانوا جميعا
يسيروا فى صمت عبر الحديقة ماعدا انا فاسيليفنا التى
كانت تنن بصوت منخفض . ولكنهم عندما وصلوا الى
العربات وقفوا ثم انفجروا فى الضحك . وكان شوبين أول
من انفجر يضحك كالمجنون ثم تبعه برزنيف الذى كان
يقهقه فى سرور ثم تبعتهم زويا التى جعلت تضحك ضحكات
خافتة ثم أغرقت انا فاسيليفنا فى الضحك فجأة ، وحتى
يلينا لم تتمالك نفسها من الابتسام . وأخيرا استسلم
انزاروف نفسه للضحك . أما بوفار ايقانوفتش فكان
أكثرهم ضحكا . وكان يتوقف عن الضحك برهة ويقول
والدموع تنساب من عينيه : لقد دهشت من صوت الوقوع
فى الماء - ثم رأيت - ذلك الشيء - كان هو - يهوى الى
القاع . وما يكاد ينطق آخر كلمة حتى تعاوده نوبة
الضحك وتهز كيانه كله . وكانت زويا تدفعه الى المزيد
من الضحك بقولها :

- لقد رأيت قدمين يضربان الهواء ... فيضيف
يوفار ايفانوفتش قائلا : تماما .. قدمان .. وفجأة هبط
الى القاع . ثم تساءلت زويا :

- ولكن كيف استطاع انزاروف أن يفعل ذلك ؟
لقد كان ذلك الألماني يبلغ ثلاثة أضعاف حجمه . فأجابها
يوفار ايفانوفتش وهو يمسح عينيه :

- أستطيع أنا أن أصف لك كيف فعل ذلك فقد
رأيت كل شيء - لقد لف أحد ذراعيه حول وسط الرجل
ثم حمله وقذف به في الماء . وقد تعجبت للصوت الذي
سمعته فإذا به صوت وقوعه في الماء .

ظل يوفار ايفانوفتش فترة طويلة بعد أن بدأت
العربات سيرها واختفت قلعة تسارتسينو وهو لا يخفى
جذله . وأخيرا أسكنته شويبين الذي كان يجلس الى جواره
في العربة . أما انزاروف ، فقد كان يشعر بالحجل ، فكان
يجلس صامتا في العربة في مواجهة يلينا ، بينما كان
برزنييف يجلس الى جوار السائق . وكانت يلينا هي
الأخرى صامتة . وتوهم انزاروف ان يلينا خائفة عليه
ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فقد فزعت أول الأمر ولكنها
بوغتت بعد ذلك بالتعبير الذي ارتسم على وجهه فجعلت
تفكر . ولم تكن هي نفسها تعرف فيم تفكر . وزيابها
الشعور الذي لازمها أثناء النهار ، ولكن شيئا آخر حال
مكانه لم تستطع هي أن تميزه لقد استمرت النزعة اطول
من اللازم ومضى المساء وأقبل الليل ، والعربة تعدو مسرعة

بعذاء جثول القمح الناضج وقد عقب الجبو برائحته ، وعبر
بالمروج الخضراء المترامية التي كانت ترسل موجات من
الهواء المتعش على الوجوه . كانت السماء تبدو داكنة في
الأتق ، ثم بزغ القمر بلونه الأحمر الباهت وكانت
أنا فاسيليفنا تغفو من آن لآخر في حين كانت زويا تنظر
الى الطريق متكئة على النافذة . وتنبهت يلينا في النهاية الى
أن ساعة قد مضت دون أن تتحدث الى انزاروف ، فسألته
سؤالا تافها رد عليه في الحال بسرور . ثم طرقت أسماعهم
أصوات غامضة كأنها همهمة آلاف من الناس يتحدثون
بعيدا . كانت هذه موسكو وهم يقتربون منها . وكانت
الأضواء تتلألأ على البعد ، وتزداد عددا وأخيرا مست عجلات
العربة الطريق الحجرى فاستيقظت أنا فاسيليفنا وبدأ كل
من في العربة يتحدث ، ولكن احدا لم يكن يتبين مايقال
بسبب صوت عجلات العربتين وحوافر الحيل على الطريق
الحجرى . كانت الرحلة من موسكو الى كونتسومو تبدو
لا نهائية . وكان المسافرون ما بين غاف وجالس في صمت .
يلينا كانت هي الوحيدة التي لم يغمض لها جفن . كانت
ترتكز نظراتها على انزاروف . أما شويبين فقد غلبه الحزن
وكانت النسائم الخفيفة التي تهب على وجهه تزعجه فأخفى
وجهه في ياقة معطفه وهو أقرب ما يكون الى البكاء . وأما
يوفار ايفانوفتش فقد استغرق في النوم . وعلا شخيره
وأخذ يتأرجح في مقعده . وأخيرا توقفت العربتان وقام
اثنان من الخدم بمساعدة أنا فاسيليفنا على التبرجل من

العربة وكانت منهكة تماما وقالت وهي تودع صحبتها انها
توشك أن تموت من التعب . وأخذوا يصرخون لها عن
شكرهم ولكنها كانت تردد أنها على وشك الموت . ومدت
يدينها الي انزاروف تحييه - وكانت هذم أول مرة
تفعل فيها ذلك - وظلت فى مجلسها بكامل ملابسها أمام
نافذة غرفتها فترة طويلة . وانتهز شوبين فرصة وهمس
فى اذن برزنيف وهو يخرج : الا تظنه بطلا ؟ لقدلقى
الألماني الثمل فى الماء .

فرد عليه برزنيف قائلا : انك لم تفعل شيئا كهذا .
ثم وافق انزاروف الى البيت .
ووصل الصديقان الى دارهما قرب الفجر ولم تكن
الشمس قد اشرقت بعد ، ولكن النسيم كان يهب باردا ،
وقطرات الندى تغطى الحشيش . وشقشقة عصافير وبقى
نجم واحد يتلالا فى السماء .

(١٦)

بعد أن تعرفت يلينا على انزاروف بدأت تكتب
مذكراتها - وذلك للمرة الخامسة أو السادسة . وها هى
بعض مقتطفات منها .

يوئيه ، يحضر لى اندريا بتروفتش بعض الكتب
ولكننى لا أستطيع أن أقرأها ولا أستطيع فى الوقت ذاته

أن أحمل نفسى على الاعتراف له بذلك ، ولا أجرؤ على رد
الكتب اليه . واخبره اننى لم أقرأها فاننى اعتقد أن ذلك
سيصيبه بخيبة أمل . انه يلاحظ كل شيء عمله . وهو
يبدو شديد التعلق بى . ان اندريه بتروفتش رجل لطيف
للغاية .

•• ولكن ما الذى أريده ؟ ولماذا أشعر أن قلبى
حزين ؟ لماذا أنظر بحسد للطيور العابرة ؟ اننى أشعر
اننى أطير معها ولكننى لا أعرف الى أين ، لابد أن يكون
هذا الى مكان بعيد . الست مخطئة فى هذه الرغبة ؟ والذى
ووالدتى وأسرتى هنا . الا أحبهم ؟ كلا ، اننى لا أحبهم
كما يجب . ان مثل هذا القول شيء فظيح ولكنها الحقيقة .
وقد أكون مذنبه وقد يكون هذا هو السبب فى حزنى
وقلقى . اننى أشعر كأن يدا ثقيلة تضغط على كائنى فى
سجن توشك جدرانها أن تنهدم فوقى . ولكن لماذا لايشعر
الآخرون بهذا الشعور ؟ وكيف يمكننى أن أحب أى انسان
اذا كنت لا أهتم بأقاربى . يبدو أن والدى على حق حين
يشكو منى ويقول اننى لا أحب الا القطط والكلاب . لابد
لى أن أفكر أكثر فى هذا . اننى لا أصلى كما يجب . لابد
لى أن أصلى أكثر ولكننى أعتقد رغم هذا ، اننى أستطيع
أن أحب ••

اننى لا ازال أشعر بالحجل فى حضور السيد انزاروف
ولكننى لا أعرف لماذا •• أنا لست صغيرة السن فهو
متواضع وعطوف . انه يبدو أحيانا فى غاية الجد . ربما

من أمد له يدي • اننى لا أرحب بمن يأتون الى ، أما من أريده فانه يمضى ويتركنى •

••• عجباً ! ما الذى ألم بى اليوم : اننى أشعر بدوار • اننى على استعداد لأن أجتو على ركبتى فى طلب العون بيد اننى لا أعرف من يستطيع أن يقدم لى يد المساعدة ولا كيف يقدمها ؟ اننى أشعر وكأننى أقتل وأننى أصبح من أعماقى وأبكى وأنا لا أملك زمام نفسى •• هدى يا الهى هذه العاطفة فى نفسى • انك الوحيد الذى يملك ذلك فان كل من عداك لا حول له ولا قوة • فلا صداقاتى التافهة ولا أعمالى ولا أى شىء آخر مهما كان يمكن أن يأخذ بيدي • أنا على استعداد لأن أعمل خادمة • ان كان فى ذلك ما يشعره بتحسنى •• وما فائدة شبابى ولماذا أعيش وما قيمة روحى وكل شىء آخر ؟

••• ان انزاروف •• السيد انزاروف •• أنا فى الحقيقة لا أعرف كيف أتحدث عنه - يسيطر على أفكارى • كم أود أن أطلع على ما بقلبه • انه يسدر صريحا سهل الفهم ، ورغم ذلك فاننى لا أرى شيئا • انه أحيانا ينظر الى كمن يبحث عن شىء - أم تراه خيالى هو الذى يصور لى ذلك ؟ ان بول يضايقنى دائما وأنا غاضبة منه • فما الذى يريده ؟ انه يحببى ولكن ما بى حاجة الى حبه • انه أيضا يحب زويا • اننى أظلمه • لقد قال لى بالأمس اننى لا أعرف كيف أخفف من ظلمى • وهو على حق • ولا شك ان ذلك شىء سيئ ••

لديه أشياء أخرى غيرنا يفكر فيها • اننى اذ أحس بذلك لا أشعر أن من حقى أن أستحوذ على وقته • ولكن اندريا بتروفتش يختلف عنه فانا أستطيع أن أتحدث اليه طول اليوم • ولكنه هو الآخر لا يكف عن الحديث عن انزاروف • لقد أعطانى عنه تفاصيل رهيبية • وقد رأيت فى الحلم فى الليلة الماضية • كان يمسك بخنجر فى يده ، وقال لى « سأقتلك وأقتل نفسى أيضا » ياله من تخريف !!

••• لو أننى وجدت من يقول لى « هذا ما يجب أن تفعله » • لا يكفى أن يكون للانسان قلب رحيم • ان فعل الخير هو الشىء المهم فى الحياة • ولكن كيف أستطيع أن أفعله ؟ ليتنى أستطيع أن أسيطر على نفسى ! اننى لا أفهم السر فى انشغالى بالسيد انزاروف • اننى أنظر اليه حين يأتى الى هنا ويجلس وهو ينصت باهتمام وانتباه دون أن يحاول أن يظهر قدراته ، وأشعر بالارتياح • ولكن هذا هو كل ما هنالك ••

وبعد أن ينصرف أظلم أفكر فيما قاله وأغضب من نفسى بل وأشعر بالضيق •• لا أدرى سببا لذلك ••
••• أعطيت اليوم قطعة من النقود لسائلة فسالتنى قائلة :

- لماذا يبدو عليك الحزن ؟ ولم يكن قد خطر ببالى اننى أبديو حزنينة • أعتقد أن ذلك يرجع الى وحدتى فانا وحيدة دائما بكل ما فى ذلك من خير وشر • ليس هنالك

آه ... اننى على يقين أن الانسان محتاج لمصيبة
كالفقر أو المرض حتى لا يصيبه الغرور .

... ولماذا حدثنى اندريا بتروفتش عن هذين
البلغاريين اليوم . يبدو انه قد تعدد ذلك وما أهمية السيد
انزاروف بالنسبة لى ؟ اننى حانقة على أندريا بتروفتش .

... امسك قلبي ولا أدري كيف أبدا . لقد كان
حديثه الى فى الحديقة اليوم مفاجأة . كم كان لطيفا !
ويا للسرعة التى تم بها كل شيء ! لقد كنا صديقين قديمين
التقيا حديثا . ولا أدري كيف مر على كل هذا الوقت
حتى أفهمه . كم هو قريب الى نفسى الآن ! الشيء الغريب
أننى الآن أهذا نفسا . لا أدري كيف كنت غاضبة من
أندريا بتروفتش ومنه بالأمس حتى ناديته قائلة « ياسيد
انزاروف » .. أما اليوم - فقد عثرت فى النهاية على رجل
مخلص أستطيع الاعتماد عليه . انه ليس كاذبا .. انه
أول رجل صادق أقابله . الجميع ، عداه ، يكذبون .
يا صديقى العزيز الطيب يا أندريا بتروفتش لماذا أظلمك ؟
ولكن لا ... قد يكون أندريا بتروفتش أكثر ثقافة أو
أكثر ذكاء منه . ولكنه يبدو ضئيلا الى جانبه .. انه
عندما يتحدث عن بلاده يبدو كبيرا ويصبح وجهه جذابا
وصوته قويا ويبدو حينذاك أنه ليس هناك من يستطيع
أن يجعله يغمض عينيه . انه لا يتكلم فحسب بل يعمل
ويعمل ، عندى أسئلة كثيرة سأوجهها له .. لقد التفت
الى فجأة وابتسم .. لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك على

هذا النحو سوى أخ شقيق .. كم أنا مسرورة الآن .
عندما جاء لزيارتنا أول مرة لم أكن أتصور اننا سنغدو
صديقين بهذه السرعة . ولكننى الآن مفتبطة اذ لم أبال
فى أول الأمر . لم أبال ؟ ألم أعد عديمة المبالاة ؟
... اننى لم أشعر بهذا الهدوء الداخلى منذ مدة .
اننى الآن أشعر بهدوء داخلى . ليس هناك ما أسجله .
اننى أراه كثيرا . هذا كل ما هنالك . وهل هناك شيء آخر
يستحق التسجيل ؟

... ان بول يتجنبنى . وقد قلل أندريا بتروفتش
من زيارته .. يا للرجل النعس ! اننى أظن أنه .. ولكن
هذا مستحيل . اننى شغوفة بالحديث الى أندريا بتروفتش
.. انه لا يتحدث أبدا عن نفسه بل يتحرى دائما أن يتحدث
عن شيء معقول ومفيد . انه ليس كشوبين .. ان شوبين
ذو رونق وبهاء كالفراشة ولكنه بخلاف الفراشات يزهو
بنفسه . على كل ، فان كلا من شوبين وأندريا بتروفتش
.. اننى أعرف ما أعنى ..

... انه يحب المعنى الى هنا .. أجل هذا جلي
واضح . ولكن لماذا ؟ ما الذى وجده فى ؟ .. ان أذواقنا
فى الحقيقة متشابهة : فكلانا لا يحب الشعر وكلانا لا يعرف
الكثير عن الفن .. ولكنه يفوقنى كثيرا . هو هادى بينما
أنا دائمة القلق ، كذلك فان امامه طريقا يتبعه وهدفا
يسعى لتحقيقه . ولكن ما هو الوقت بالنسبة لى ؟ والى
أين أنا ذاهبة وأين عشى ؟

انه هادىء ولكن أفكاره بعيدة الغور .. لسوف
يفارقنا يوما ما ليعود الى وطنه عبر البحر .. كان الله فى
عونه ..

ولكن لم لم يكن هذا الرجل روسيا ؟ كلا ..
فما كان من الممكن له أن يكون روسيا .

ان والدتى تقدره أيضا . تقول انه رجل متواضع .
فليباركها الله . انها لا تفهمه . لقد كف بول عن
مضايقتى - لابد انه أدرك اننى لا أقر تلميحاته - ولكنه
رغم ذلك لا يزال يفارغ منه .. يا له من شاب شرير !! أى
حق له ؟ هل حدث ان ؟

كل هذا هراء . لا أدرى لماذا ترد هذه الأفكار على
عقلى ..

... انه لأمر غريب اننى وقد بلغت العشرين لم
أصب بعد .. أعتقد ان « د » ولاسمه بهذا الحرف .. فأنا
أحب اسم دمترى - أعتقد أنه جاد فقد كرس كل حياته
وتوفر بكل ايمان على قضيته وعلى أحلامه .. فلماذا يقلق
.. ان كل من يكرس نفسه عقلا وروحا لشيء ما لا يقلق
لشيء . انه لا يعبا بذاته . فقد وهب نفسه لقضية بلده
.. نحب نفس الزهور . لقد قطفت اليوم وردة وسقطت
ورقة منها على الأرض فالتقطها فأعطيتها الوردة .

... ان « د » يأتى كثيرا وقد أمضى مساء الأمس
كله معى . انه يريد أن يعلمتى اللغة البلغارية .. اننى

أشعر وأنا معه كأننى مع واحد من ذوى بل وربما أحسن .
.. الأيام تمر بسرعة . اننى فى سعادة بيد اننى

أشعر بشيء من الخوف . وبرغبة فى حمد الله وشكره ،
بى رغبة فى البكاء . الا ما أجمل هذه الأيام - أيام الدفء
والشمس المشرقة .

... لا أزال قريرة العين ولكن الحزن يداخلنى
أحيانا ، اننى سعيدة . هل أنا سعيدة حقا ؟

... سأظل أذكر نزهة الأمس وقتنا طويلا . لقد

تركت فى نفسى انطباعات غريبة وجديدة ومريعة . اننى
لم أشعر بالخوف عندما رفع ذلك المارد فجأة وألقى به فى
الماء كالكرة . ولكنه هو أخافنى .. لقد كان وجهه ينطق
بالجد بل والقسوة . ولا أنسى لهجته التى قال بها ان
الرجل سيخرج من البحيرة . لقد اقشعر بدنى . يبدو
انى لم أكن أعرفه على الاطلاق . وعندما ضحك الجميع بعد
ذلك . وعندما شاركتهم الضحك كنت أشعر بألم بالغ من
أجله . كان هو يشعر بالحجل - أجل ، لقد أحسست
بذلك بالحجل منى . وقد كاشفنى بذلك فيما بعد ونحن فى
العربة حينما كنت أحاول أن أسدد النظر فى الظلام فتولانى
الخوف منه . انه ليس ممن يستهان بهم وهو يعرف كيف
يواجه شخصا آخر . ولكن ما سبب الغضب ورعشة
الشففتين ونظرة العينين القاسية ؟ الا يمكن أن يكون
الانسان مقاتلا ويظل رغم ذلك ودعيا ورقيقا ؟ لقد قال
لى أخيرا ان الحياة قاسية . ورددت ذلك لأندرىا بتروفتش

بهروفتش يتحدث الى كمن يشعر بالأسف من أجله . ولكن
 ماذا يعنى كل هذا ؟ ما بال كل شيء حولي وكل شيء فى
 قرارة نفسى غامض ؟ اننى أحس ان شيئا غامضا يحدث
 حولي وفى أعماقي واننى لابد ان أعثر على الكلمة الصحيحة .
 . . . لم أتمكن من النوم الليلة الماضية وأشعر بصداح
 شديد . ما الداعى لكتابة أى شيء ؟ لقد انصرف مبكرا
 جدا اليوم وكنت شديدة الرغبة فى التحدث اليه . انه
 يبدو كمن يتحاشانى . نعم انه يتحاشانى . . . لقد عثرت
 على الكلمة - لقد هبطت على ! يا الهى . . رحمتك . .
 اننى أحب . .

(١٧)

فى اليوم الذى سطرت فيه يلينا هذه الكلمات
 الأخيرة فى مفكرتها كان انزاروف يجلس فى حجرة برزنيف
 وكان برزنيف يقف أمامه وقد ارتسمت على وجهه نظرة
 استغراب . كان انزاروف قد أعرب عن رغبته فى العودة
 الى المدينة فى اليوم التالى .

فقال برزنيف :

- ولكن يا صديقى لقد بدأت أجعل فترات السنة
 ما الذى ستفعله فى موسكو ؟ وما سبب هذا القرار
 المفاجئ ؟ هل تلقيت أخبارا خاصة ؟

فلم يكن من رأى دمترى . . أيهما ياترى المصيب ؟ مع
 ذلك فكم كانت جميلة بداية ذلك اليوم . يا لسعادتى وأنا
 أسير الى جواره مع أننا لم نتحدث . أنا منشرفة الصغر
 بما حدث واعتقد انه كان لابد ان يحدث بهذه الطريقة .
 . . . القلق يعاودنى لا أشعر أننى على مايرام .

. . . لم أسجل شيئا فى هذه المفكرة لعدة أيام
 لانى لم أكن أشعر برغبة فى الكتابة . كنت أشعر أن أى
 شيء أكتبه سيكون مختلفا عما أحس به فى قلبى . ولكن
 ما لقلبي ؟ لقد تبادلت معه حديثا طويلا فتح عيني على
 أشياء كثيرة . أخبرتنى عن مشروعاته . وعلى فكرة لقد
 علمت الظروف التى أصابه فيها الجرح الذى فى رقبته .
 يا الهى . . ان الدهشة تستبد بى كلما تذكرت انه قد
 حكم عليه بالاعدام وأنه نجا من الموت بأعجوبة . انه
 رائع . هو على يقين أن الحرب ستشتعل وهذا يجلب له
 البهجة والسرور . ورغم هذا لم يسبق لى أن رأيت « د »
 مهموما على هذا النحو . ما الذى يمكن أن يحزنه دين الناس
 جميعا ؟ لقد عاد والدى من المدينة ووجدنا معا وكانت النظرة
 التى رمقنا بها غريبة حقا . عندما جاء أندريا بتروفتش
 لاحظت أنه قد ضمير وشحبه لونه . وقد أنبنى لسلوكى
 نحو شوبين ووصفه هذا السلوك بالبرود وعدم المبالاة .
 لقد نسيت كل شيء عن بول حين القاه ثانية سناحاول أن
 أكفر عن خطئى والحق أن وقتى أصبح لا يتسع له الآن -
 ولا لأى شخص آخر على وجه الأرض قاطبة . كان أندريا

- وما سبب رغبته فى الرحيل ؟
قال لها برزنيف :

- أنت تعلمين أن انزاروف لا يعطى أسبابا لتصرفاته .
ورغم ذلك فاننى أعتقد . . . تعالى نجلس ، أنت متوعدة
يا يلينا . اعتقادى اننى أستطيع أن أحسن سبب هذا
الرحيل المفاجئ . قالت يلينا وقد أمسكت يد برزنيف
بلهفه بأصابعها التى أصابتها برودة مفاجئة :

- وما هو السبب ؟
فقال لها برزنيف وقد بدت على شفثيه ابتسامة
باهتة :

- كيف أستطيع أن أوضح لك ؟ اننى أجد نفسى
مضطرا الى الرجوع الى الربيع الماضى وهو الوقت الذى
أتيج لى أن أعرف فيه انزاروف معرفة أحسن . كنت قد
قابلته فى منزل أحد الأقارب . وكان لهذا القريب ابنة
وهى فتاة رائعة الجمال فاعتقدت ان انزاروف قد وقع فى
حبها وأخبرته بهذا . . فضحك وقال اننى مخطيء لان قلبه
محصن ضد الحب وأنه لو أحس بشئ كهذا لغادر المكان
لتوه اذ لم يكن يريد ، حسبما قال ، أن يتخلى عن قضيتها
وعن واجبه لكى يشبع عاطفة شخصية .
ثم أضاف : اننى بلغارى ولا أريد أن أقع فى حب
فتاة روسية .

فقالت له يلينا هامسة وقد أدارت وجهها كمن ينتظر
ضربة ولكنها كانت لاتزال ممسكة بيده :

فاجابه انزاروف قائلا :

- كلا لم أتلق أى أخبار . ولكن ثمة أسباب تخول
دون بقائى هنا أكثر من ذلك .
- الا تستطيع البقاء ؟
فقال له انزاروف :

- أرجو يا أندريا بتروفتشى ألا تصر على ذلك
اننى أجد صعوبة فى فراقك ولكننى لا أستطيع البقاء .
فنظر اليه برزنيف جيدا ثم قال له أخيرا :

- اننى أعرف أنه لا شئ يمكن أن يثنيك عن عزمك
. . هل هذا قرار نهائى ؟
قال له :

- نهائى ولا رجعة فيه . ثم قام من مكانه وخرج . .
وأخذ برزنيف يمشى فى الحجرة قليلا ثم أخذ قبعبته
وذهب الى بيت ستاكوف .

وما ان انفردت به يلينا حتى بأدبرته قائلة :

- لديك ماتريد أن تخبرنى به .

- نعم - وكيف عرفت ؟

- لا تهتم بذلك ، وقل لى ما وراءك .

وأخبرها برزنيف بقرار انزاروف ، فشحب وجه
يلينا . . ثم سألته :

- والآن .. هل تعتقد انه ؟

فقال لها وقد خفض صوته هو الآخر :

- أعتقد ان ما أخطأت في تخمينه وقتذاك قد تحقق

الآن ..

فانفجرت يلينا قائلة :

- أى انك تعتقد ... لا تعذبني .

فاجابها برزنيف بسرعة :

- أعتقد ان برزنيف قد وقع في حب فتاة روسية ،

ولكنه قرر ان يحتفظ بوعده لوطنه وان يهرب منها .

وشددت يلينا الضغط على يده وأدارت رأسها وكأنها

تريد أن تخفى عن شخص غريب تلك الحمرة المفاجئة التي

طغت على وجهها ورقبتها .

وقالت له :

- أنت طيب كمالك يا أندريا بتروفتش .. ولكنه

سيأتى لوداعنا اليس كذلك ؟

- نعم .. أعتقد انه سيحضر لانه لا يريد أن يرحل

دون أن ..

- قل له من فضلك قل له ..

ولكن الفتاة المسكينة لم تستطع أن تكمل فقد

أنهمرت الدموع من مقلتها وخرجت من الحجرة وهي

تجرى .

وقال برزنيف لنفسه وهو في طريقه الى بيته :

- اذن الى هذا الحد تجبه .. لم أكن أتوقع ذلك ..

لم أتخيل أن يكون هذا الحب قويا هكذا بهذه

السرعة . تقول انني طيب . ليس هناك من يعرف المشاعر

أو الدوافع التي جعلتني أقول ليلينا هذا الكلام . لم يكن

هذا ولا شك من باب العطف والطيبة . كان ذلك بدافع

الرغبة اللعينة لمعرفة هل غاص الحنجر في الجرح الى عمق

كبير ؟ .. كان يجب على أن أقر عينا - انهما متحابان وأنا

الشخص الذى ساعدهما على ذلك « أنا وسيط المستقبل

بين العلم والشعب الروسى ، كما يسميني شوبين . يبدو

أنه مقدر على أن أكون وسيطا . ولكن لعلى واهم .. كلا

لست واهما . كان برزنيف مكتئبا . ولما بلغ بيته لم

يستطع أن يركز تفكيره وهو يقرأ كتاب رومير . وفى اليوم

التالى قام انزاروف بزيارة بيت ستاكوف بعد الواحدة

بقليل . وكان لدى أنا فاسيليفنا لحسن الحظ زائرة هي

زوجة القسيس التي تقطن في بيت قريب . كانت امرأة

طيبة محترمة ولكنها كانت تشكو من متاعب مع البوليس

منبئيا انها نزلت للاستحمام في يوم حار في بحيرة على

الطريق يستعملها عادة أفراد أسرة أحد الجنرالات المهمين .

وظنت يلينا في أول الامر ان وجود شخص غريب

بالبيت سيخفف عنها . وامتقع لونها حال سماعها وقع

اقدام انزاروف . ولكن قلبها كادت تتوقف ضرباته عندما

خطر ببالها انه قد يودعها دون أن يتحدث إليها على انفراد .

ذلك برقع ساعة • وكانت يلينا تختلس اليه النظر في
الفترة التي كان فيها معها • ولم يكن هو مرتاحا لذلك وظل
يقلب عينيه في كل اتجاه ثم خرج وهو في حالة غريبة
وسرعان ما اختفى ••

ومضى اليوم بطيئا أما الليل فكان أطول • كانت
يلينا تجلس تارة على فراشها وقد أمسكت ركبتيها بيديها
وأسندت رأسها عليهما وتسير تارة أخرى الى النافذة وتضع
جبهتها على زجاجها البارد وهي نهبية للافكار حتى أخذ منها
الارهاق كل مأخذ • وكاد قلبها يتوقف دقائقه أو يقفز من
صدرها وكانت عروقها تنتفض مع كل نبضة • وجفت
شفتها •• كانت تقول لنفسها : سيأتي - انه لم يودع
والدتي - وهو لا يمكن أن يخذعني •• أمن الممكن أن يكون
اندريا بتروفتش صادقا فيما حدثني به ؟ كلا •• هذا
مستحيل • ولكنه لم يقل انه سيعود •• ترى هل فارقت
الى الأبد ؟

كانت هذه هي الهواجس التي تقض مضجعها • لم تكن
أفكارها تروح وتجيء في رأسها بل كانت تتلاحق فيها
كالوج الصاخب ، كانت تقول لنفسها : « انه يحبنى »
وتهز هذه الفكرة كل كيائها ، ثم تحلق في الظلام ويبدو
على شفيتها ظل ابتسامة ، ولكنها سرعان ما تلتقي برأسها
للخلف ثم تمسك مؤخرة رأسها بيديها وتعاودها هواجسها
السابقة •

وبدا على انزاروف الارتباك ، وكان يتجنب نظراتها •
وقالت لنفسها : لا يمكن أن يودعني في لحظة • والتفت
انزاروف الى أنا فاسيليفنا وكانما يؤكد مخاوفها ، ولكن
يلينا قامت على عجل وقادته الى النافذة •

ودهشت زوجة القسيس لهذا التصرف وحاولت أن
تلتفت اليهما • ولكنها كانت ترتدى ملابس محبكة فكان
أن عجزت عن ذلك وعدلت عن المحاولة •
قالت يلينا على عجل لانزاروف :

- أعرف سبب مجيئك فقد أخبرني اندريا بتروفتش
بما تنويه ، ولكنني أرجوك بل وأتوسل اليك ألا تودعنا
اليوم وأن تحضر غدا حوالى الحادية عشرة لاني أريد أن
أتحدث اليك •

فانحني انزاروف ••
وقالت يلينا :

- لن أستبقيك أكثر من ذلك ، فهل تعدني ؟

فانحني انزاروف مرة أخرى ولكنه لم يجب ••
وهنا تحدثت أنا فاسيليفنا قائلة :

- تعالي يا يلينا وانظري الى هذه الحقيبة الجميلة ••
فقالت زوجة القسيس :

- لقد طرقتها بنفسى •

- وابتعدت يلينا عن النافذة • وخرج انزاروف بعد

ولما حان الفجر خلعت ملابسها وأوت الى فراشها ولكنها لم تخسده الى النوم . ثم تسللت الى حجرتها بعد هنيهة اشعة الشمس وفجأة هتفت قائلة : « اه .. لو انه يجينى ، وفتحت ذراعها وهي غير عابئة بأشعة الشمس والضوء الذى سقط عليها .

غادرت الفراش وارتدت ملابسها وهبطت من حجرتها ولم يكن أحد قد استيقظ بعد . وذهبت الى الحديقة وكانت هادئة خضراء منعشة وكانت الطيور تغرد والازهار جميلة مما اثار فيها شعورا بالرهمية . وقالت لنفسها : اذا كان ذلك صحيحا فلا يمكن أن يكون هناك عود من اعواد الحشيش أسعد منى . ولكن هل ذلك حقيقى ؟ ثم عادت لحجرتها وأخذت تغير ملابسها ولكن كان كل شيء تمسكه يقع من يدها . وأخيرا جلست أمام المرأة نصف عارية . واستدعيت لتناول الشاي ، فنزلت من حجرتها ولاحظت والدتها شحوبها ، ولكنها لم تزدد على قولها : انك تبدين جميلة هذا الصباح . ثم تفحصتها بنظرها وقالت لها : - هذا الثوب يناسبك تماما وأنصحك أن ترتديه كلما أردت أن تدخل السرور على نفس أى انسان . وجلست يلينا فى أحد الاركان فى صمت . ودقت الساعة التاسعة وبقيت ساعتان حتى الحادية عشرة . والتقطت كتابا ثم تركته وتناولت شغل الابرة ثم عادت للكتاب مرة أخرى . ثم قررت أن تسيير جيئة وذهابا فى الحجره مائة مرة ، وفعلت ذلك ثم نظرت الى الساعة فلم تكن قد بلغت

العاشرة . ثم حضر شوبين الى حجره الجلوس وحاولت أن تتحدث اليه وقدمت له اعتذارها وهي تجهل ما تعتذر عنه .

كانت كل كلمة تنطقها تحيرها . وكان شوبين ينحنى لها . وكانت تتوقع منه السخرية ولكنها عندما نظرت اليه وجدت أمامها وجها ينطق بالود والحنن .

وابتسمت لهذا الوجه ورد عليها شوبين بابتسامة مماثلة ثم انصرف فى هدوء . أرادت أن تستوقفه ولكنها لم توفق الى طريقة تستدعيه بها .

وأخيرا دقت الساعة الحادية عشرة . . . وأخذت تنتظر وتنتظر وتنتظر وهي تنصت ولم يعد فى وسعها أن تفعل أى شيء بل لقد عجزت حتى عن التفكير . وبدأت دقات قلبها تعلقو رويدا وبدا لها ان الوقت يمر سريعا . وممرت ربع ساعة ثم نصف ساعة ثم بضع دقائق أخرى أو هكذا تخيلت ثم انتفضت فجأة عندما دقت الساعة الواحدة لا الثانية عشرة .

قالت لنفسها :

- سوف لا يأتى - سيرحل دون أن يودعنا . واندفع الدم الى رأسها عندما خطرت لها هذه الفكرة . وأحسبت بأنفاسها تتلاحق وبالدموع على وشك أن تنهمر من عينيها . فعادت الى حجرتها وألقت بنفسها على الفراش وقد وضعت وجهها بين راحتها .

ظلت راقدة دون حراك نصف ساعة والدموع تنساب بين أصابعها وتبلل الوسادة . وفجأة هبت جالسة وكن هناك شيء غريب يجرى في قرارة نفسها وتغير وجهها وجفت دموعها تلقائيا وأخذت عيناها تلمعان ، قطبت حاجبيها وزمت شفتيها . وانقضت نصف ساعة أخرى . وأصاحت يلينا السمع لآخر مرة لعلها تسمع الصوت الذي تنتظره . ثم قامت ولبست قبعتها وقفازا ووضعته الشال حول كتفيها وتسلمت من البيت دون أن يراها أحد . وأسرعت تسير في الطريق المؤدى الى بيت برزنيف .

- ١٨ -

سارت يلينا وقد نكست رأسها وركزت عينيها على الطريق . لم تكن تخشى شيئا كما لم تكن تعرف ماتفعله . كانت تريد أن ترى انزاروف مرة أخرى ، هذا كل ما هنالك . ولم تحس بأن الشمس قد توارت من مده خلف السحب الداكنة وان ريحا قوية كانت تعبت بالاشجار وبردائها وأن الغبار أخذ يندفع على طول الطريق ويرتفع . وبدأ المطر يتسقط في قطرات كبيرة ، ولكنها لم تعرها أى التفات ، وزادت غزارة المطر وبدأت السماء ترعد وتبرق . ووقفت يلينا لتنظر حولها . ووجدت لحسن الحظ بالقرب منها كوخا صغيرا يعلو بثرا فأسرعت تحتوى به . وظل

المطر يسقط بغزارة ، من سماء ملبدة بالقيوم . ونظرت يلينا فى يأس الى الستار الكثيف الذى نسخه المطر وأخذ أملها الاخير فى رؤية انزاروف يتضاءل . وانضمت اليها فى مأواها شحادة عجوز قالت لها وهى تنحنى :

— أنت مختبئة من المطر يا صغيرتى . . . ثم جلست على الارض تنهدت وتثن . . . ودست يلينا يدها فى جيبها ورات المرأة العجوز هذه الحركة فاشرق وجهها المجعد الشاحب الذى كان جميلا فى يوم من الايام . . . وقالت لها : شكرا لك ياملاكى . . . ولم تجد يلينا حافظة نقودها ولكن المرأة العجوز كانت قد مدت يدها بالفعل . . .

فقالت لها يلينا :

— ليس معى نقود يا جدتى ولكن يمكنك أن تأخذى هذا — فقد ينفعك . . . وأعطتها مندليها . . .

قالت الشحادة :

— ماذا أستطيع أن أفعل بمندليك يا فتاتى ؟ ساهديه لحفدتى يوم زفافها . . . أسأل الله أن يجزيك عن عطفك خيرا . . . وهتا رعدت السماء وأبرقت . . .

فقالت العجوز :

— يا الهى . . . ثم رسمت الصليب على صدرها ثلاث مرات . . . ثم أضافت بعد برهة : يخيل الى أننى رأيتك من قبل . . . أظنك أعطيتنى صدقة ذات مرة . . .

فنظرت يلينا بتمعن للمرأة العجوز وتذكرتها ثم قالت لها :

- نعم يا جدتي وقد سألتني يومئذ عن سبب حزني .
فقالت لها العجوز :

- نعم يا بنيتي لقد فعلت . وهذا هو ماجعلني أتعرف عليك ثانية . ولكنك تبدين حزينة الآن أيضا . مندليك مبتل كله - هل كنت تبكين ؟ ولكن أيتها الفتيات سواء بأحزانكن وهمومكن ..

- أي أحزان يا جدتي ؟

- تسألين أي أحزان ؟

لا تحاولي يا ابنتي الطيبة أن تموهي على امرأة عجوز مثلي . انني أعرف ما يؤلمك . أملك لا يرجع الى انك فقدت والديك . لقد كنت شابة يوما ما يا فتاتي وخبرت هذا كله انني أقول لك هذا لأنك أحسنت الى .. لقد التقيت برجل طيب وأهل للثقة وتريدين التمسك به .

إذا كان مقدرا لهذا أن يتم فسيتم والا فلتكن ارادة الله . هذا هو الموقف . لماذا تحمقين في هكذا ؟ ألم تكوني تعرفين انني أقرأ الطالع ؟ اذا أردت فانني سأخذ كل أحزانك مع مندليك . سأبعدها كلها عنك وهذا كل ما هناك . انظري ، لقد بدأ المطر يخف فما تنظري حتى يتوقف أما أنا فلا بد لي أن أنصرف ولن تكون هذه هي

المرة الاولى التي يبلىني فيها المطر تماما .. تذكرى يا عزيزتى انك كنت حزينة ، ولكن حزنك قد انتهى الآن . وتهضت المرأة العجوز وانصرفت وتتبعها يلينا بنظرات مأخوذة وقالت يلينا لنفسها :

- ماذا يمكن أن يعنى هذا ؟

لقد بدأت شدة المطر تخف وأخذت الشمس تظهر وتختفي . وكانت يلينا على وشك أن تترك مخبأها عندما رأت انزاروف فجأة على بعد اثنتي عشرة خطوة وكان يسير ملتفا بمعطفه في نفس الطريق الذي سارت هي فيه يبدو انه كان مسرعا الى بيته . حاولت أن تناديه ولكن صوتها خانها . ومر انزاروف أمامها دون أن يرفح عينيه . واستطاعت أخيرا أن تناديه .

رفوق انزاروف ونظر خلفه .. لم يعرف يلينا في بادىء الامر ولكنه بعد لحظة واحدة ، رجع اليها ..

وقال لها متعجبا :

- ماذا تفعلين هنا !؟

فدخلت الى الكوخ في هدوء وتبعها انزاروف وكرر سؤاله .. فلم تجبه .. ولكنها نظرت اليه نظرة طويلة رقيقة .. أما هو فقد خفض عينيه . وسألته :

- أكنت عاندا من بيتنا ؟

- كلا - كنت عاندا من مكان آخر .

فتساءلت يلينا قائلة :

- كلا - ؟ وهل هذه هي الطريقة التي تحافظ بها على

كلمتك لقد قضيت الصباح في انتظارك ..

- لعلك تذكرين يا يلينا نيكولا يفنا اننى لم أعدك بشيء

بالأمس .

فابتسمت يلينا ابتسامة باهتة ومرت بيدها على

وجهها وكانت يداها شاحبتين ووجهها ممتعا . قالت :

- أى انك كنت ستتركنا دون أن نودعنا :

فقال انزاروف بصوت حزين :

- نعم .

- بعد أن عرف أحدنا الآخر كل هذه المدة . وبعد

الموضوعات الكثيرة التي ناقشناها . بعد كل هذا .. معنى

هذا اننى اذا لم أكن قد قابلتك هنا بالصدفة (وهنا ارتعش

صوت يلينا وتوقفت هنيهة عن الكلام) لرحلت دون ان

تقرئنى السلام للمرة الاخيرة دون أن تأسف على هذا ؟

فابتعد عنها انزاروف ثم قال :

- لا تتكلمى هكذا يا يلينا نيكولا يفنا فعندى من

التعاسة الكفاية . وصدقينى ان قرارى هذا قد كلفنى جهدا

ضخما . واذا عرفت .. فقطاعته يلينا قائلة :

- لا أريد أن أعرف سبب رحيلك فأنا أعتقد انك

مجبر عليه وواضح انك لا بد أن ترحل . فانك ما كنت

تتسبب فى مضايقة أصدقائك دون سبب . ولكن هل

يفترق الاصدقاء هكذا ؟

اننى وانت أصدقاء أليس كذلك ؟

فقال انزاروف :

- كلا .

فقالت يلينا وقد احمرت وجنتاها قليلا :

- ماذا تقول ؟

قال انزاروف :

- اننى راحل لاننا لسنا صديقين .

ولا تضطربنى الى قول مالا أريد أن أقوله - وماسوف

لا أقوله .

فقالت يلينا وفى صوتها رنة تأنيب :

- لقد اعتدت أن تكون صريحا معى . ألا تذكر ذلك؟

- كان هذا عندما كان فى استطاعتى أن أكون صريحا

حيث لم يكن لدى شيء أخفيه . أما الآن - فسألته يلينا :

الآن ماذا ؟

- الآن - الآن لا بد لى أن أذهب . وداعا .

لو أن انزاروف كان قد رفع رأسه فى هذه اللحظة

لرأى وجه يلينا وهو يزداد اشراقا بينما كان وجهه هو

يزداد تجمعا . ولكنه كان لا يرفع عينيه عن الارض .

أحسنتها دون أن ينيس • ولم يكن في حاجة لأن
 يصرح لها بأنه يحبها ، فإن التعبير الذي ظهر عليه والتحول
 المفاجيء الذي حدث له وصدره الذي كان يعلو ويهبط وهي
 متعلقة به بكل ثقة وأصابه التي كانت تعبت بشعرها -
 كانت كلها توحى ليلينا أنه يحبها • لم يقل شيئا ولم تكن
 هي في حاجة الى كلمات وكانت تقول لنفسها : انه هنا •
 انه يحبنى • فماذا أريد أكثر من ذلك ؟ وغمرتها موجة من
 هدوء الغبطة • والشعور بالامن • الشعور بأن هدفا قد
 تحقق • الهدوء السماوي الذي يضي جمالا على كل شيء •
 لم تكن في حاجة الى شيء فقد أصبحت تملك كل شيء •
 قالت له هامسة وهي لا تدري ان كان قلبه أو قلبها
 هو الذي يدق ويندوب في صدرها : أخي • صديقي •
 عزيزي ••

ووقف هو بلا حراك وقد التفت ذراعاه القويتان حول
 هذه الفتاة التي أسلمت نفسها له ، كانت تشعر به وهو
 يضمها الى صدره •• وقد حطم حياها وحطمت رقبتها عزمه
 واندفعت الى عينيه دموع لم يكن له بها عهد من قبل •
 ولكنها هي لم تبتك بل أخذت تكرر قولها : صديقي •
 أخي ••

ومر ما يقرب من ربع ساعة وهو لا يزال ممسكا بها
 بين ذراعيه ثم قال :
 - اذن فانت على استعداد للذهاب معي الى أي مكان •

قالت له :
 - وداعا اذن يادمتري نيكاموروفتش •• ولسكر:
 اعطني يدك على الاقل مادمننا قد التقينا •
 وهم انزاروف بأن يمد لها يده ولكنه ابتعد وقال
 هامسا :

- كلا لا أستطيع ••
 - لا تستطيع ؟
 - كلا • وداعا • ثم اتجه صوب الباب ••
 فقالت له يلينا : انتظر لحظة واحدة • انك تبدو
 خائفا مني •• ولكنني أشجع منك • ان في استطاعتي أن
 أصارحك - هل أقول - لماذا وجدتنى هنا ؟ هل تعرف الى
 أين كنت ذاهبة ؟

فنظر انزاروف الى يلينا في عجب :
 - كنت ذاهبة اليك •
 - الى ؟
 فأخفت يلينا وجهها بين يديها وهمسست قائلة :
 - لقد أردت أن تدفعني الى مصارحك بحبي • والآن
 هأنذا قد كاشفتك بذلك •

فهتف انزاروف قائلا : يلينا !!
 فرفعت يديها من على وجهها ونظرت اليه ثم ألقت
 بنفسها على صدره ••

بمرح كمرح الطفولة وهو يغطي راحة يدها وأصابعها
بقبلاته .

• فجأة احمر وجهها وأخفت وجهها فى صورة ••
ولكنه رفع رأسها بركة ونظر فى عينيها وقال لها :
- تحية لك اذن يا زوجتى أمام الله وأمام الناس ••

- ١٩ -

• عادت يلينا فى هدوء الى حجرة الجلوس بعد ساعة
وقد أمسكت قبعتها فى احدى يديها وشالها فى اليد
الأخرى • كان شعرها غير مرتب ، على وجنتيها وردة
حمراء وعلى شفتيها وفى عينيها ابتسامة • كانت متعبة
للمغاية حتى انها كانت تجد فى السير مشقة ولكنها كانت
تستمتع بذلك التعب بل تستمتع بكل شيء • كان كل
شيء يبدو أمامها لطيفا جميلا • كان يوفار ايفانوفتش
يجلس أمام نافذتها فذهبت اليه ووضعت يديها على كتفيه
وضحكت ••

فسألها فى دهشة :

- ماذا هناك ؟

ولم تعرف بم تزد عليه •• كانت على استعداد لان
تعطيه قبلة •• وأخيرا قالت : لقد مضى ••
ولكن يوفار ايفانوفتش لم يحرك عضلة واحدة وهو
يحملق فى يلينا فى دهشة • ووضعت شالها وقبعتها عليه

- الى اى مكان الى آخر الدنيا •• أحب أن أكون
حيث تكون ••

- هل انت واثقة انك لا تخدعين نفسك ؟ انت
تعرفين ان والديك لا يمكن أن يوافقا على زواجنا •
- أنا لا أخدع نفسى •• اننى أعرف ••

- وهل تعلمين اننى فقير بل وأكاد أكون معدما ؟
- أجل ••

- واننى لست روسيا • واننى لا أنوى أن أعيش فى
روسيا وانك ستضطرين لقطع علاقاتك مع بلادك وأقاربك؟
- اعرف ذلك ••

- وهل تعلمين أيضا اننى قد كرسيت حياتى لقضية
صعبة لا هوادة فيها • واننى - واننا سنضطر لمواجهة
الاخطار والمصاعب بل وربما الهوان ؟
- أعلم ذلك - أعرف كل هذا • أحبك •

- وانك ستضطرين للتخلي عن كل عاداتك وستكونين
هناك وحيدة بين قوم أغراب وقد تضطرك الظروف للعمل ؟
فوضعت يديها على شفتيه وقالت له :

- أحبك يا عزيزى ••

فبدأ يقبل يدها - الرقيقة الوردية فى شغف ••
ولم تحاول يلينا أن تسحب يدها منه بل أخذت تراقبسه

•• ثم قالت : اننى متعبة يا عزيزى يوفار ايفانوفتش كما
اننى أشعر بالنعاس • ثم ضحكت مرة أخرى وألقت نفسها
على المقعد المجاور له •

فتتمت يوفار ايفانوفتش وهو يثنى أصابعه وقال :
- غفوة ••• نعم ••• لا بأس ••

ونظرت يلينا حولها وهى تقول لنفسها : سأكون
مضطرة للتخلي عن كل هذا قريب • الغريب اننى لا اشعر
بخوف أو شك أو أسف • ولو أننى سأشعر بالأسف
على فراق أمى • ثم رأت الكوخ الصغير مرة أخرى وسمعت
صوت انزاروف وأحسست بذراعيه تطوقانها •• كان قلبها
يدق بمرح وهدوء فقد كان هو الآخر فى غمرة من السرور
ثم تذكرت السائلة العجوز وقالت لنفسها : لقد أزلت
حزنى فعلا • كم أنا سعيدة الآن ولو انى لا أستحق هذه
السعادة • ما أسرع ما جاءت سعادتى • واستسلمت
لعواظها قليلا لتطلق العنان لدموع الفرح التى ظلت
تحبسها طويلا •

كانت كل حركة من حركاتها متأنية ورقيقة • واختفى
جمودها العادى وحيرتها • ودخلت زويا وخيل ليلينا عندما
رأتها انها لم تر وجهها أجمل من وجهها • ثم تبعها انا
فاسيليفنا • وأحسست يلينا بالألم وقامت واجتضنت أمها
فى معجبة وحنان وقبلتها فى جبهتها عند شعرها الأشيب •
ثم ذهبت بعد ذلك الى حجرتها ، وكان كل شىء فيها يبدو

جميلا • وجلست على فراشها وهى تشعر بالبهجة
والاطمئنان ، نفس الفراش الذى أمضت عليه منذ ثلاث
ساعات لحظات مريرة •• وقالت لنفسها : كنت أعرف
حينذاك طبعاً انه يحبنى وحتى قبل ذلك • ولكن لا •••
لا ••• من الجرم أن أفكر فى هذا •• ثم همست : لقد
قال « انك زوجتى » ثم غطت وجهها بيدها وركعت على
ركبتيهما •

عندما اقترب المساء بدا عليها الوجوم • لقد شعرت
بالحزن لأنها ستمضى فترة طويلة دون أن ترى انزاروف •
لم يكن يملك البقاء مع برزنيف دون أن يثير الشكوك ،
لذا فقد اتفق مع يلينا على ضرورة عودته الى موسكو على
أن يزورهم مرة أو مرتين قبل نهاية الصيف • كما وعدت
من جانبها أن تكتب له وان تعمل على أن يلتقيا فى أى مكان
بالقرب من مكونتسوفو ان أمكن ذلك ، ونزلت الى حجرة
الجلوس لتناول الشاي وهناك وجدت جميع أفراد العائلة
وشوبين الذى أخذ بمجرد ظهورها ينظر اليها بدهاء ، كانت
تود لو أمكنها أن تبدأ معه حديثاً ودياً كما كانت تفعل من
قبل ولكنها كانت تخشى نظراته الناقبة كما انها لم تكن
تثق فى نفسها • كانت تشك فى أنه ليس من قبيل
الصدفة أن يتركها دون أن يقابلها فترة أسبوعين •
وسرعان ما حضر برزنيف ونقل الى انا فاسيليفنا تحيات
انزاروف واعتذراته لأنه اضطر الى الرحيل الى موسكو دون
أن يزورها لتقديره شكره وتقديره • كانت هذه أول مرة

وفجأة قال شوبين فى نبرات حادة مخاطبا برزنيف:
تقول انها اشارة لها بعض ما يبررها ؟ فايقظها صوته من
حلمها * واستمر شوبين فى حديثه قائلا : ولكن هذا
ما يجعل لها قيمة * فالاشارة التى لها كل ما يبررها تسبب
الأس الذى لا تحبذه المسيحية والاشارة التى ليس لها
ما يبررها تجعل الانسان لا يعبأ بشيء * فاذا قلت مثلا
ان يلينا نيكولايفنا تحب احدنا فماذا يكون نوع هذه
الاشارة ؟

فقالت يلينا :

- آه ياسيد بول كان بودى ان أبين لك كم أنا
ضيقه الصدر بهذا الحديث ولكننى لا أستطيع فانا منهكة
جدا *

فسألتها أنا فاسيليفنا التى كثيرا ما كان يغلبها
النعاس فى المساء فيحملها على دفع الآخرين الى النوم :
- ولماذا لا تذهبين للنوم ؟ حينئذ تحية المساء
واذهبي لتنامى - ان اندريا بتروفتش سيأذن لك بذلك ..
فقبلت يلينا والدتها وانحنت للجميح وخرجت
ورافقها شوبين الى الباب * وهمس فى اذنها وهى على عتبة
الباب : يا يلينا نيكولايفنار انك تطئنين السيد بول بقدميك
تدوسين عليه بقسوة ، ورغم ذلك فان السيد بول يعبدك
ويعبد قدميك الصغيرتين والحذاء الذى تلبسينه فى قدميك
الصغيرتين بل ونعل حذائك *

يذكر فيها اسم انزاروف ذلك اليوم فى حضور يلينا *
وأحسنت بأن وجهها قد علاه الاحمرار * قد تنبعت أن عليها
أن تعبر عن أسفها لهذا الرحيل المفاجئ لمثل ذلك الصديق
ولكنها لم تستطع أن تتظاهر فجلست صامتة دون حركة
بينما أعربت أنا فاسيليفنا عن أسفها * وحاولت يلينا أن
تظل بالقرب من برزنيف الذى لم تكن تخشاه رغم انه كان
يعلم جزءا من سرها ، وكانت تحتفى به من شوبين الذى
كان يكرر النظر اليها كمن يبحث عن شيء أو كمن يستفسر
عن شيء * وشعر برزنيف بالجزء أكثر من مرة ذلك المساء
لانه كان يتوقع أن يجد يلينا أكثر حزنا مما رآها ولكن
كان من حسن حظها ان بدأ هو وشوبين نقاشا حول الفن
فابتعدت عنهما وأخذت تنصت الى أصواتهما وكأنها فى
حلم من الاحلام * ورويدا رويدا أصبح كل شيء فى الحجرة
جزءا من حلم - فانا الشاى على المنضدة والصديري الذى
يلبسه يوفار ايفانوفتش وأظافر زويا اللامعة وصورة الدوق
قسطنطين بافلوفتش الزيتية على الحائط - كل هذا اختفى
من أمام عينيها * ولكنها كانت تتحسر عليهم جميعا
وتتساءل قائلة :

- ما الذى يعيشون من أجله ؟

وسألتها أمها :

- هل تشعرين بالنعاس يا يلينا ؟

ولكنها لم تسمع السؤال ..

فهزت يلينا كتفها ومدت له يدها على غير رغبة منها،
لم تكن هي اليد التي قبلها انزاروف . وعندما رجعت الى
حجرتها خلعت ملابسها وصعدت الى فراشها ونامت نوما
عميقا كنوم طفل .

- ٢٠ -

ما ان خرج برزنيف من بيت أنا فاسيليفنا حتى
قال له شوبين : تعال معي الى حجرتي لحظة واحدة فان لدى
ما أريد أن أطلعك عليه . فذهب برزنيف الى جناح شوبين
وفوجيء بكثرة التماثيل والنماذج الملفوفة بخرق مبلة في
كل ركن . فقال لشوبين :

- لا بد انك تعمل بمنتهى الجهد .

فرد عليه شوبين قائلا :

- لا بد لي من شيء ما أعمله . وعندما لا يأتي الشيء
كما تريد فلا بد لك من عمل شيء آخر . انني كالفنسان
بالكورسيكي - فانا أهتم بالصفات العامة أكثر من اهتمامي
بالفن كفن بحت .

فقال له برزنيف :

- زدني ايضا .

فقال له شوبين .

- انظر يا صديقي العزيز الى هذا التمثال الذي
أسميه « الانتقام رقم ١ » - . قال ذلك ورفع الغطاء عن
أحد التماثيل الصغيرة . . رأى برزنيف تماثلا نصفيا
جميل الصنع لانزاروف وبشبهه تماما . فقد نجح شوبين
في ابراز تقاطيع وجهه فكانت تعبر تعبيرا مدهشاً عن
الشرف والنبيل والرجولة . .

وشعر برزنيف بالسرور . . وقال لشوبين :

- مدهش جدا . . تهنتني . . انه تمثال جدير بأن
يعرض . ولكن لماذا تسمى هذا العمل الفني العظيم
« بالانتقام » ؟

فقال شوبين :

- لأنني أريد أن أقدم هذا التمثال الذي قلت عنه
انه عمل فني رائع هدية ليلينا نيكولايفنا يوم عيد ميلادها
هل فهمت الاشارة ؟

لست أعمى .

انني استطيع أن أرى ما يحدث حوله ولكنني رجل
مهذب ، كما انني انتقم بطريقة مهذبة . .

أما هذا التمثال الصغير (قالها وهو يرفع الغطاء عن
تمثال آخر) فنظرا لأن مقاييس الجمال الحديثة تخول للفنان
حق تخليد الشيء الكريه مع تعظيمه الى درجة بدائع الخلق
فانني اذ أعظم المخلوق الذي يمثل هذا التمثال الذي سميت
رقم ٢ ، فقد انتقم ولكنني لم انتقم كرجل مهذب .

وأزال الحرقه وشاهد برزنيف تمثالا آخر لانزاروف
نحت على طريقة دانتين وقد ظهرت فيه البراعة الفائقة
الى جانب السخرية الشديدة . فقد صور هذا البلغاري
ككباش يقف على رجليه الخلفيتين وقد استعد برأسه للنطح؛
وقد ارتسمت على وجهه الجدية مختلطة بالغباء والتحدى
والعناد والحماقة . ولكن الشبه كان شديدا جدا حتى ان
برزنيف انفجر ضاحكا .

وقال شوبين :

- مثير . أليس كذلك ؟ لابد انك تعرفت على البطل .
هل ترى ان اعرض هذا التمثال أيضا ؟ سأقدمه لنفسى يوم
عيد ميلادى . هل تسمح لى بقفزة يا صاحب الفخامة ؟ ثم
قفز شوبين قفزتين أو ثلاث . أما برزنيف فانه التقط
الحرقه وغطى التمثال الصغير . . .

وقال شوبين : برنة حزن وهو يكشف الغطاء عن
تمثال ثالث كبير :

- والآن سوف ترى شيئا يقنعك بتواضع صديقك
ونفاذ بصيرته .

سوف تقتنع انه - كفنان أصيل - يعرف كيف يدفع
نفسه . انظر !!

ونزع الحرقه فظهر أمام برزنيف تمثال لرأسين وضعا
متجاورين وكانهما نبتا معا . ولم يستطع أن يتبين فى
بأدى الامر ما يدل عليه التمثال ولكنه عندما دقق النظر

وجد ان أحد الرأسين هو رأس انوشكا والرأس الثانى
هو رأس شوبين . وقد أظهر رأس انوشكا على انه رأس
فتاة ممتلئة ذا جبهة منخفضة وعينين منتفختين وأنف قصير
وشفتين غليظتين تنفرجان عن ابتسامة مغرية ويرتسم على
وجهها تعبير شهوانى مع لمسة خفيفة تدل على طبيعة طيبة .
وصور شوبين نفسه كعربيد ضائع له أنف مدبب وصدغان
غاثران وقد تدلت على جبهته خصلة صغيرة من الشعر
وبدت عيناه وقد خلتا من البريق .

وابتعد برزنيف فى اشمزاز وسأله شوبين :

- ما رأيك فى هذين ؟ الا تستطيع أن تفكر فى اسم
يطلق على هذا التمثال ؟ لقد فكرت أنا فى تسميتين للتمثالين
الاولين . سيكتب تحت التمثال النصفى: « بطل عقد العزم
على انقاذ وطنه » أما التمثال الصغير فسيكتب تحته
« احترسوا أيها الطغاة » أما تحت هذا فمن الممكن أن يكتب
« مستقبل الفنان بأفل شوبين » . ما رأيك فى هذا ؟

فقال برزنيف :

- كف عن هذا . كيف يمكنك أن تضيع وقتك فى
مثل هذا ال

ولم يستطع أن يجد كلمة ملائمة .

فقال له شوبين :

- هل كنت تنوى أن تقول « الدنس » ؟ دعنى أقول

- لا تفعل هذا أيها الرجل فقد يصلح هذا التمثال
 أداة للتحذير من عمل شنيع .
 فضحك برزنيف وقال :
 - حسن سأبقى على أداة التحذير هذه لك • وليحيا
 الفن الحقيقي الخالد •
 فصاح شوبين بدوره قائلا :
 - ليحيا الفن • فبالفن يبدو الشيء الجيد أكثر جودة
 أما الشيء الرديء فلا ضرر منه •
 وشد الصديقان كل منهما على يد الآخر مسلما
 وافترقا •

- ٢١ -

« شهر الليل » ليلياس
 www.iliias.com

كان أول ما خامر يلينا عندما استيقظت شعور بخوف
 لذيد • وسالت نفسها قائلة : هل هذا ممكن ؟ هل هذا
 ممكن حقا ؟ كانت تشعر بسعادة جعلت قلبها يكاد يكف
 عن الدق • وطلعت عليها وتملكتها الذكريات ثم غمرها
 الهدوء مرة أخرى • ولكن القلق استولى عليها من جديد
 •• في الصباح وأحسنت في الايام التالية بخمول ووحدة •
 لقد أصبحت الآن تعرف ما تريد ولكن هذا لم ييسر الامور
 بالنسبة لها • لقد أخرجها ذلك اللقاء الذي لا تنسى عن

لك اننى لو كنت قد خلفت شيئا يستحق العرض فهو
 هذا التمثال الاخير للرأسين •

فقال برزنيف :

- ان « دنس » هى الكلمة الصحيحة • ولكن ما كل
 هذا العبث ؟ يبدو انك لا تملك البصيرة النافذة للقيام
 بمثل هذا العمل على عكس فنائينا الذين يتجهون اليه
 أكثر من اللازم • انك بهذا تلتطخ سمعتك •

فقال شوبين :

- هل تظن ذلك ؟ اننى اذا كنت عديم البصيرة فاللوم
 فى ذلك يقع على شخص ما • هل تعلم اننى قد بدأت
 اعاقر الحمر ••

- مستحيل

فقال شوبين :

- أقسم على ذلك • ولكننى لم أحب الحمر فانى أجده
 صعوبة فى ابتلاعها • كما اننى بعد احتسائها أشعر برأسى
 يدور • كذلك فقد صرخ لوشخكين العظيم - اعنى فارلامبى
 لوشخكين نفسه وهو أعظم سكير فى موسكو بل يقول
 البعض انه أعظم سكير فى روسيا - لست سكيروا مدهنا •
 وهو يقول ان الحمر لا تستهوينى •

ورفع برزنيف قبضته لكى يحطم تمثال الرأسين

ولكن شوبين منعه وقال له :

علاقة • كانت تبدو وكأنها تقول لها : لازلت تنتمين إلينا • حتى الشتلات الصغيرة والطيور المهيضة الجناح والحيوانات كانت تنظر إليها - أو هكذا خيل لها - نظرة خالية من الثقة بل وعدائية • كانت تشعر بالحجل من مشاعرها • وكانت تقول لنفسها : هنا بيتى وأسرتى ووطنى • ولكنها كانت تسمع صوتا آخر يردد : كلا لم يعد هذا الوطن وطنك ولم تعد هذه الاسرة أسرتك وغلبها الخوف وكان خوفها يزهد أنفاسها • لقد بدأت متاعبها ولكنها كانت فاقدة الصبر •

واحتاجت الى فترة لكي تستجمع قواها • • ومر أسبوع وأسبوع آخر حتى تمكنت يلينا من استعادة بعض هدونها وتعودت وضعها الجديد كتبت خطابين قصيرين لانزاروف ووضعتهما بنفسها فى صندوق البريد لأنها بدافع من الحجل والكبرياء لم تأمن الحادم عليهما • • وكانت تتوقع زيارة قريبة من انزاروف ولكن ستاكوف جاء بدلا منه فى صباح أحد الايام •

- ٢٢ -

لم يسبق لأحد فى منزل الضابط المتقاعد ستاكوف أن رآه متجهما ورغم ذلك كان يبدو عليه الاعتداد بالنفس فى ذلك اليوم الى حد كبير • فقد دخل الى حجرة الجلوس

طريقها القديم الى الأبد • وطالما انها لم تعد فى الطريق القديم بل أمست بعيدة عنه فان كل شىء كان يسير كالمعتاد وكان شيئا لم يتغير • استمرت الحياة السابقة مع ما ينتظر فيها من يلينا من مشاركة وعون • حاولت أن تكتب خطابا لانزاروف ولكنها فشلت كانت الكلمات التى كتبتها لا حياة فيها أو لعلها كانت كاذبة • • وتوقفت عن الكتابة فى مفكرتها بعد أن وضعت خطأ سميكا تحت آخر جملة فيها • هذه المفكرة كانت ملكا للماضى بينما كانت كل افكارها بل وكيانها كله متجها للمستقبل • كانت تشعر بالأسى • وكانت تتصور أن هناك جريرة فى جلوسها الى جوار والدتها التى لم تكن تشك فى أى شىء وهى تنصت اليها وتجيّب عن اسئلتها وتبادلها الحديث • كانت تحس بالنفاق وتشعر بالحطة رغم انها لم تقترف ذنبا يدعوها الى الحجل • وتملكتها أكثر من مرة رغبة شديدة فى أن تطلع والدتها على كل شىء وترريح نفسها ، وليكن ما يكون •

وكانت تقول لنفسها : لماذا لم ياخذنى دمترى فى الحال من ذلك الكوخ الى حيث يريد أن ياخذنى ؟ ألم يقل لى اننى زوجته أمام الله ؟ وما الذى ييقينى هنا ؟ وبدأت تتجنب الجميع حتى يوفار ايفانوفتش الذى كان فى حيرة بالغة وأكثر من ثنى أصابعه أكثر من أى وقت مضى • ولم تعد الأشياء حولها تبدو جميلة أو مثيرة للأحلام ولكنها كانت تأخذ بخناقها كالكاپوس • كانت حملا ثقيللا لا يتزحزح كانها تؤمنها أو تعارضها وترفض أن تكون لها بها أية

بخطى وثيدة وهو يرتدى معطفه وقبعته . ثم اقترب من المرآة وأخذ يتفرس في وجهه في جد وهدوء وهو يهز رأسه ويضع على شفتيه . وقابلته أنا فاسيليفنا بانفعال خارجي وسرور خفي . ولم يهتم بأن يخلع قبعته أو بأن يحييها وسمح ليلينا وهو صامت أن تقبل قفازه . وسألته أنا فاسيليفنا بعض الأسئلة عن الادوية التي يستعملها ولكنها لم تتلق منه جوابا . ثم جاء بوفار ايفانوفتش فنظر اليه ستاكوف وقال له :

- مرحبا . . . كان يعامل يوفار ايفانوفتش ببرود وغطرسة رغم علمه انه كانت تجرى في عروقه آثار من دماء عائلة ستاكوف ، وكل العائلات الارستقراطية الروسية تعتقد ان لها صفات معينة متوارثة . ودخلت زويا وانحنيت لستاكوف الذي جلس على أحد المقاعد وبعد أن طلب فنجانا من القهوة خلع قبعته أخيرا وأخذ ينظر للحاضرين واحدا بعد الآخر ثم أمرهم بالفرنسية : « اخرجوا من فضلكم والتفت الى زوجته وقال لها بالفرنسية :

- أما أنت يا سيدتي فأرجوك أن تجلسي . . .

وخرج الجميع ماعدا أنا فاسيليفنا التي جعل رأسها يهتز من الانفعال وقد أدهشتها هيئة الجذ والاهتمام فيه . كانت تنتظر منه شيئا غير عادي . . . وتساءلت بمجرد أن أغلق الباب . . .

- ماذا هناك ؟

فنظر ستاكوف اليها بغير اكرات ثم قال :

- ليس هناك شيء ذو أهمية خاصة . ولكن لم تلعبين دائما دور الضحية ؟ لقد أردت فقط أن أنبهك الى أن ضيفا جديدا سيحضر لتناول الغداء معنا .

- ومن يكون ؟

- يجوز اندريفتش كورنا توفسكى . . . انت لا تعرفينه . انه السكرتير الاول في مجلس الشيوخ . . . وهل سيأتي لتناول الغداء ؟

- نعم .

- وهل أمرت الجميع بمغادرة الحجره لمجرد أن تخبرني بهذا ؟

وهنا نظر اليها ستاكوف بتهمك وأضاف :

- وهل يدهشك هذا ؟ هناك مفاجأة أكبر في الطريق . . .

وصمت قليلا والتزمت أنا فاسيليفنا هي الأخرى الصمت . . . ثم قطعتة قائلة :

- أحب . . .

فقاطعها فجأة وقال :

- أعرف انك تعتبرينى رجلا لا أخلاق له .

فقالته مأخوذة :

- أنا ؟

فاستطرد :

- قد تكونين على حق .. أنا لا أنكر انه كان لديك ،
أحيانا ، من الأسباب مايبور تدمرك .. تذكرت موضوع
الخصائين ، ولكنها قالت :

- ولكنني لا ألومك اطلاقا يا نيكولاى ارتيمفيتش .
فقال لها :

- ممكن وعلى أى حال فأننى لا أحاول تبرير سلوكى
ولكن الوقت هو الذى سيتكفل بهذه المهمة . أؤكد لك
أننى أعرف التزاماتى كما اننى قادر على رعاية مصالح
الأسرة التى أنا ربها .

فقالت أنا فاسيليفنا فى نفسها :

- ما الذى يجول بخاطره ؟ لم تكن تعرف أن مناقشة
حامية قد قامت فى اليوم السابق فى أحد أركان إحدى
المحرات بالنادى الانجليزى حول عدم قدرة الروس على
القاء الخطب حيث قال أحد المتناقشين : من منا يستطيع
أن يتكلم ؟ اعطنى ، ان استطعت اسما واحدا لا أكثر
لشخص يستطيع أن يلقي خطابا .. فرد عليه شخص آخر
قائلا : ما اعتراضك على ستاكوف ؟ وأشار شخص ثالث
الى ستاكوف الذى أخذ يعبر عن سروره بشتى الطرق ..
واستمر ستاكوف فى حديثه فقال : لنتحدث عن
ابنتى يلينا مثلا .. ألا ترين أن الوقت قد حان لكى تبدأ
السير بقدم ثابتة فى طريق الزواج ليس هناك ضرر من

التفلسف ولا من القيام بأعمال البر والاحسان ولكن الى
حد محدود والى سن معينة . ولكن حل الوقت لكى تخرج
من هذا الجو الذى تعيش فيه وتنسحب من صحبة هؤلاء
الفنانين والطلبة ، وتصبح كغيرها من الناس .

فسألته أنا فاسيليفنا :

- ماذا تعنى ؟

فأجاب :

- أرجو أن تعطينى الفرصة لأنتهى من حديثى ..
أريد أن أخبرك دون لف أو دوران اننى تعرفت على شاب
اسمه السيد كورناتوفسكى أود أن أزوجه ابنتى . أعتقد
أنك عندما ترينه سوف لا تتهميننى بالتحيز أو التسرع
فى الحكم .. كان ستاكوف معجبا بفصاحته .. وأضاف :
لقد تلقى قدرا ممتازا من التعليم - فهو محام ، حسن
الأخلاق، وقد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ويعمل سكرتيرا
أول ، ومستشارا قانونيا كما أنه يحمل وسام سانت
ستافيسلايس . أعتقد أنك لن تبخلى على بما أستحقه من
ثناء حين تعترفين أننى لست من الآباء الذين يفضون
النظر عن نواحي الامتياز . لقد قلت لى مرة ان يلينا
نيكولايفنا تفضل الرجال الذين يتميزون بايجابية رجال
الأعمال ولا شك أن يجور اندريفتش رجل ممتاز فى مجاله .
كذلك فان ابنتى مهتمة بالأعمال الحيرية .. لذلك فعندما
يصبح يجور اندريفتش رجلا ذا مركز .. أنت تفهميننى
أليس كذلك ؟ ذا مركز يسمح له بأن يعيش معتمدا على

ايراده فانه سيتنازل لاخته عن المساعدات السنوية التي
يدفعها له والده .

فتساءلت :

— وما عمل والده ؟

— والده ؟ والده رجل مشهور أيضا ويستمتع
بصفات خلقية ممتازة . ضابط متقاعد على ما أعتقد وهو
يشرف على ادارة كل ممتلكات الكونت « ب » .

فقلت أنا فاسيليفنا في دهشة :

— أوه !

قال لها ستاكوف :

— أوه ؟ ماذا تعنين بقولك أوه ؟

فقلت أنا فاسيليفنا :

— ولكنني لم أقل شيئا .

— كلا .. لقد قلت « أوه » . لقد رأيت على أى حال

أن أطلعك على نواياي مقدما . وأنا أتق أن السيد
كورناتوفسكى سوف يستقبل استقبالاً ودياً .

— بالطبع .. يجب أن نخطر فانكا الطباخ بأن يعد

طبقاً اضافياً .

— أنا لا أحب أن أتدخل في هذا .

ثم قام ولبس قبعته وخرج الى الحديقة ليتنزّه قليلاً
وهو يصفر بفه . ونظر اليه شوبين من نافذة حجرته
وأخرج لسانه ..

وفى الرابعة الا عشر دقائق وقفت عربة أمام بيت
ستاكوف ونزل منها شاب أنيق يرتدى ملابس بسيطة
ولكنها تنم عن ذوق سليم وطلب أن يعلن عن وصوله .
كان الزائر هو يجور اندريفتش .

وفيما يلي ماكتبته يلينا لانزاروف في اليوم التالي :

تستطيع أن تهنئني يا عزيزى دمترى ، فقد تقدم
الى أحد الحطاب لقد تناول معنا طعام الغذاء بالأمس . كان
والدى قد التقى به فى النادى الانجليزى على ما أعتقد .
لم يحضر بالأمس ، طبعاً ، على انه خطيب ولكن والدتى التى
أسر لها والدى بأمله أطلعتنى على السر . اسمه يجور
اندريفتش كورناتوفسكى . انه السكرتير الأول فى مجلس
الشيوخ . وسأصف لك شكله . قصير بعض الشيء
— فهو اقصر منك — قوى البنيان متناسق التقاطيع ذو
شعر قصير . عينان صغيرتان (كعينيك) عسليتان وشفتان
غليظتان وهناك ابتسامة لا تفارق شفثيه وفى عينيه كأنها
تؤدى عملاً هناك . بسيط يتحدث بوضوح وكل ما فيه
متميز : يسير ويضحك ويأكل وكأنه يعمل . ربما قلت
لنفسك « لقد درستة جيداً » . نعم .. درستة جيداً لكى
أتمكن من وصفه لك وعلاوة على ذلك فلا بد للانسان أن
يعرف خطيبه . وهناك شيء كالحديد فيه — شيء كثيب
وسطحي — يقولون عنه انه مخلص . انت أيضاً تشبه
الحديد ولكنه شبه مختلف . وقد جلس الى جوارى أثناء
الغداء وجلس شوبين فى مواجهتنا . وجرى الحديث فى

أول الأمر حول المشروعات التجارية وأعتقد انه يعرف الكثير عنها ، لقد ترك العمل فى الوظائف الحكومية ليدير مصنعا كبيرا . ثم تطرق السيد شوبين بعد ذلك بالحديث الى ذكر المسرح . وصرح المستر كورناتوفسكى . . دون تواضع مفتعل - ان الفن بالنسبة له يعتبر كتابا مغلقا . وذكرنى ذلك بك ولكننى قلت لنفسى « دمترى وأنا نهجمل الفن ولكن على نحو آخر » كان هذا الرجل يبدو وكأنه يقول : اننى لا أعرف شيئا عن الفن وهو شىء لا لزوم له ، ولكن من الممكن أن يسمح به فى دولة جيدة التنظيم . وعلى كل يبدو انه لا يفكر كثيرا فى بطرسبرج بل لقد وصف نفسه بأنه بروليتارى فقال : نحن لسنا أكثر من عمال . وقلت لنفسى : لو أن دمترى قال ذلك لما أعجبنى ولكننى لا أهتم بما يقوله هذا الرجل ولا يهمنى أن يتباهى بنفسه . كان مجاملا الى حد كبير ولكننى كنت أشعر رغم ذلك ان محدثى شخص مترفع . وعندما يريد أن يمدح شخصا فانه يقول ان فلانا « له مبادئ » وهى جملة من جملة المفضلة . واثق من نفسه ، كثير الانتاج ، فيما يبدو ، ولديه مقدرة على التضحية أى التضحية بمصالحه الخاصة ولكنه طاغية كبير . ولا شك أن من الأمور السيئة جدا أن يقع الانسان بين يديه . وقد تطرق الحديث أثناء الغداء عن الرشوة فقال :

- أعتقد أن المرتشى غير ملوم فى كثير من الحالات لانه ليس فى وسعه أن يفعل غير ذلك . . ورغم ذلك فانه اذا قبض عليه متلبسا فلا بد أن يسحق .

فصدرت عنى صرخة . . وقلت :

- يسحق . . وهو البرىء !

فقال :

- نعم . . تمشيا مع المبدأ .

فقال له شوبين :

- أى مبدأ ؟

وهنا اعترى كورناتوفسكى شىء من الدهشة . .

فقال :

- ليس هناك ما يدعو لتوضيح هذا .

وهنا قال أبى الذى كان يشعر نحوه باحترام شديد

انه يعتقد فعلا انه لا لزوم لذلك وصرف النظر عن الموضوع .

وفى المساء حضر برزنيف وأثار معه مناقشة رهيبة . ولم

أر فى حياتى أندريا بتروفتشث نائراً بهذا الشكل . ولم

ينكر السيد كورناتوفسكى أهمية العلوم والجامعات وفائدتها

ولكننى كنت أعرف السبب فى ثورة السيد أندريا بتروفتشث

فان الآخر كان يعتبرها شيئا كماليا . وقد جاء لى شوبين

بعد الغداء . . وقال : هذا الرجل والرجل الآخر (انه

لا يتحمل أن يذكر اسمك) كلاهما رجل عملي ولكنهما

مختلفان . فالعمل بالنسبة لأحدهما مثل أعلى وأصيل تقدمه

به الحياة نفسها بينما هو بالنسبة لهذا الرجل أمر يتوقف

على أمانة الموظف . انه كفاءة بلا روح .

ان شوبين لم يح ذكى وقد ذكرت لك ما قاله ولكننى

فى الحقيقة لا أظن ان هناك أى تشابه بينكما . فانت تؤمن
أما هو فلا يؤمن ، والانسان لا يجب أن يؤمن بنفسه فقط .
وقد غادرنا الزائر فى ساعه متأخرة وحاولت والدتى أن
تفهمنى انه أعجب بى وان أبى مسرور بذلك ولا أدرى ان
كان قد قال عنى أنا الأخرى اننى ذات مبادئ . وقد هممت
بان أقول لوالدتى اننى اسفه لان لدى زوجا بالفعل .
لا أدرى لماذا لا يحبك والدى . أما والدتى فمن الممكن
اقتاعها بطريقة أو بأخرى .

لقد وصفت لك ياعزيزى هذا الرجل بهذه التفاصيل
لكى أتغلب على حزنى . لا حياة لى بدونك وأنا أراك
وأسمعك دائما . اننى فى انتظارك ولكن ليس فى هذا
المنزل كما اقترحت - ويمكنك أن تتخيل مدى ما يسببه
هذا لنا من صعوبة وألم- ولكن فى ذلك المكان الذى كتبت
لك عنه - ذلك الكوخ - ياعزيزى ، كم أحبك ..

- ٢٣ -

بعد ثلاثة أسابيع من زيارة كورنا توفسكى الأولى
عادت أنا فاسيليفنا الى موسكو . الى بيتها الخشبي الكبير
بالقرب من شارع برينتشيستينكا وهو بيت ذو أعمدة تعلو
نوافذه الأزهار وبه حجرة صغيرة فوق السطح واستراحات
وحديقة أزهار وفناء كبير زرعت فيه الأشجار وبئر فى

الغناء الخارجى وكوخ للكلب بالقرب من البئر . لم يحدث
أن عادت أنا فاسيليفنا الى المدينة بهذه السرعة . ولكن برد
الخریف أصابها بوعكة صحية . وقد افتقد ستاكوف
زوجته بعد أن انتهى من العلاج لا سيما وأن أوجاسيتا
كريستيانوفا كانت قد رحلت الى ريفال لزيارة بعض
أقاربها . وكانت قد وصلت الى موسكو فرقة أجنبية
قدمت عروضاً مثيرة أثار وصفها فى الصحف حب استطلاع
أنا فاسيليفنا . وباختصار فإن البقاء فى الريف أكثر من
ذلك لم يعد مرغوباً فيه ولم يعد يتفق مع ما أطلق عليه
ستاكوف وصف «مشروعاته» . أحسنت يلينا ان الاسبوعين
الآخرين كانا طويلين جداً . وقد زارهم كورنا توفسكى
مرتين فى يومين من أيام الآحاد لانشغاله باقى الايام . ومع
انه كان يأتى لزيارة يلينا الا أن معظم حديثه كان مع زويا
التي أعجبت به كثيراً .

كانت زويا على ثقة - انه ليس هناك من له صوت
كصوته الرائع وهو يتحدث .

أما انزاروف فانه لم يذهب لزيارة عائلة ستاكوف
ولكن يلينا قابلته خفية فى كهف صغير يطل على النهر ولم
يسمح لهما الوقت الا بتبادل بضغ كلمسات . وقد عاد
شوبين الى موسكو مع أنا فاسيليفنا ثم تبعهم برزنيف بعد
بضعة أيام .

كان انزاروف يجلس فى حجرته وهو يقرأ للمرة

الثالثة خطابات وصلته من بلغسارياً مع بعض الرسل
الهابرين حيث أنه لم يكن من المرغوب فيه استعمال البريد .
وأزعجته الخطابات فقد تحولت الاحداث في الشرق تحولا
سريعا . كان احتلال القوات الروسية لمقاطعة الدانوب قد
سبب قلقا عاما . وكانت العاصفة تتجمع كما أصبحت الحرب
وشبكة الوقوع . كانت الحرائق تندلع في كل مكان ولم
يكن هناك من له القدرة على تعرف الاتجاه الذي ستتخذه
النيران ولا الى أين ستنتهي وظهرت الاحقاد القديمة كما
ظهرت الآمال القديمة مرة أخرى . وأخذ قلب انزاروف
يدق بعنف متزايد . ان آماله في طريق التحقيق ولكنه
تساءل في قلبه : ألم يزل الوقت مبكرا ؟ وما الذي يحدث
إذا فشلت الخطة ؟ اننا لم نستعد بعيد . ولكن ليكن
ما يكون . لا بد أن أذهب . ثم سمع وقع اقدم في المر
وفتح الباب ودخلت يلينا فاندفع اليها انزاروف وقد
أخذته رعشة من رأسه الى قدميه . وركع على ركبتيه أمامها
ولف ذراعيه حول وسطها وضغط برأسه على جسدها .

وقالت له وهي تلهث :

— لم تكن تتوقع مجيئي اليس كذلك ؟ ثم وهي تضع
يديها على رأسه وتنظر حولها : هذا اذن مسكنك يا عزيزي !
لم أجد صعوبة في الاستدلال عليك فقد دلتني ابنة صاحب
البيت على الطريق . لقد عدنا منذ أيام وفكرت في الكتابة
اليك ولكنني غيرت رأبي وفضلت أن احضر لرؤيتك .

لا أستطيع البقاء أكثر من ربع ساعة انهض واغلق الباب
بالمفتاح . فقام وأغلق الباب بخفة ثم عاد اليها وأمسك
يديها ولكنه لم يستطع أن يتسحدث من فرط ما غمره من
سرور .

ونظرت الى عينيها وهي تبتسم ورائها تفيضان
بالسعادة . . . فقالت له بلطف وهي تسحب يديها :

— انتظر . دعني اخلع قبعتي . . .

وفكت شرائط قبعتها وألقت بها بعيدا كما نزع
الشمال الذي كان يغطي كتفيها وجلست على الاريكة
الصغيرة . ولم يتحرك انزاروف بل أخذ ينظر اليها مأخوذا .
فقالت له وهي تشير الى المكان المجاور لها ولكن دون
أن تنظر اليه : اجلس . . .

وبسلا من أن يجلس على الاريكة جلس على الارض
عند قدمها .

وقالت له بصوت مرتعش وقد بدأت تشعر بالخوف :

— انزع عنى هذا القفاز .

فمك أضرار القفاز وبدأ ينزعه . وعندما تبدت
اصابعها ألصق شفتيه باليد الرقيقة . . .

ففزعت يلينا وحاولت أن تبعد عنها برفق بيدها
الآخري ، ولكنه بدأ يقبلها . فسحبتها يلينا ثم ألقى هو
برأسه الى الخلف ، ونظرت هي في وجهه وانحنى الى الامام

والتيقت شفتاهما .. ومضت لحظة ثم ابتعدت عنه وهي
تهمس قائلة : كلا ! كلا ! ثم اتجهت بسرعة الى المائدة
وقالت :

— أنا سيدة هذا المكان — اليس كذلك ؟ يجب الا
تجفنى عنى أى شيء .

ثم أدارت له ظهرها .. وقالت :

— ما أكثر الاوراق التى لديك . وما هذه الخطابات ؟

فقطب انزاروف ما بين حاجبيه وقال وهو ينهض :

— الخطابات ؟ تستطيعين قراءتها .

فقلبتها يلينا فى يديها ثم قالت :

— انها كثيرة جدا كما انها مكتوبة بخط بالغ الدقة

لا بد أن أنصرف سريعا . سأترك هذه الخطابات وأرجو ألا
تكون قد تلقيتها من منافسة لى . لم لا أراها مكتوبة باللغة
الروسية ؟

واقترب منها انزاروف ومس خصرها فاستدارت
بسرعة وابتسمت له ابتسامة تفيض بالسعادة واتكأت على
كتفه .

قال لها :

— هذه الخطابات من بلغاريا يايلينا .. أصدقائي

يستدعوننى .

— يستدعونك الآن ؟

— نعم الآن ولا يزال هناك متسع من الوقت والطريق
لا يزال مفتوحا .

وفجأة ألقت ذراعيها حول عنقه وقالت :

— ستأخذنى معك اليس كذلك ؟

فضمها الى صدره .. قائلا :

— يا فتاتى الرائعة . يابطل . ما أحلى هذه الكلمات

التى خرجت من فمك . ولكن اليس من الاجرام ومن الجنون

ان أجرك وأنا رجل ضال وحيد . معى الى مكان كهذا .

فاغلقت فم يديها وقالت :

— صه ! والا سأغضب منك ولا أعود . ألم تتفق ؟ ألم

نسو كل شيء بيننا ؟ ألسنت زوجتك ؟ وهل هناك زوجة

تتخلف عن زوجها ؟

فقال لها :

— الزوجات لا يذهبن للاشتراك فى الحرب .

— هذا اذا كان من الممكن أن يبقين فى البيت . ولكن

كيف أستطيع البقاء هنا ؟

— انت ملاك يايلينا . ولكن يجب ألا تنسى أتتى قد

أضطر لمفادرة موسكو — خلال أسبوعين . ان حضور

المحاضرات فى الجامعة أو انتهاء مهمتى هنا أصبحت أشياء

لا مجال للحديث فيها الآن ..

فقاطعته يلينا قائلة :

- تقول انك لا بد أن ترحل سريعا هل تريدني أن أبقى معك من هذه اللحظة والى الأبد والا أعود لبيتي أبداً؛
لنسافر الان اذا أردت فضعها انزاروف أنثر الى صدره
وقال لها :

- ليعاقبني الله اذا ارتكبت معصية • ومنذ الآن
فنحن مرتبطان الى الأبد •

وسالت يلينا :

- هل أبقى ؟

فقال :

- كلا يا فتاتي الطاهرة • لا بد أن تعودى الى البيت •
ولكن كوني على استعداد • لن نستطيع تسوية هذا
الموضوع بهذه السرعة بل لا بد لنا أن نفكر فى كل شيء
ونحن نحتاج لجوازات سفر ولنقود ••

قالت يلينا :

- لدى بعض النقود • ثمانون روبلا ••

فقال انزاروف :

- هذا ليس مبلغا كبيرا على أن من الممكن تدبير أمر

النقود •

- اننى أستطيع الحصول على قدر أكبر من المال •
ويمكننى أن أقترض أو أن أطلب من والدتى بعض المال •
كلا لن أطلب منها شيئا ولكننى أستطيع أن أبيع ساعتى •
كما ان عندى قرطا وسوارين وأشياء أخرى ثمينة •

- النقود ليست هى المشكلة يا يلينا •• المشكلة فى
جواز سفرك •

- صحيح • ولكن أمن الممكن بالنسبة لى الاستغناء
عن جواز السفر ؟

- كلا بالطبع •

فضحكت يلينا وقالت : تذكرت شيئا • فعندما كنت
فتاة صغيرة هربت خادمتنا ولكن أمكن القبض عليها
وصفحنا عنها ، وعاشت معنا فترة طويلة بعد ذلك • رغم
هذا كنا نطلق عليها اسم تاتيانا الهاربة ولم يخطر لى فى
ذلك الوقت أننى قد أكون انا الاخرى هاربة مثلها ذات
يوم •

- الا تشعرين بالحجل من نفسك يا يلينا ؟

- ولماذا أخجل من نفسى ؟ لا شك انه من الأفضل
أن يكون لدى جواز سفر • ولكن اذا لم استطع الحصول
على جواز ••

فقال :

- سنهتم بهذه المسألة فيما بعد • اعطنى فرصة لكى
أدرس الموقف وأفكر فى الموضوع • سوف نناقش كل
شيء بالتفصيل اما فيما يختص بالنقود فان لدى بعض
المال •

وهنا رفعت يلينا خصلة الشعر التى تددت على
جبهته ثم قالت له :

- أوه يا دمترى ! ستكون متعة أن نسافر معا .
فقال انزاروف :

- نعم ولكن عندما نصل هناك -
فقاطعته يلينا قائلة :

- الا يكون موتنا معا هو الآخر متعة ؟ ولكن لماذا
تحدث عن الموت ؟ سنعيش ، فنحن لا نزال فى شرح
الشباب . كم عمرك ؟ ألسنت فى السادسة والعشرين ؟
- نعم .

- اننى فى العشرين . ولا يزال امامنا وقت طويل .
كنت تريد أن تهرب منى إليها البلغارى . لم تكن تريد
حببية روسية . والآن أرنى كيف تستطيع أن تتخلص
منى . ولكن ما الذى كان سيحل بنا لو لم أخرج لمقابلتك
فى ذلك اليوم ؟

- هل تعلمين ما الذى جعلنى اتركك ؟

- نعم . كنت خائفا من حبيبتك . ولكن ألم يكن
لديك احساس انها هى الاخرى تجبك ؟

- كلا واقسم على هذا بشرفى .

فقبلته قبلة خاطفة على غير انتظار وقالت :

- هذا هو ما جعلنى أحبك . والآن الى اللقاء . . .

فقال لها انزاروف :

- الا تستطيعين البقاء أكثر من ذلك ؟

- كلا يا عزيزى . هل تعتقد ان خروجى بمفردى
كان أمرا سهلا ؟ لقد انقضى ربع الساعة منذ مدة . ثم
وضعت شالها على كتفها وليست قبعتها وقالت له :
- تعال لزيارتنا مساء الغد - أو لعل الافضل أن
تحضر بعد غد . ستكون زيارة ثقيلة لا بهجة فيها ولكننا
على الاقل سنرى احدنا الآخر . والآن الى اللقاه ودعنى
أخرج . واحتواها بين ذراعيه مرة أخيرة . . . فقالت له :
لقد قطعت عقدى يا عزيزى ولكن لا يهمك فهذا أحسن لاننى
سأذهب الى كوزنتسكى لاصلاحه . واذا سألونى أين كنت
فسأقول اننى ذهبت اليه لاصلاح العقد . ثم مدت يدها
وأمسكت مقبض الباب وقالت :

- نسيت أن أخبرك ان السيد كورناتوفسكى قد
يأتى قريبا ليطلب يدى ولكنه لن ينال ما يريد . الى اللقاء .
اننى الآن أعرف الطريق لا تضيع وقتك .

ثم فتحت يلينا الباب قليلا وانصتت ثم التفتت الى
انزاروف وحيته برأسها وانسلت خارجة . . .

ووقف هو أمام الباب المفلق لحظة وهو ينصت حتى
سمع الباب الخارجى يفلق فسار عائدا الى الاريكة وجلس
وغطى عينيه بيديه . انه لم يمر بمثل هذه التجربة طوال
حياته . وقال لنفسه : ما الذى فعلته أنا لأستحق هذا
الحب ؟ أو لعل فى حلم ؟

ولكن رائحة عطر الياسمين الذى تركته يلينا فى

حجرته الصغيرة المعتمة ظلت تذكره بزيارتها وبصوتها الرقيق وبخطواتها الوثيدة وبدفء جسدها الشاب ونضرتة .

- ٢٤ -

قرر انزاروف أن ينتظر حتى يحصل على معلومات أكثر دقة ، ولكنه كان في نفس الوقت يعد العدة للرحيل . لم يكن شيء يقف في طريقه فما كان عليه الا أن يقدم طلبا للحصول على جواز سفر ولكن ماذا يفعل بخصوص يلينا ؟ كان من المتعذر الحصول لها على جواز سفر بالطريقة القانونية : وسأل نفسه : هل يتزوجها في السر ثم يذهب الى والديها وهل سيصرحان لنا بالسفر ؟ ولكن ما الذي يحدث اذا لم يصرحا ؟ سنسافر رغم ذلك . ولكنهما قد يقدمان شكوى للسلطات . من الافضل أن أحاول الحصول على جواز سفر بطريقة أو أخرى .

وقرر أن يستشير أحد معارفه ، وهو من رجال القانون المتقاعدين وخبير بمثل هذه المسائل ودون ذكر أسماء . كان هذا الرجل يعيش في منطقة بعيدة استغرق وصول انزاروف اليها ساعة كاملة . ولكنه لم يجده في بيته . تعرض انزاروف عند عودته لمطر غزير بلبل ملابسه . وكور نفس المحاولة في اليوم التالي رغم شعوره بصداغ

شديد وتمكن من مقابلة الرجل الذي انصت إليه باهتمام وكان ينظر اليه من ان لآخر بعينين صغيرتين مكرتين . وبعد أن استمع اليه جيدا طلب منه تفاصيل أكثر . ولكنه لما لمس عدم استعداد انزاروف للادلاء بأية تفاصيل نصحه بأن يتزود بقدر كبير من المال ويحضر لزيارته مرة أخرى عندما يكون « أكثر ثقه وأقل شكاً » أما جواز السفر فقد قال عنه انه شيء من صنع الانسان . ثم قال لنفرض ان هناك سيده مسافرة فمن الذي يستطيع أن يعرف ما اذا كانت هي ماريا يريد كينا أو كارولين فوجلير . وشعر انزاروف بالاشمئزاز ولكنه شكر الرجل ووعدته بالعودة خلال يومين .

وزار انزاروف بيت ستاكوف في هذا المساء . ورحبت به انا فاسيليفنا ولكنها عاتبته لانه نسيهم . ولما رأت وجهه شاحبا سألته عن صحته . أما ستاكوف فلم ينبس بكلمة بل ظل ينظر اليه في شيء من التعجب . وأما شسوپين فلم يعبا به . ولكن يلينا أدهشته . كانت في انتظاره وقد ارتدت من اجله ذلك الرداء الذي كانت ترتديه يوم أن تقابلا في الكوخ ولكنها حيتته باتزان كما اظهرت ظرفا ومرحا ولم يكن أحد يشك ان مصيرها قد تحدد وأن الحيوية التي اكتست بها ملامحها والخفة والسحر الباديين في كل حركاتها كانت كلها نتيجة لاحساس خفي بالحب السعيد . وقامت يلينا بتوزيع الشاي بدلا من زويا . كانت تضحك وتتحدث . وكانت تعلم ان شوبين يراقبها وان

برزنييف لايمكنه أن يتظاهر بعدم الاهتمام . وكان تخمينتها صحيحا فقد ظل شوبين يراقبها بينما كان برزنييف منحرف المزاج قليل الكلام طوال المساء . وكانت يلينا فى حالة من السعادة جعلتها تفكر فترة فى مذاعبته . فسألته فجأة :

— ما الذى حدث لمشروعك؟ هل أحرزت فيه أى تقدم؟

فوجيء انزاروف وقال :

— أى مشروع ؟؟

ف قالت وهى تضحك فى وجهه ضحكة من ضحكاتها التى لم يكن يعرف معناها الا هو . . .

— اعنى كتاب القراءة الذى تنوى عمله باللغة البلغارية

للروس .

فتمتم قائلا بالفرنسية :

— يالها من دعاية !

وجلست زويا أمام البيانو . وأشارت يلينا الى الباب بعينيها تطلب الى انزاروف ان ينصرف . ثم دقت على المنضدة . دقتين خفيفتين بأصبعها ونظرت اليه ففهم انها تسعى للقائه بعد يومين وابتسمت عندما تبينت انه فهم . ونهض انزاروف لكى يخرج متذمرا ببعض التعب . وهنا حضر كورنا توفسكى ، فقفز ستاكوف من مكانه وصافحه باحترام بالغ . ورأى انزاروف أن يبقى بضع لحظات ليرى غريمه . ولم ير صاحب المنزل ما يستدعى تقديم

الرجلين أحدهما للآخر وخرج انزاروف بعد أن تبادل نظرة أخيرة مع يلينا . وجلس شوبين يفكر برهة ثم بدأ مناقشة عنيفة مع كورنا توفسكى حول مشكلة قانونية لا يعرف عنها شيئا .

لم يذق انزاروف النوم فى تلك الليلة وأحس بالتعب فى الصباح . . . ورغم ذلك فقد جعل ينظم أوراقه ثم كتب عددا من الخطابات رغم انه كان يشعر بثقل فى رأسه وبشيء من الاضطراب .

وعندما حلت الظهيرة كانت الحمى قد تملكته فلم يستطع أن يتناول الطعام . وباقتراب الليل زادت حالته سوءا كما هاجمته الام روماتزمية بعنف . فضلا عن الصداع الذى لا يطاق . ورقد على الأريكة حيث كانت يلينا تجلس منذ يومين وقال لنفسه : اننى استحق هذا فقد أخطأت بالذهاب الى ذلك الأفاق . وحاول أن ينام ولكن دون جدوى . . . أخذت عروقه تندق بشدة وكاد الدم يغلى فى عروقه وفى غمرة من الأفكار غير المستقرة فقد وعيه . كان يرقد مستلقيا على ظهره وكأنه تحت ثقل كبير . وخيل اليه أنه يسمع شخصا يضحك ويهمس فوق رأسه ففتح عينيه ولكن ضوء الشمعة اذى عينيه . خيل اليه انه يرى رجل القانون العجوز فى رداء حريرى كما رآه فى اليوم السابق وهو يقول : « كارولين فوجلير » . وعندما دقق انزاروف النظر فيه أخذ الرجل ينتفض ثم

فقال الرجل وهو يتحدث ببطء وينقل ثقله من قدم
الى اخرى ويحرك يده اليمنى :

- لابد ان اتحدث اليك يا سيدي . انني لا ادرى
ما الذي حل بالسكان الذي يسكن عندي - انه مريض
جدا .

- تعنى انزاروف ؟

- نعم يا سيدي . فقد ظل مستيقظا طوال الليل
حتى الصباح وعند المساء طلب كوبا من الماء وقد اعطته
زوجتي الماء ولكنه بدأ يهذى في الليل وكنا نسمع هذيانه .
اما هذا الصباح فقد كف تماما عن الكلام ورقد بلا حراك
وقد ارتفعت درجة حرارته كثيرا . فقلت لنفسي ان هذا
الرجل قد يموت في أى لحظة ومن الافضل اخطار البوليس
لانه وحيد . ولكن زوجتي طلبت مني ان احضر اليك
لاخطارك فحضرت اليك يا سيدي لاننا لا نستطيع - .

فخطف برزنيف قبعته ووضع روبلا في يد الرجل
واسرعا سويا الى حجرة انزاروف .

ووجد انزاروف فاقد الوعي راقد ابدلته على
الاريكة وقد تغير وجهه تغيرا كبيرا فطلب برزنيف الى
الرجل وزوجته ان يخلعا ملابس انزاروف ويحملاه الى
الى فراشه واسرع هو بالخروج لاجتار الطبيب الذي جاء
ووصف له العلاج اللازم .

تحول الى شجرة خيل اليه انه يتسلق جذعها المائل .
وتسلقها وهو يمسك بفروعها ولكنه سقط وارطم صدره
بصخرة على الارض ، بينما كانت كارولين فوجلمير في
شكل بانعة في السوق تجلس على الارض وهي تقول :
فطائر ! فطائر ! فطائر ! ثم اندفع الدم الى رأسه ورأى
وميضا امام عينيه وصاع قائلا : يلينا - ثم غاب عن
وعيه .

- ٢٥ -

في مساء اليوم التالي جاء خادم برزنيف لسيدة
وقال له :

- بالباب شخص يبدو عليه مظهر الحداد يريد
مقابلتك .

فقال له برزنيف .

- دعه يدخل .

ودخل الرجل وعرف برزنيف انه صاحب الحجرة
التي يسكنها انزاروف .

فسأله برزنيف .

- ماذا وراك ؟

سأله برزنيف :

- هل الحالة سيئة ؟

- فأجاب الطبيب : نعم ، سيئة جدا ، انه مصاب
بالتهاب رئوى حاد وقد يؤثر هذا على عقله . وقد أرسلتكم
في استعدائي متأخرين ولكننى سأفعل كل ما فى مقدورى .
وبقى برزنيف الى جواره طول الليل . واطهر صاحب
البيت وزوجته كثيرا من الطببة والاستعداد لمد يد العون .
استرد انزاروف وعيه فى الصباح بضع دقائق .
وتعرف على برزنيف وسأله قائلا : انا مريض ، اليس
كذلك ؟ ونظر حوله نظرات زائفة ثم راح فى غيبوبة .
وعاد برزنيف الى بيته واغتسل ثم اخذ معه بعض الكتب
وعاد الى حجرة انزاروف . وقرر أن يبقى فيها بصفه مؤقتة
على الأقل . وأمر بان يوضع ستار حول فراش انزاروف
وأعد لنفسه مكانا على الأريكة . وأخذت الساعات تمر
بطيئة مملة . ولم يخرج برزنيف الا مرة واحدة ليتناول
بعض الطعام . وعندما حل المساء أضاءة شمعة وبدأ يقرأ .
كان كل شيء هادئا فى الحجرة . وكان يسمع من خلف
الستار انفاس انزاروف ثقيلة تتخللها من آن لآخر انات
مقطعة . وكانت تتوالى فى رأس برزنيف أفكار غريبة .
فقد كان فى حجرة رجل علقت حياته بخيط رفيع وكان
موضع حب يلينا . تذكر تلك الليلة التى لحق به فيها

شويين وأخبره انها تحب انزاروف ثم سال نفسه : والآن
ماذا أفعل ؟ هل اخطر يلينا بمرضه او انتظر ؟ هذا الخبر
أسوأ من الخبر الذى نقلته اليها ذلك اليوم . ما اغرب هذا
القدر الذى يضعنى بينهما .

وقرر أخيرا أن ينتظر . ووقع بصره على اكوام
الأوراق المكسنة على مكتبه ، فتساءل : هل سيتمكن من
تنفيذ مشروعاته ؟ ارجو الا تكون هذه نهاية كل شيء .
وشعر بالأسف نحو هذا الشاب وقرر أن يفعل كل ما
يستطيع لانقاذه .

وجاء الليل ثقيلًا وكان المريض يهدى . واستيقظ
برزنيف عدة مرات وكان يسير على اطراف أصابعه الى
فراش انزاروف ويستمع الى هذيانه قال انزاروف ذات مرة
بوضوح غير منتظر : اننى لا أريده . . . لا أريده . . .
لاتفعل .

ونظر برزنيف بقلق الى انزاروف الذى تقلص وجهه
من الألم . وكانت يده ممدودتين على الفراش بلا حراك .
ثم قال مرة أخرى : لا أريده .

وفى الصباح حضر الطبيب مرة أخرى ونظر الى
المريض وهز رأسه ووصف دواء جسديدا . ثم قال وهو
يضع قبعة على رأسه وينصرف : لا يزال هناك وقت طويل
حتى تنتهى الأزمة .

ثم سألته برزئيف :

وماذا بعد الأزمة ؟

بعد الأزمة ، اما كل شيء او لا شيء .

وخرج الطيب . وأخذ برزئيف ، وقد أحس بالحاجة لبعض الهواء المنعش ، يسير في الطريق جيئة وذهابا بعض الوقت ثم عاد الى الحجرة واستأنف القراءة . كان قد انتهى من قراءة رومير من وقت طويل وأخذ يدرس جروت . وفجأة فتح الباب بهدوء وأطلت منه ابنة صاحب المنزل بحذر ، وقالت لقد حضرت تلك الفتاة التي اعطتني بعض النقود منذ بضعة أيام .

وتراجعت البنوت ودخلت يلينا .

فقفز برزئيف وكان قد لدغته عقرب ولكن يلينا لم تتحرك ولم تصرخ ويبدو انها فهمت كل شيء بسرعة . وعلا وجهها شحوب غريب وسارت ناحية الفراش ونظرت خلف الستار وكانت على وشك أن تندفع الى انزاروف ولكن برزئيف حال بينها وبينه . وسألها في همس : ماذا تريدن أن تفعلن ؟ انك قد تقضين عليه . وترنحت ولكنه صحبها الى الاريقة وأجلسها .

فحملت في وجهه ثم نظرت الى الأرض وقالت له :

هل هو يحتضر ؟

فقال لها :

بحق السماوات يا يلينا كيف تقولين هذا ؟

انه مريض ومرضه خطير ولكننا سنتنقذه . انا على

ثقة من أننا سنتنقذه .

فسألته :

هل هو فاقد الوعي ؟

نعم . بصفة مؤقتة ، فان هذا المرض يبدأ دائما

هكذا ، ولكن هذا لا يعنى شيئا ، صدقيني . خذى هذا

الكوب من الماء واشربى . فرفعت عينيها وتنبه الى انها لم

تسمعه .

ثم قالت له بنفس الصوت الهادى :

اذا مات فساموت أنا أيضا .

واصدر انزاروف ايننا خافتا فارتعشت يلنا وامسكت

رأسها بيديها ثم بدأت تفك شرائط قبعتها .

وسألها برزئيف :

ماذا تفعلين ؟

سابقى هنا .

الى متى ؟

لا ادرى . ربما ابقى حتى المساء أو حتى الصباح

أو ربما الى الابد - لا ادرى .

- ارجو يا يلينا نيكولايفنا أن تفسكري فيما أنت
مقدمة عليه . انا طبعاً لم أكن أتوقع أن أراك هنا . ولكنني
اعتقد أنك حضرت لزيارة قصيرة . ولا تنسى أنهم قد
يفتقدونك في البيت .

- وماذا في ذلك ؟

- سيبدؤون في البحث عنك وسيعثرون عليك .
- وماذا في ذلك ؟

- الا ترين يا يلينا نيكولايفنا انه لا يستطيع حمايتك
الآن .

فطاطات رأسها كأنها قد استغرقت في تفكير عميق،
ووضعت مندبلها على شفتيها ثم انفجرت في البكاء بشدة
والقت بنفسها على الارىكة ووجهها لأسفل وهي تحاول أن
تكتم صوت بكائها . . ولكن جسدها كان يهتز كله .

فقال لها برزنيف وهو يقف الى جوارها :

- استحلفك بالله يا يلينا نيكولايفنا .

وفجأة تردد صوت انزاروف وهو يقول : آه . .
ما هذا ؟

فاعندلت يلينا ووقف برزنيف جامدا ولكنه بعد
لحظة اقترب من الفراش ورأى انزاروف يرقد كما كان
وعيناه مغلقتان . .

وهمست يلينا قائلة :

- هل هو يهنى ؟

فاجابها برزنيف قائلاً :

- أعتقد ولكن هذا لا يهم فهذا ما يحدث دائماً
وخاصة اذا . . .

فقاطعته يلينا قائلة :

- ومتى مرض ؟

- أول أمس ، وقد جئت الى هنا أمس ولك أن تعتمدى
على يا يلينا نيكولايفنا . سوف لا أتركه لحظة واحدة
وسأفعل المستحيل لمساعدته سأجمع الاطباء له فى مجلس
استشارى اذا لزم الأمر . .

فقالت له :

- قد يموت وأنا غير موجودة .

- أعد بأن أحيطك علماً بحالته يومياً واذا وجدت أن
هناك خطراً حقيقياً -

- أقسم أن ترسل فى طلبى فى أى وقت فى الليل
أو فى النهار .

ويمكنك أن تكتب لى مباشرة فلم يعد هناك ما يهمنى
الآن . هل تعدنى أن تفعل .

- أعدك . وليساعدنى الله .

- أقسم .

- أقسم .

وفجأة أمسكت بيده وقبل أن يتمكن من أن يسحبها

قبلتها .

فقال مأخوذا :

- كيف تفعلين هذا يا يلينا نيكولايفنا ؟

- كلا ! كلا ! لا تفعلى هذا ثم سسحب يده وتنهده

تنهيدة حزينة .

وتقدمت يلينا من الستار وهي تعض على مندبها

ونظرت الى المريض طويلا والدموع تنهمر من عينيها . .

فقال لها برزنيف .

- قد يفيق ويعرفك ولا يعرف الا الله ان كان هذا

فى صالحه أم لا .

وعلاوة على ذلك فان الطبيب على وشك الوصول فى

أى لحظة .

فالتقطت يلينا قبعتها من فوق الأريكة ولبستها .

وأخذت عيناها لتحولان فى الحجرة بنظرات زائفة وهي

نهبة للأفكار . وأخيرا قالت :

- لا أستطيع أن أذهب .

فضغط برزنيف على يدها وقال لها :

- تشجعى وهدئى من روعك . أنك تتركينه فى

رعايتى وسأزورك مساء اليوم .

فنظرت اليه يلينا وقالت :

- يا لك من صديق رائع .

ثم خرجت وهي تبكى . .

واتكا برزنيف على الباب وقد اعتصر قلبه احساس

بالحزن والمرارة وان لم يخل من بعض الراحة . وفكر فيما

قالته « يا لك من صديق رائع » ثم هز كتفيه .

وهنا سمع صوت انزاروف وهو يقول :

- من هناك ؟

فذهبت اليه برزنيف وقال له :

- هذا أنا يا دمترى نيكاتوروفتش . هل هناك ما

أستطيع أن أعمله لك ؟ كيف حالك الآن ؟

- هل أنت بمفردك ؟

- نعم .

- وأين هي ؟

- هي ؟ من تقصد ؟

ولم يجب انزاروف فى الحال . ثم قال وهو يهمس :

عطر الياسمين ، وأغمض عينيهِ من جديد .

فاسيليفنا مشغولة بمرضها وكان شوبين يعمل بكل نشاط وكانت زويا مشغولة بأفكارها الحزينة ، وكان ستاكوف يعارض بشدة زيارة « الطلاب » المتكررة لا سيما وان مشروعاته المتعلقة بكونرنا توفسكى لم تكن تحرز أى تقدم ولم تقدم يلينا الشكر لبرزنيف فان هناك من الخدمات ما يشعر الانسان بالهجل من تقديم الشكر عليه . وقد ذكرته بقسمه ووعده مرة واحدة وذلك نفي زيارته الرابعة لها وكان انزاروف قد أمضى ليلة سيئة . وقال لها :

- حسنا هيا بنا . فبدأت ترتدى ملابسها للخروج ولكنه استدرك قائلا لها :

- كلا .. لنتنظر للغد وقد تحسنت حال انزاروف عند المساء ..

واستمر هذا العذاب ثمانية أيام . وكانت يلينا تبدو هادئة ولكنها لم تكن تتذوق طعاما ولا نوما وكانت اطرافها ورأسها تؤلمها كثيرا .

وأخيرا جاء التحسن فى اليوم التاسع . كانت يلينا تجلس فى حجرة الجلوس بجوار أنا فاسيليفنا تقرأ بصوت مرتفع دون أن تعى ما تقرأه حين دخل برزنيف . ونظرت اليه يلينا - وكانت بنظرها الأولى اليه كل مرة نظرة سريعة حادة قلقة - ورات فى الحال انه يحمل اخبارا طيبة . فقد

ظل انزاروف يتأرجح بين الحياة والموت ثمانية أيام كاملة . وكان الطبيب يتردد عليه كثيرا فقد كان صغير السن وكان مهتما بحالته وحضر شوبين بعد أن سُمع بحالة انزاروف الخطيرة لزيارته . كما حضر لزيارته مواطنوه البلغار يون وقد عرف برزنيف من بينهم الرجلين الغربيين اللذين فوجيء بزيارتهما غير المتوقعة فى الكوخ . وكان الجميع يعربون عن أسفهم . وعرض بعضهم أن يحل محل برزنيف فى العناية بأمر انزاروف ولكن برزنيف لم يقبل متذكرا وعده ليلينا . وكان يراها كل يوم ويبلغها سرا - اما كتابة أو بالكلام بتطور المرض . وكانت تنتظر لقاءه بشوق وقلب مشغول وتساله عن كافة التفاصيل . كانت تنوق للذهاب الى انزاروف ولكن برزنيف توسل اليها ألا تذهب لان انزاروف لم يكن يتحرك بمفرده الا نادرا . وقد مرضت هى تقريبا يوم علمت بمرضه .. وما ان عادت للبيت حتى حبست نفسها فى حجرتها . وعندما استدعيت لتناول الغذاء كانت شاحبة ممتعة مما أزعج أنا فاسيليفنا فأشارت عليها بأن تستريح فى حجرة نومها . ولكن يلينا تماسكت . وظلت تقول لنفسها : « ان مات هو فسألق به » وقد أراحتها هذه الفكرة وساعدتها على أن تتظاهر بعدم الاكترات . على أن أحدا لم يثقل عليها . فقد كانت أنا

كان يبتسم واوما اليها برأسه فقامت لتلقاه وهمس في
أذنها قائلا :

- لقد أفاق وزال الخطر وسيشفى تماما بعد أسبوع
من اليوم .

ولم تنسى يلينا بكلمة وارتعشت شفتاهما واكتسى
وجهما بلون أحمر داكن . ثم اتجه برزنيف للحديث مع
أنا فاسيليفنا . وذهبت يلينا الى حجرتها وركعت على
ركبتيها وأخذت تصلي شكرا لله ودموع الفرح تنساب من
عينيهما ، وبدأت تحس بمدى ما تعانيه من تعب وإرهاق ،
ووضعت رأسها على الوسادة وقالت لنفسها « مسكين
اندريا بتروفتش ، واستسلمت للنوم في الحال وقد بللت
الدموع رموشها ووجنتيها . كان قد مضى عليها وقت طويل
لم تم فيه ولم تبك .

- ٢٧ -

تحقق بعض ما تنبأ به برزنيف ، فرغم أن انزاروف
قد تجاوز مرحلة الخطر فان شفاؤه كان يسير ببطء ، وقد
أشار الطبيب الى صدمة عنيفة هزت كيان المريض . ورغم
ذلك غادر انزاروف الفراش وأخذ يروح ويجيء في الحجرة
كما عاد برزنيف الى شقيقته ولكنه كان يذهب كل يوم

لرؤية صديقه الذي كان لا يزال ضعيفا . وكان يلين
يلينا كل يوم بتطور الحالة كما كان يفعل من قبل . أما
انزاروف فلم يجرؤ على الكتابة اليها واكتفى بالاشارة
اليها في حديثه مع برزنيف الذي كان يخطره بدوره متصفا
عدم الاهتمام بزياراته لبيت ستاكوف . وأوضح له أن
يلينا كانت في غاية الاضطراب ولكن حالتها النفسية قد
تحسنت ..

ولم تكتب يلينا لانزاروف لأنها عقدت العزم على
اتخاذ خطوة أخرى . وذات يوم بعد أن أخبرها برزنيف
في بهجة وسرور أن الطبيب قد صرح لانزاروف بأن يأكل
قطعة من اللحم وانه ربما استطاع الخروج قريبا طاطات
رأسها منكراً . وأخيرا قالت له : هل تستطيع أن تحقق
ما أريد أن أقوله لك ؟ ..

وشعر برزنيف بالحرج فقد فهم مرادها . وقال لها
وهو ينظر بعيدا عنها : ربما تريدن أن تقولى انك ترغبين
في رؤيته .

فأحمر وجهها وقالت بصوت واضح مسموع :

- نعم ..

- حسنا . أظن أن في امكانك أن تفعل ذلك بكل
سهولة .

ثم قال محدثا نفسه :

- سحقا لهذا الشعور السخيف الذي اشعر به .
وقالت له يلينا :

- تعنى اننى - ولكننى أخشى - انك تقول انه نادرا
ما يترك بمفرده هذه الأيام .

فقال لها برزنيف وهو لا يزال يتعاشى نظراتها :
- هذا شيء يمكن التغلب عليه . ولكننى طبعاً لا
أستطيع أن أخطره مقدماً ، فلترسلى له معى رسالة .
فمن ذا الذى يملك أن يمنعك من الكتابة لأحد معارفك
القدامى الذين يهيك أمرهم ؟ ليس فى هذا ما تلامي
عليه . فخذنى لميعاداً - اعنى اكتبى له لتخطريه بميعاد
ذهابك .

وقالت يلينا هامسة :

- اننى أشعر بالخجل .

- اكتبى رسالة وساحملها له .

- لا حاجة لذلك . ولكننى أريد أن أرجوك - دون
أن تشعر من ذلك بأية اساءة يا اندريا - ألا تزوره غدا .
فمض بنزريف على شففته ثم قال وهو يفادر الحجره
على عجل :

- أوه لقد فهمت حسنا سوف لا أذهب .

وقال لنفسه وهو فى طريقه الى بيته :

- هيا أحسن ! هذا أحسن ! ان ما علمته ليس
جديدا ولكن هذا أفضل . ما الذى يجعلنى أتشبث بعش
ليس لى ؟ لمست آمنفا فقد قمت بما أملاه على ضميرى ولكننى
الآن قد انتهيت من كل شيء . وليفعلا ما يشاءان . كان
أبى محقا عندما قال لى : اننى أنا وأنت لسنا مدللين يا بنى
ولسنا ارستقراطيين .

نحن من الكادحين يا بنى . من الكادحين . فالبس
فوطنتك الجلبدية واذهب الى ورشتك المظلمة ! أما الشمس
فدعها تضىء للغير . وحتى فى حياتى المظلمة هناك ما أفخر
به واغتبط ..

وفى اليوم التالى تسلم انزاروف رسالة قصيرة من
يلينا عن طريق البريد جاء فيها ما يلى :

انتظرنى ولا تستقبل احدا . لن يزورك ا . ب .
ما ان قرأ انزاروف رسالة يلينا حتى شرع يرتب
حجرته الصغيرة ، فطلب الى صاحبة المنزل أن تزيل
زجاجات الادوية وخلع ملابس النوم ولبس بدلته . كان
ضعيفا وسعيدا فاذا بقلبه يدق بسرعة . وتراخت قدماه
فارتقى على الارىكة ونظر الى الساعة ثم قال لنفسه : انها
الثانية عشرة الا ربعا . لا يمكن أن تاتى قبل الظهر .
ولابد لى أن أفكر فى شيء آخر أفعله خلال الربع الساعة
القادمة والا فسوف يعيينى تحمل الانتظار . لا يمكن أن
تاتى قبل .

أما الآن فسوف نعيش ..

فاجابها بأبتسامه ..

قالت :

- لقد مررنا بايام عصيبة يا دمترى . كانت اياما قاسية . اننى لا استطيع ان اتصور كيف يعيش الناس بعد وفاة من يحبون . لقد كنت دائما اعرف ما كان سيقوله لى اندريا بتروفتش . وكانت حياتى ترتفع أو تهبط مع حياتك . ياله من صباح سعيد يا دمترى - ولم يدرك دمترى ماذا يقول . كان يود ان يلتقى بنفسه تحت قدميها ..

وقالت له وهى تربت على شعره :

- هناك شيء آخر لاحظته . لقد لاحظت أشياء كثيرة اثناء مرضك . لقد اكتشفت انه عندما يكون الانسان فى غاية التفاسه فانه يكون قوى الملاحظة . لقد كنت اجلس احيانا اراقب ذبابة ولكننى كنت اشعر بالخوف والضيق . ولكن كل هذا قد انتهى الآن اليس كذلك ؟ ولكن ما هو امامنا بهيج .. اليس كذلك ؟

انت امامى وهذا يضفى البهجة على كل شيء .

اننى اشعر بنفس الشعور . ولكن هل تذكر ذلك اليوم الذى اتيت فيه لزيارتك . لافى المرة الأخيرة .. كلا ..

وفتح الباب ودخلت يلينا ترتدى رداء حريريا وتبدو شاحبة ولكنها منتعشة وسعيدة . القبت نفسها بين ذراعيه وهى تصيح صيحة خافتة مرحة . وقالت وهى تطوق عنقه بذراعيها وتربت على رأسه :

- انك على قيد الحياة . انك لى .. وكررتها عدة مرات .. أما هو فقد ظل ساكنا وهو يلهث من التصاقها به . ومن لمساتها ومن السعادة التى كانت تقمره .. ثم جلست الى جانبه وقد تعلقت به وأخذت تتطلع اليه وقد بدا عليها تعبير السرور والتدليل الذى لا يبدو الا على امرأة تحب .

واختفى هذا التعبير من وجهها فجأة .. ثم قالت وهى تمر بيدها على صدغيه :

- نحفت كثيرا يا مسكين . ونما شعر ذقنك كثيرا .. فقال لها .. وهو يقبل أصابعها وهى تربت على وجهه :

- انت ايضا أصبحت اكثر نحافة عن ذى قبل يا يلينا يا مسكينة .

فقالت وهى تهز خصلات شعرها :

- لا تهتم . انك سترى أن وزننا سيزداد سريعا .. لقد جاءت العاصفة كما جاءت فى ذلك اليوم الذى التقينا فيه فى الكوخ . جاءت وذهبت .

(وهنا سرت في جسدها وعشة لا ارادية) ولكن
عندما كنا نتحدث أنا وأنت وذكرتك لك الموت • ولا أدري
لم ذكرته • لم أكن أشك حينذاك أن الموت كان يترصدنا •
ولكنك الآن بخير •• اليس كذلك ؟

- اننى أشعر بتحسن كبير وقد شفيت تقريبا •

- انك فى صحة جيدة ولم تمت • أوه - كم أنا

سعيدة ••

وأعقب ذلك فترة صمت ••

وأخيرا قال انزاروف :

- يلينا ••

- نعم يا عزيزى •

- خبرينى • هل خطر ببالك أن مرضى كان عقابا
موجهة لنا ؟ فنظرت اليه يلينا بجد وقالت :

خطر ذلك ببالي يا دمترى • ولكننى سألت نفسى •

- وما سر عقابى ؟ ما هى الواجبات التى أهملتها
وما هى الزلات التى ارتكبتها ؟ قد لا يكون ضميرى كضمير
الآخرين • أو ربما أكون قد أذنبت فى حقك • وقد أكون
عقبة فى سبيلك وقد أعوقك ••

- سوف لا تعوقينى يا يلينا لأننا سنرحل معا •

- نعم يا دمترى • سنسير معا وسوف أتبعك ••
هذا واجبى • اننى أحبك ولا أعرف واجبا غير ذلك •

- أوه يا يلينا •• ان كل كلمة تصدر منك تضع
حولى رباطا لا ينفصم •

- ولماذا تتحدث عن الرباط ؟ اننى أنا وأنت أناس
أحرار •

ثم قالت وهى تنظر الى الأرض فى تفكير ، بينما ظلت
تربت على شعره بيدها : لقد مررت بأشياء كثيرة فى الأيام
الأخيرة •• أشياء لم تكن عندى أى فكرة عنها من قبل ••
ولو ان أحدا قال لى اننى أنا الفتاة ذات التربة أخرج
متدعة بادعاءات كاذبة لزيارة شاب فى مسكنه - تخيل
هذا - لغضبت كثيرا ! وها قد حدث كل هذا ولكننى لم
أغضب على الإطلاق ••

وكان انزاروف يحدق فيها باعجاب شديد حتى انها
أنزلت يديها من شعره الى عينيه •
ثم قالت له :

- يا دمترى •• انك لا تعرف شيئا عما حدث ••
لقد رأيتك هناك فى ذلك الفراش الرهيب •• رأيتك فى
قبضة الموت فاقد الوعي ••

- حقا ؟

- نعم •

فخففت يدينا عينيها ثم قالت بصوت خفيض :

- لقد أحبني ..

وضغط انزاروف على يدها وقال :

- ان لكم أيها الروس قلوبا من ذهب . اننى عندما
أذكر انه كان عليه هو دون الناس جميعا أن يرعاني وأن
يمضى الليالي ساهرا الى جوارى يأخذنى العجب . كذلك
فانك انت الأخرى يا ملاكى فعلت كل هذا من أجلى دون
تردد ..

- نعم .. نعم .. من أجلك لانك محبوب .. آه
يا دمترى ياله من أمر غريب ! أظن اننى قد أخبرتك من
قبل اننى أشعر بالسعادة عندما أكرر لك قولى هذا كما
انك ستشعر بالسعادة حين أقول لك مرة ثانية اننى عندما
رأيتك لأول مرة .

وسألها انزاروف فى دهشة :

- ولكن لماذا تبكين ؟

فألت وهى تمسح عينيها :

- أبكى ؟ هل أنا أبكى ؟ ولكن كيف لا تعرف ان
الانسان قد يبكى أيضا من الفرح ؟ انك حين التقينا لأول
مرة لم تلق اعجابى كما سبق أن قلت لك .. أذكر اننى
شعرت بميل أكثر نحو شوبين ولو اننى لم أشعر بالحُب

وظل صامتا فترة من الوقت ثم قال :

- وهل كان برزنيف هنا أيضا ؟

فأومات برأسها ..

فانجنى انزاروف لها وقال فى همس :

- أوه يا يدينا لا أجد فى نفسى الجرأة على النظر
إليك .

- ولم لا ! ان اندريا بتروفتش ذو قلب رحيم كما
اننى لم أشعر بالحجل امامه اذا ليس هناك ما يجعلنى
أشعر بالحجل . لا يهمنى أن يعلم العالم كله اننى لك .
اما عن اندريا بتروفتش فانى أثق فيه كما لو كان أخى .

فقال انزاروف :

- لقد أنقذ حياتى .. انه أكرم وأطيب رجل رأيت
فى حياتى .

- هذا صحيح .. وهل تعلم اننى مدينة له بكل
شئ ؟ هل تعلم انه أول من قال لى انك تحبني ؟

اننى لا أستطيع أن أبوح لك بكل شئ الآن .. انه
حقيقة أكرم رجل ..

فنظر انزاروف الى يدينا مليا ثم قال :

- انه يحبك أليس كذلك ؟

نحوه وكنت أشعر نفس الشعور نحو اندريا بتروفتش ،
ومرت على لحظة كنت أعتقد انه هو فتاى • أما انت فلم
تستلقت نظرى ولكنك استوليت على قلبى بعد ذلك •

فقال لها انزاروف :

- ارحمىنى •• وحاول أن يقف ولكنه جلس ثانية •
فقالت له يلينا بقلق :

- ماذا بك ؟

فقال لها :

- لا شيء سوى اننى لا ازال ضعيفا •• ان هذه
السعادة أكثر مما أتحمّل •

قالت :

- الزم الهدوء اذن •• وأرجوك أن تكف عن الحركة
وعن الانفعال ما كان يجب أن تخلع ملابس النوم فلم يحن
بعد الوقت لكى ترتدى حلة • اهدأ وسأقص عليك بعض
القصص المسلية وما عليك الا أن تستمع فى هدوء ، كما
عليك ألا تتحدث كثيرا بعد مرضك •

وبدأت تحدثه عن شوبين وكورنا توفسكى وما كانت
تفعله خلال الأسبوعين السابقين وقالت انه طبقا لما جاء
فى الصحف فان الحرب وشيكة الوقوع •• ولذلك فمجرد
أن يشفى فلا بد من إيجاد طريقة للرحيل فى الحال • كانت

تتحدث وهى تجلس الى جانبه متكئة على كتفه • وكان
ينصت لها بينما أخذ وجهه يشحب ويحمر على التوالى
وقام بعدة محاولات لاسكاتها •

وفجأة اعتدل وقال لها بصوت حاد :

- يلينا أرجوك أن تتركينى •• اذهبى ••
فهمست فى تعجب :

- ماذا نقول ! ألسنت بخير ؟

- اننى بخير ولكن أرجوك أن تذهبى •

- لا أفهمك •• هل معنى ذلك انك تطردنى ؟

ثم قالت له فجأة وقد راته ينحنى حتى وصل الى
الأرض ثم قبل قدميها :

- لا تفعل يا دمترى •• دمترى •

فقام ثم قال :

- اتركينى يا يلينا •• اننى عندما مرضت لم أفقد
الوعي فى الحال •• كنت أعلم اننى على حافة الموت • وحتى
أثناء الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة وحتى وأنا أهذى كنت
أشعر شعورا خفيا ان نهايتى أوشكت وودعت الحساسة
وودعتك وودعت كل شيء وفقدت الأمل ثم بعد كل ذلك
يأتى هذا البعث وهذا النور بعد الظلام وأراك وأنت
تجلسين الى جوارى وفى حجرتي وأسمع صوتك وأحس
بانفاسك • هذا أكثر مما أطيع حيث اننى أشعر اننى

كان ستاكوف يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد عقد مابين حاجبيه بينما جلس شوبين الى النافذة وهو يدخن في هدوء ثم قال لستاكوف : كفاك سيرا بالله عليك . لقد كنت أنتظر منك أن تتكلم وقد تعبت من النظر اليك وأنت تروح وتجيء كذلك فإن في مشيتك شيء من التوتر والانفعال .

فقال ستاكوف :

- أنت دائما تمزح في غير وقت للمزاح . لابد لك أن تقدر موقفى . انك لا تريد أن تفهم اننى متيم بهذه السيدة وأن غيابها ينقص على حياتى هاقد بدأ شهر أكتوبر وأصبح الشتاء على الأبواب . فما الذى يبقيا حتى الآن فى ريفال ؟

- أعتقد أنها تعد بعض الجوارب - لنفسها طبعاً لا لك .

- استمر فى لهوك وضحكك . ولكننى أريد أن تفهم اننى لم أعرف فى حياتى امرأة لها مثل اخلاصها وتفانيها . فسأله شوبين قائلاً :

- هل قدمت كمبيالاتها للسداد ؟

فقال ستاكوف وهو يرفع صوته :

أحبك بكل جوارحى . اننى حين أسمعك تقولين انك لى أفقد السيطرة على نفسى . . اذهبى .

فهمست يلينا وهى تضح رأسها على صدره وقد فهمت :

- دمترى .

- يلينا اننى أحبك وانت تعلمين ذلك . . اننى على استعداد للتضحية بحياتى من أجلك . . ولكن لماذا آتيت لى الآن ، وأنا ضعيف ولا قبل لى بالسيطرة على نفسى ودمائى تغلى ؟ انك لى كما انك تقولين انك تحبيننى .

فقالت وقد احمر وجهها احمراراً شديداً والتصقت به أكثر وأكثر :

- دمترى .

- يلينا . . ارحمىنى واذهبى .

اننى أشعر اننى قد أموت فما بى طاقة لتحمل هذا الانفعال . . ان قلبى يتمزق شوقاً إليك . .

ولا تنسى ان الموت كاد يفرق بيننا . . والآن هانت هنا بين يدى يا يلينا . .

فانتابتها رعشة فى كل جسدها وقالت له وهى تمنغم بصوت لا يكاد يسمع :

- خذنى اذن . .

– وماذا في ذلك ؟ لقد كنا نلعب نظير نقود • لاشك
أنى كان من الممكن أن أتوقع – ولكن ما يتمتع به هو من
صفات لا يلقى ما يستحقه من تقدير في هذا البيت ••
فقاطععه شوبين قائلا :

– وربما قال لنفسه : « ليحدث ما يحدث – لست
متأكدا من اننى سأتزوج ابنته في حين أن المائة روبل
لا ضرر منها على شخص لا يأخذ الرشاوى » •
ثم قال شوبين بالفرنسية :

– انك تحلم بأن تزوجه ابنتك يا عزيزى • مما لاشك
فيه أن أى فتاة أخرى كانت تقفز من الفرع اذا طلب يدها
رجل مثله • فهو رجل مجتهد وكفء وله شهرته في
مقاطعتين • كما أنه استطاع أن يخدع حاكم إحدى المقاطعات
– ربما انه رجل يفعل ما يقول كما ان له نشاطا في
ميدان التجارة •

ثم قال شوبين :
– انه لا شك يجيد لعب الورق •
– نعم • يجيده • ولكن يلينا نيكولايفنا فتاة لا يمكن
فهم تصرفاتها •

كم أود أن ألقى شخصا يمكنه أن يبين لى ما نريد •
فهى مرحة أحيانا وحزينة أحيانا أخرى وصحتها تسوء
أحيانا وتحسن أحيانا أخرى بلا سبب واضح •

ان تفانيها يثير الإعجاب وليست هناك امرأة مثلها •
ولكن الشيء المؤلم أنها لم تكتب لى •
فقال شوبين :

– ان بلاغتك في الحديث مثل بلاغة بايشاجوراس •
هل تعرف ما اقترحه ؟
– تحدث •

– عندما تعود أوجاستينا كريستيانوفا – اتفهمنى ؟
– نعم •
– عندما تراها •• هل تفهمنى ؟

– نعم بالطبع •
– حاول أن تضربها وانظر ما يحدث •
فابتعد ستاكوف في اشمزاز ثم قال :

– كنت أعتقد أنك ستقدم لى نصيحة حقيقية • ولكن
ماذا يستطيع الانسان أن ينتظر من شخص مثلك ؟ من
فنان •• من رجل بلا مبادئ •
– بلا مبادئ !

انهم يقولون ان رجلك المفضل السيد كورناتوفسكى
وهو رجل ذو مبادئ قد ربح منك مائة روبل فضة مساء
أمس • انك لا شك توافق على أن ذلك من جانبه عمل خال
من اللياقة •

وهنا حضر خادم يحمل صينية عليها قدح من القهوة
وبسكويت وانا من اللبن .

واستمر ستاكوف فى حديثه فقال :

– الوالد يعيل الى الرجل ولكن ابنته لا تكثر لشيء
.. كان هذا جائزا فى العهود القديمة اما الآن فقد
تغيرنا . واى فتاة تستطيع ان تتحدث الى اى انسان كما
تستطيع ان تقرا اى شيء انها تخرج بمفردها دون خادم
او وصيفة كما لو كانت فى باريس . واصبح كل هذا
مقبولا . وقد سألت منذ بضعة ايام عن يلينا نيكولايفنا
فقبل لى انها خرجت ولم يكن هناك من يعرف أين ذهبت
فهل تعتقد أن هذا تصرف لائق ؟

فقال شوبين :

– خذ قدحك حتى ينصرف الرجل . ألم نقل اننا
لا يجب أن نتحدث هكذا أمام الخدم (قالها بالفرنسية)
فنظر الخادم بتجهم الى شوبين بينما أخذ ستاكوف
قدح القهوة وصب عليه بعض اللبن وأخذ فى يده بعض
قطع البسكويت .

ثم قال بعد أن انصرف الخادم :

– كنت أقول اننى لا أساوى شيئا فى هذا البيت .
الناس يقدرون هذه الايام بمظهرهم . وقد يكون الانسان
سطحيا . وغيبيا ولكنه يحترم اذا ظهر بمظهر الشخص

المهم . وقد يكون هناك شخص آخر موهوب وله قدرات
لها فائدتها واهميتها ولكن لشدة تواضعه .
فسأله شوبين قائلا :

– هل أنت من رجال السياسة يا نيكولاى ؟

فصاح ستاكوف بغضب قائلا :

– كفاك سخافة . لقد نسيت نفسك . وهذا

دليل جديد على اننى لا أساوى شيئا فى هذا البيت .

– ان انا فاسيليفنا تستبد بك يا صديقى المسكين .

لا بد أن تخجل من نفسك . ولا بد لك أن تفكر فى هدية

تقدمها لانا فاسيليفنا فى عيد ميلادها الذى يحل بعد ايام

وانت تعلم مدى تقديرها باى اهتمام تبديه نحوها .

– نعم أنت على حق وانا شاكر لك لأنك ذكرتنى

بهذا . لا بد لى أن افعل هذا . ان لدى عقدا اشتريته من

روز نيسستروك منذ يومين ولكننى لا أدرى ان كان هذا

يكفى أم لا .

– اشتريته للأخرى . اليس كذلك ؟

– ان – نعم – كنت اعتقد –

– مادام الامر كذلك فانه يكفى بالطبع .

وقام شوبين من مقعده .

فسأله ستاكوف وهو يحملق فى عينيه قائلا :

– أين ستذهب الليلة يا بافل باكوفليفتش .

– ألسنت ذاهبا الى النادي ؟

– أعنى بعد ذلك •

فقال شوبين :

– آسف يا نيكولاي ارتيميفتش ان لدى ما اعمل
غدا • سنذهب فى وقت آخر • ثم خرج •

فقطب ستاكوف جبينه وسار فى الحجرة مرة او مرتين
ثم اخرج من جيبه علبة صغيرة من القטיפه بداخلها العقد
وفحص العقد جيدا • ثم جلس امام المرأة وأخذ يمشط
شعره الاسود الكثيف وهو يحرك راسه يمنة ويسرة وينفخ
شديقه •

وسمع شخصا يسعل خلفه فالتفت ورأى الخادم الذى
احضر القهوة فسأله قائلا :

– ماذا تريد ؟

اجاب الخادم :

انك سيدى يا نيكولاي ارتيميفتش •

– اعرف ذلك • وماذا هناك ؟

– ارجو الا تغضب منى ياسيدى • عندما رأيت اننى
قد امضيت فى خدمتك حياتى منذ طفولتى – أى لانى أريد
ان أخدمك كأننى عبدك – لا بد ان اخبرك –

– تكلم يارجل •

– لقد قلت ياسيدى أنك لا تعرف أين ذهبت يلينا
نيكولايفنا ولكنى اعرف شيئا عن هذا الموضوع •

– انك احمق كاذب •

– كما ترى ياسيدى ولكننى رأيتها منذ اربعة ايام
وهي تدخل احد المنازل •

– اين واى منزل ؟

– بالقرب من شارع بوفارسكايا وهو شارع لا يبعد
كثيرا عن هنا • • وسألت حارس المنزل عن السكان •

فضرب ستاكوف الأرض بقدمه وقال للخادم :

– أحرص ايها المغفل ! كيف تجرؤ على أن تقول مثل
هذا القول • ان يلينا نيكولايفنا تزور الفقراء من باب
العطف عليهم وانت – اغرب عن وجهى ايها الاحمق •

فاندفع الخادم مذعورا الى الباب • وصاح فيه
ستاكوف قائلا :

– قف • ما الذى قاله لك الحارس ؟

– لم يقل شيئا • قال انها كانت تقوم بزيارة أحد
الطلبة •

– اصمت ايها المغفل – استمع الى ايها المجرم :

اذا أعدت هذا الكلام حتى وأنت نائم •

– كيف اجرؤ على ذلك يا سيدى •

– أحرص – انك اذا تحدثت عنه – أو اذا سمع به
أى شخص فانك سوف لا تغفلت من عقابى حتى ولو ذهبت
الى جهنم • فهمت ؟ والآن اغرب عن وجهى •

صاحب بيته أنه سيرحل قريبا ، وأهدى له كل اثاث حجراته مقدما . وكانت يلينا هي الأخرى تستعد للرحلة . وقد حدث ذات ليلة مطرة أن كانت يلينا تجلس في حجرتها تطرز بعض المناديل وتنصت على غير رغبة منها الى صوت الرياح عندما دخلت عليها خادمتها وأخبرتها ان والدها في حجرة والدتها وانه يريد مقابلتها . وقالت لها الخادمة وهي تقادر الحجره : ان والدتك تبكى كما ان والدك في منتهى الغضب .

وهزت يلينا كتفها ودخلت الى حجرة انا فاسيليفنا التي كانت تجلس على مقعد ضخم تشم الكولونيا من منديل في يدها بينما كان زوجها يقف الى جانب المدفأة مرتديا ملابس توحى بأنه خطيب في البرلمان وأشار سستاكوف بيده اشارة خطابية لابنته لسكى تجلس . وعندما نظرت اليه متسائلة قال لها في تعال ودون ان يلتفت اليها .

- ارجو ان تجلسي .. فجلست يلينا ..

وكانت انا فاسيليفنا تبكى بينما وضع سستاكوف يده في جيب ردايه .

وقال بعد فترة طويلة من السكون : لقد استدعيتك يا يلينا نيكولافينا لكى اصل معك الى تفسير او بمعنى اصح لكى استوضحك بعض الامور . اننى لست راض - عنك - كلا هذه لغة ممتدلة جدا - ان سلوكك يؤلمنى بل ان فيه اهانة لى ولوالدتك التي تزينها هنا .

وعندما وجد سستاكوف نفسه بمفرده قال لنفسه : يا الهى ! ما هذا ؟ ما الذى قاله لى هذا المجهنوم ؟ على اى حال لا بد لى ان اعرف كل شيء عن هذا المنزل وعن ساكنيه لا بد ان اذهب بنفسى الى هناك ثم اعاد سستاكوف العقد الى الخزانة وذهب الى انا فاسيليفنا فوجدها ترقد فى الفراش وقد ربطت صدغها بضادة ولكن فكرة اثارها اخذت تلح عليه وسرعان ما جعلها تبكى .

- ٣٠ -

فى هذه الاثناء انفجرت العاصفة التي كانت تتجمع فى الشرق وأعلنت تركيا الحرب على روسيا . وكانت الخطابات التي تصل الى الجزائروف تناشده بشدة ان يعود الى الوطن . ولم يكن قد عوفى تماما . بل كان مقبلا . وكان يسعل كما كانت تعاوده نوبات من الحمى من آن لآخر ولكنه لم يكن يبسقى فى البيت الا نادرا . كان شديد الحماس ولم يكن لديه متسع من الوقت لرعاية صحته . وكان يغشى الاجتماعات السرية فى جميع أنحاء موسكو وكان كثيرا ما يمضى ليالى باكملها يكتب ، كما كان يتغيب عن البيت اياما متتالية . وكان قد اخطر

كان ستاكوف يتحدث بصوت خفيض بينما ظلت
يلينا تنظر اليه ثم الى انا فاسيليفنا وقد شحج وجهها
واستمر ستاكوف في حديثه فقال : كان هناك وقت
لا تتجاسر فيه الفتيات على التقليل من شأن الوالدين
وكانت سلطة الوالدين ترهب من تسول له نفسه شق
عصا الطاعة عليهما . ويؤسفني أن أقول ان هذا الوقت
قد مضى أو هذا ما يعتقد الكثيرون . ولكن صدقيني
لا تزال هناك قوانين تمنع - تمنع - بالاختصار لا تزال هناك
قوانين : أرجو أن تلاحظي أنه لازالت هناك قوانين ..
وحاولت يلينا أن تقاطعه قائلة : ولكن يا أبى ..
فقال لها :

- أرجو ألا تقاطعيني ولننظر للماضى .

لقد أديت انا وأنا فاسيليفنا واجبنا . ولم ندخر
وسعا في تعليمك . ان الفائدة التي حصلت عليها من هذه
النفقات وهذه العناية تعتبر مسألة جانبية . ولكنني كنت
أتوقع انا وأنا فاسيليفنا أن تقدسى تلك القيم الخلقية التي
أنشأناك عليها باعتبارك ابنتنا الوحيدة . لقد كنا نعتقد
أنه لا يمكن للأفكار الجديدة المتطرفة أن تؤثر على هذه العقيدة
المقدسة . ومع هذا فماذا كانت النتيجة ؟

وبغض النظر عن الطيش الذي يلازم الفتيات في
سنك ، فليس هناك من كان يتصور أنك تنسين نفسك
الى درجة أن . قالت يلينا :

- أبى اننى اعرف ما تقصد .

فصاح ستاكوف وقد نسي كل ما يتعلق بكبريائه
ومظهره الذى يوحى بالعظمة وقال :

- أنت لاتعرفين شيئا أيتها الوقحة المستهتره .

قالت انا فاسيليفنا بالفرنسية .

- بحق السماء يانيكولاس .. سنقضى على ..

- لاتقولى هذا يا انا فاسيليفنا . انك لاتستطيعين

ان تتصورى ما سأقوله فلا تزال هناك اخبار سيئة فى
انتظارك .

فاستولت الدهشة على انا فاسيليفنا .

ثم التفت ستاكوف الى يلينا وقال :

- كلا ، أنت لا تعرفين ما أقصده .

- لقد أسأت اليكم .

- آه - لقد قلتها أخيرا .

- لقد أسأت اليكم بعدم الاعتراف لكم منذ وقت

طويل .

فقاطعها ستاكوف قائلا :

- هل تعلمين ان فى مقدورى أن أقتلك بكلمة

واحدة ؟

فنظرت يلينا اليه .

فقال لها وقد وضع ذراعيه على صدره :

- نعم ياسيدتي بكلمة واحدة . هل لي أن أسألك
ان كنت تعرفين منزلا معيننا بالقرب من بوفارسكايا ؟
وهل قمت بزيارة هذا المنزل ؟ ثم ضرب الارض بقدمه
وقال : اجيبي يا قليلة الحياء ولا تحاولي أن تخدعي ،
فقد رأك خدمنا وانت تزورين .

واحمر وجه يلينا ولمعت عيناها وقالت :

- لا حاجة بي لخدمكم . لقد زرت هذا المنزل
بالفعل .

- عظيم ! هل سمعت بهذا يا أنا فاسيليفنا ؟ اعتقد
انك تعلبين من الذي يسكن في هذا المنزل .

- نعم أعرف - انه زوجي .

فحملق فيها ستاكوف وقال :

- من ؟؟

- زوجي فانا متزوجة من دمتری نيكاتوروفتش
انزاروف .

فقال أنا فاسيليفنا بدهشة :

- أنت ؟ متزوجة ؟

- نعم ياوالدي وأرجو المغفرة فقد تزوجنا سرا منذ
أسبوعين . انهارت أنا فاسيليفنا على المقعد الذي كانت

تجلس عليه بينما رجع ستاكوف خطوتين للخلف
وقال لها :

- تزوجت ؟! تزوجت من ذلك الصعلوك ؟

هل تتزوج ابنة أحد النبلاء الأغنياء . . ابنة
نيكولاى ستاكوف من صعلوك تعس من الأحرار دون أن
يبار والداها هذا الزواج ؟ هل تظنين أنني سأقبل هذا ؟
وهل تظنين أنني لن أشكو للجهات المختصة ؟ هل تظنين
أننى سبأسمح لك ان - اسمح بأن - كلا سادخلك الدين
وسأرسله هو الى السجن . اخبريها يا أنا فاسيليفنا
الآن أنك ستحرمينها من الميراث .

فقال أنا فاسيليفنا وهي تشن :

- بحق السماء يانيكولاى ارتيميفتش !!

وقال ستاكوف :

- كيف حدث هذا ؟ ومتى ؟ ومن أجرى مراسيم
الزواج ؟ وأين ؟ وكيف ؟ يا الهى ! ما الذى سيقوله
أصدقائنا وغيرهم من الناس أيتها المنافقة المتبجحة ؟
وكيف تستطيعين ان تعيشي في بيت والديك بعد أن ارتكبت
مثل هذا العمل ؟ ألم تقيمي حسابا للعقاب الالهى ؟
فقال يلينا بحزم وان كانت ترتعش من قمة الرأس
الى أخمص القدم :

- لك ان تقلل من شأنى كما تشاء ولكنك تخطف
في اتهامك لى بالتبجح والنفاق . لم أود أن أزعجك قبل أن

يتم شيء ولكنني كنت لابد سأخطرك في يوم من الأيام
بكل شيء لأنني سأرحل انا وزوجي في الأسبوع القادم

- سترحلين ؟ الى أين ؟

- الى وطنه بلغاريا .

فصاحت انا فاسيليفنا قائلة :

- الى الاتراك ؟ ثم فقدت الوعي .

واندفعت يلينا نحو أمها . . .

فصاح فيها ستاكوف وهو يسكها من ذراعها قائلاً :

- ابتعدى - ابتعدى أينها الفتاة الحقيرة .

وفى هذه اللحظة فتح الباب وظهر شوبين وصاح

بأعلى صوته قائلاً :

- لقد عادت اوجاستينا كريستيانوفا يانيكولاى

ارتيميفتش وهي تدعوك .

فاستدار ستاكوف بغضب وهز قبضته لشوبين

وتردد لحظة ثم أسرع بالخروج . . . أما يلينا فقد ارتمت عند

قدمي والدتها وامسكت بركبتيها . . .

كان يوفار ايفانوفتش يرقد فى فراشه وقد لبس

قميصا بازرار كبيرة احاط بصدرة الضخم وتدثر بغطاء

خفيف غطى نصفه الأسفل . . . كانت هناك على المنضدة

شمعة ترسل ضوءاً خافتاً . وكان شوبين يجلس على

الفراش عند قدميه وقد بدا مهموماً . وقال :

- نعم . لقد تزوجت . . . أو شكت على الرحيل . . .

وقد نار قريبك واخذ يصيح وكان قد أغلق الحجره

على نفسه حتى لا يسمعه احد . وكان كل الخدم يسمونه

وهو لا يزال ثائرا صاخبا ، كان على وشك أن يتشاجر مع

ولكنه عاجز عن عمل شيء . أما انا فاسيليفنا فقد تحطمت

وحزنت على سفر ابنتها الوشييك أكثر من حزنها على

زواجها .

وأخذ يوفاريشنى أصابعه ثم قال :

- انها أم ولذلك فهي . . . انت تعرف .

فاستمر شوبين فى حديثه قائلاً :

- ان قريبك يهدد برفع الأمر الى الحاكم العام والوزير

ولكن كل هذا سينتهى برحيلها . وليس هناك أب يرغب

فى تحطيم سعادة ابنته .

فقال يوفار ايفانوفتش :

- لاحق لهم .

ثم احتسى جرعة من الخمر .

- كلا لا حق لهم . ولا تنس موجة القيل والقاله

والاشاعات التى ستعم موسكو . انها لا تخشى شيئا .

انها فوق كل هذه الاشياء . ولكن التفكير فى المكان الذى

ستذهب اليه يثير الخوف . انه بعيد جدا . ولا يدري أحد

ما الذى تخبئه لها الاقدار هناك . اننى أتخيلها وكأنها

خارجة من إحدى الحانات ليلا في عاصفة ثلجية عذبة
سترحل بعيدا عن وطنها وعائلتها ورغم ذلك فأنسى
أفهمها . من هم الأشخاص الذين ستتزوجهم ورايها ؟ وأي
نوع من الناس صادفتهم هنا ؟ أشخاص امثال -كوريغاتوفسكى
وبرزنيف وأنا . نحن أحسن من قابلتهم .

فما الذى ستأسف عليه اذن ؟ المشكلة الوحيدة هي
أنهم يقولون ان زوجها . . . اننى أجد صعوبة فى النطق
بهذه الكلمة . . يقولون ان انزاروف يبصق دما عندما
يسعل . وهذا أمر سيئ . وقد رأيت منذ بضعة أيام وكان
وجهه أشبه بوجه بروتوس . هل تعرف من هو بروتوس
يا يوفار ايفانوفتش ؟

- ومن هو حتى أعرفه ؟ انه مجرد شخص .
- نعم ولكنه شخص فى منتهى المرح وله وجه عجيب
ولكنه وجه رجل مريض . مريض جدا .
- هذا لا يهم عندما يكون الموضوع متعلقا بالحرب .
- هذا صحيح وأنت على حق . تعليقاتك اليسوم
دقيقة ولكن هذا من الأهمية بمكان حتى تكون المسألة
مسألة حياة وأنا على يقين أنها تريد أن تستمتع بالحياة
مع . . .

- هذا طبيعى فهما فى مقتبل العمر .
- نعم هما فى مقتبل العمر ، كما أن القضية قضية

رائعة طابعا الشجاعة ففيها الموت والكفاح من أجل الحياة
والهزيمة والنصر والحب والحرية والوطن . انه شعور فذ
وليمنحه الله للجميع هو أفضل من الجلوس كما تجلس
أنت متظاهرا بعدم الاهتمام فى حين أنك فضلا لا تهتم .
أما هناك فقد بلغ التوتر حدا كبيرا جعل صداه يسمع فى
جميع أنحاء العالم .

وتدلى رأس شوبين على صدره . ثم استمر قائلا
بعد صمت طويل :

- نعم . ان انزاروف جدير بها . على كل - كلام
فارغ ! ليس هناك من هو جدير بها . انزاروف - ماقيمة
التواضع الكاذب ؟ اننى اعترف انه رجل بمعنى الكلمة
يستطيع ان يثبت وجوده ولو أنه ظل حتى هذه اللحظة
يفعل ما نفعله نحن الأشخاص العاديين . ولكن هل الى
هذا الحد ؟ نحن قوم لا قيمة لهم ؟ هل أنا شخص لا قيمة له
يا يوفار ايفانوفتش ؟ ألم يهبني الله شيئا قط ؟ ألم يعطني
بعض القدرات أو المواهب ؟ من يدري أن اسم بأفل شوبين
لن يصبح مشهورا يوما ما ؟ ان أمامك قطعة من النقود
النحاسية على المنضدة . من يدري فلعل أحفاده يستعملون
هذه القطعة ذات يوم . ربما يكون هذا اليوم بعد مائة سنة
لاقامة تمثال لبأفل شوبين .

فاستند يوفار ايفانوفتش على مرفقيه ونظر الى الفنان
المتحمس وقال وهو يثنى اصابعه كالعادة :

كان شوبين على حق فقد كان خبر زواج يلينا المفاجي يقضى على أنا فاسيليفنا التي لزمتم فرائسها . وقد طلب اليها ستاكوف ألا تسمح لابنتها بمقابلتها . ويبدو أنه كان مفتبطا للفرصة التي اتاحت له كي يظهر أنه هو سيد البيت ورب العائلة . فكان يعنف الخدم دائما ويصيح فيهم ويقول :

- ساريكم من أنا . ستعرفون حقيقتي .

وطالما كان في البيت لم تكن أنا فاسيليفنا ترى يلينا وكانت تقنع بصحبة زويا التي كانت ترعى شئونها بعناية فائقة . ولكن ما ان يخرج ستاكوف وكان هذا يحدث كثيرا - فقد عادت أوجاسيتنا كريستيانوفا - حتى كانت يلينا تأتي لزيارة أمها التي كانت تتطلع اليها في صمت والدموع تنهمر من عينيها . كان هذا التائب الصامت ينفذ الى أعماق يلينا أكثر من أى تائب آخر .

كان يجعلها تشعر شعورا أشبه شىء بالنسدم . وكانت تقول لها وهي تقبل يديها : أمي العزيزة ما الذي كان في وسعي أن أفعله ؟ الخطأ ليس خطئي فاني احببه ولم يكن في مقدوري أن أفعل غير ذلك . تستطيعين أن تلومي القدر فهو الذي جمع بيني وبين رجل لا يحبه أبي وسيأخذني بعيدا عنكم .

- سيطول هذا الانتظار . لقد كنا نتكلم عن شخص آخر وهانت تتحدث عن نفسك .

- يافيلسوف روسيا العظيم ان كل كلمة تفوهت بها انما هي قطعة من الذهب الخالص . لا يجب ان يقام التمثال لي بل لك وسأتمهد أنا باقامته . سأصنع لك تمثالا وانت راقد في هذا الوضع الذي يصعب الحكم عليه فهو وضع قوة أو كسل . لقد أنبتني على انانيتي وطوحى وانت محق في هذا أو يجب ألا نتحدث عن أنفسنا أو نتفاخر . نحن لا نزال في الواقع نفتقر الى الرجال الحقيقيين رغم أننا نبحث عنهم كثيرا . ان رجالنا اما شخصيات تافهة جاهلة تتحسس طريقها في الظلام أو اشخاص يسخرهم الآخرون . وهناك ايضا نوع من الأشخاص قد حللوا انفسهم بدقة تشير الاشمزاز فهم يركزون تفكيرهم على انفسهم .

والحق انه لو كان بيننا رجال حقيقيون لما تركتنا هذه الفتاة الحساسة ولما تسللت هكذا كسمكة تهرب إلى الماء . ماذا يعني كل هذا يا يوفار ايفانوفتش ؟ متى سيحين وقتنا؟ ومتى يولد رجال حقيقيون في هذه البلاد ؟

- لا تتعجل فسيأتي الوقت الذي يظهرون فيه .

- هل سيأتون حقا ؟ هل قلت انهم سيأتون ؟ لا تنس اني سأسجل ما تقوله . ولكن لماذا تطفئ الشمعة؟

- لانني أشعر بالنعاس . طابت ليلتك .

وتقول لها أنا فاسيليفنا :

- لا تذكريني فان قلبي ينفطر عندما أفكر في المكان
الذي ستذهبين اليه .

- فكري يا اماء في انه كان من الممكن ان يحدث
اسوا من هذا . كان من الممكن ان اموت . لتجدي في هذه
الفكرة بعض العزاء .

- اننى فاقدة الامل في ان اراك ثانية . فاما انك
ستموتين هناك في كوخ حقير (كانت انا فاسيليفنا تتصور
بلغاريا كمناطق من مناطق التندرا في سيبيريا) واما ان
يقضى على العراق .

- لا تقولى هذا يا اماء فاننا سنلتقى بمشيئة الله .
وفي بلغاريا مدن لا تقل عن مدننا في القليل أو الكثير .

- مدن ! ان الحرب تدور رحاها هناك الآن . وانا
على يقين ان المدافع هناك تدوى في كل اتجاه . متى
سترحلين ؟

- قريبا جدا - لو ان والدى لا - انه يقبول انه
سيلجأ للقضاء وهو يهدد بان يطلقنا .

وترمع انا فاسيليفنا عينها الى السماء وتقول

- كلا يا ليلى انه لن يلجأ للقضاء . اننى لو خيبت
لما وافقت على زواجك . بل اننى كنت افضل الموت ولكن
ما باليد حيلة . . كما اننى لا يمكن ان اسمح لكائين
كان بان يلحق العار بابنتى .

ومرت بضعة ايام على هذه الحال . وذات مساء
استجمعت انا فاسيليفنا اطراف شجاعتها وأغلقت على
نفسها وزوجها غرفة النوم ، وقد شمل الحوف والصمت
كل من في البيت . ولم يكن يسمع شيء في أول الامر ثم
أخذ صوت ستاكوف يعلو وبدأ نقاش بينهما كان يتخلله
صياح وأنين . وهم شوبين بالدخول الى الحجرة لانقاذ
الموقف بمساعدة الحادامات وزويا ولكن الضجة فيها كانت
تهدا تدريجيا وتعود الى مستوى المحادثة العادية الى ان
اختفت تماما .

وكان يسمع من آن لآخر صوت بكاء ولكنه توقف
نهائيا هو الآخر . وأخيرا سمع صرير المفتاح في الخزانة
وهي تفتح . ثم فتح الباب وخرج ستاكوف وهو يحملق
فيمن مر بهم ثم ذهب الى النادى . . واستدعت انا
فاسيليفنا ليلىا وعانقتها بحرارة وقالت لها وهي تبكى
بحرقة :

- لقد سوى كل شيء ولن يثير هو أية متاعب وليس
هناك ما يمنعك من السفر . . من هجرنا .

قالت ليلىا لأمها بعد ان استعادت بعض هدونها :

- هل يمكن لدمتري ان يحضر ليشكرك ؟

- انتظري قليلا يا عزيزتى فاني لا أطيق في الوقت
الحاضر رؤية الشخص الذى سيبعدك عنى . ولكنى سأراه
قبل ان ترحلا .

فقالَت يلينا بحزن :

- قيل أن نرحل .

لقد وافق ستاكوف على ألا يثير المتاعب ولكن أنا فاسيليفنا لم تحط ابنتها علما بالتمن الذي طلبه نظير ذلك . لم تقل لها انها قد وعدته بسداد كل ديونه كما أعطته ألف روبل من الفضة نقدا وعدا زد على ذلك أنه قد رفض صراحة أن يقابل انزاروف . وعندما وصل ستاكوف الى النادي شرع على الفور في التحدث الى زميله في لعب الورق ، وهو مهندس متقاعد من ضباط الجيش ، عن زواج يلينا . فقال وهو يفتعل عدم الاهتمام :

- هل سمعت ان ابنتي قد تزوجت طالبا . . . ربما لانبهارها بعلمه .

وكان الضابط يتفرس فيه من خلال نظارته وسأله عن لعبة الورق التي يريد أن يلعبها .

- ٣٢ -

كان شهر نوفمبر قد أوشك على الانتهاء واقترب موعد السفر . وكان انزاروف قد انتهى من استعداداته منذ وقت طويل ، وكان يتوق لمغادرة موسكو بأسرع ما يمكن ، كما أن الطبيب حثه على الاسراع بالرحيل وقال له :

- انك تحتاج الى جو دافئ ولا يمكن ان تسير

صحتك على ما يرام هنا .

وكانت يلينا هي الأخرى في هم فقد كان شجوب انزاروف وبقعدان وزنه من أسباب قلقها . كانت ترقب تغير ملامحه بانزعاج وخوف . وكان موقفها في بيت والديها لا يحتمل . فكانت أمها تبتكيها وكأنها قد فارقت الحياة بينما راح والدها يعاملها باحتقار وبرود . كان الفراق المنتظر يأكل قلبه هو الآخر ولكنه كان يعتقد من واجبه - وهو كوالد لحقته اهانة - أن يخفي مشاعره وضعفه .

وأخيرا طلبت انا فاسيليفنا ان ترى انزاروف . فدخل اليها سرا من الباب الخلفي . وظلت عاجزة عن الكلام فترة طويلة بعد دخوله الى حجرتها كما أنها لم تقدر على النظر اليه . وجلس انزاروف بجوار مقعدها وظل ينتظر في هدوء واحترام أن تبدأ هي بحديث بينما جلست يلينا ممسكة بيد أمها . وأخيرا رفعت أنا فاسيليفنا رأسها وقالت :

- اسأل الله ان يجازيك يادمتري نيكافوروفتش . اننى . . . ثم توقفت عن الكلام وعلى شفيتها كلمات من اللوم والتأنيب . . . ثم قالت فجأة :

- ولكنك مريض انه مريض يا يلينا .

فقال لها انزاروف :

- كنت مريضا يا أنا فاسيليفنا ولم أشف بعد

تماما ولكننى أمل ان يساعدىنى جو بلادى وهوأها على
استعادة صحتى ..

فقلت وهى تتمم :

- نعم - بلغاريا .

ثم لنفسها :

- يا الهى .. بلغارى يوشك أن يموت . له صوت
كصوت الأشباح وعينان غائرتان وليس فيه الا جلد على
عظم ويرتدى بدلة قد اتسعت عليه حتى ليخيل للناظر
اليها أنها مستعارة . ثم هذا اللون ... لونه الأصفر -
ولكن ها هى ذى زوجته تحبه ! لابد انى احلم .. ولكنها
تالكت نفسها سريعا وقالت ..

- ايتحتم عليك أن تسافر يا دمترى نيكاتورفتش ؟

- نعم يا أنا فاسيليفنا .

ففظرت اليه ، ثم قالت :

- آه يا دمترى أسأل الله الا تمر بتجربة كالتى أمر

بها أنا الآن .. عدنى أن تحبها وتعتنى بها . انكما لن
تشعرا بالحاجة أو العوز وأنا على قيد الحياة . ولكن العبرات
خفقتها وفتحت ذراعيها وتعلقت بها يلينا وانزاروف ..

وأخيرا جاء اليوم الموعد . كان من المتفق عليه أن
تذهب يلينا الى بيت والديها لوداعهما ثم تبدأ رحلة السفر
من بيت انزاروف كان موعد السفر وقت الظهر . وذهب

برزنيف قبل السفر بربع ساعة لوداعها . كان يتوقع أن
يرى فى بيت انزاروف .. بمض مواطنيه ولكنهم كانوا
قد سبقوه فى السفر ، كما سبقه الشخصان الغامضان
اللذان يعرفهما القارىء وكانا شاهدى زواج انزاروف .
وحيا صاحب البيت انزاروف بانحناساة وكان قد
شرب اكثرمن اللازم اما لانه كان يشعر بالأسف لسفر
ذلك الساكن ، واما لشعوره بالسعادة لحصوله على اثاث
الحجرة . وسرعان ما حضرت زوجته وجرتة الى داخل
البيت . وكانت هناك حقيبة على الأرض وكان برزنيف
غارقا فى أفكار كثيرة .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة وقد وقفت
زحافة بالباب . الا أن يلينا وانزاروف لم يصلا بعد .
وأخيرا سمع وقع أقدام مسرعة تصعد السلم ودخلت يلينا
يصحبها انزاروف وشوبين .

كانت عينا يلينا شديدتى الاحمرار فقصد أغمى على
والدتها من ألم الفراق . وكان قد مر أكثر من أسبوع
منذ أن رأت يلينا برزنيف لآخر مرة ، فقد قل تردده على
بيت ستاكوف . ولم تكن تتوقع أن تقابله فهفتت قائلة :
- انت هنا ! شكرا على مجيئك . واندفعت بين
ذراعيه .. ثم عانقه انزاروف هو الآخر . وساد المييع
سكون رهيب .. فما الذى كان يمكن لهؤلاء الثلاثة ان
يقولوه ؟ وماذا كان شعورهم ؟ وتبين شوبين انه لابد من
وضوح خد لهذا الموقف فقال .

- ها نحن قد اجتمعنا ثانيا لآخر مرة . لننحن رأسنا
المشيئة القدر ولنذكر ماضيها بكلمة طيبة ونحن نبدأ حياة
جديدة نسأل الله أن يباركها . وبدأ يغنى أغنية . ليبارك
الله رحلتنا الطويلة .

ولكنه توقف عن الغناء فجأة وقد شمر بالحزى
والحرج بأن الغناء فى حضرة الماضى المحتضر ! ثم . . كان
الماضى الذى ذكره وماضى هؤلاء الثلاثة المجتمعين فى الغرفة
يموت فى تلك اللحظة ، يموت ليموت فى حياة جديدة
ولكنه يموت على ائى حال .
وتحدث انزاروف فقال :

- يلينا ، يبدو أن وقت الرحيل قد حان فكل شىء
قد تم وليس أمامنا الا انزال هذه الحقيبة . واستدعى
صاحب المنزل الذى حضر مع زوجته وابنته واستمع الى
تعليمات انزاروف وحمل الحقيبة ونزل بها .
وقال انزاروف :

- والآن دعونا نجلس حسب العادة الروسية .
فجلسوا . وجلس برزنيف على الاريكة القديمة
ويلينا الى جواره فى حين جلست صاحبة المنزل وابنتها
على الارض . ولم يتحدث احد . كانوا جميعا يبتسمون
ابتسامة جامدة . وكان كل منهم يود أن يقول شسيتنا قبل
الفراق . كان كل منهم - ماعدا صاحبة المنزل وابنتها
اللتين ظلتا تحمقان - يشعر أن ما يقال فى مثل هذه

اللحظات كلمات عادية وان اى الفاظ أخرى منمقة او
مختارة ستبدو كاذبة . وقام انزاروف ورسم الصليب
على صدره وقال :

- وداعا يا حجرتنا الصغيرة .

وتبودلت القبلات والتمنيات والوعود بالكتابة وآخر
كلمات الوداع المختنقة . وركبت يلينا الزحافة وهى غارقة
فى دعوعها واحكم انزاروف الفطاء حول قدميها . ووقف
شوبين وبرزنيف وصاحب المنزل وصاحبته وابنتهما
والحارس امام المنزل ، واذا بزحافة أخرى تندفع الى فناء
المنزل ويخرج منها ستاكوف وهو يزيل الثلج من على
مطفه .

قال وهو يعدو الى الزحافة الأخرى :

- شكرا لله انكما لاتزالان هنا . اننى أقدم لكم
يا يلينا آخر بركاتنا الأبدية .

وأخرج من جيب مطفه علبة من القطيفة فتحها
وأخرج منها تعويذة ربطها حول عنق ابنته .
فانفجرت باكية وقبلت يديه ، بينما اخرج سائقه
زحاجة من الشمبانيا وثلاثة كئوس من مقدمة العربة .
وقال ستاكوف والدموع تتساقط من عينيه :

- لا بد أن نودعك وداعا حارا ونتمنى لك وبدأ
يصب الشمبانيا بيدين مرتعشتين وامتلأت الكئوس وأخذت
الشمبانيا تتدفق منها على الثلج الذى اكتست به الأرض .

وتناول هو كاسا واعطى الكاسين الآخرين ليلينا
وانزاروف الذى كان قد جلس فى العربية الى جوارها .
وقال لهما ستاكوف :

- ارجو لكما حظا سعيدا . .

ولكن العاطفة غلبته فامسك من الحديث وشرب
الكأس وفعل انزاروف ويلينا مثله . ثم التفت الى شوبين
وبرزنيف وقال :

- والآن جاء دوركما يا سادة ولسكن السائق الهمب
ظهر الخيل ، وتحركت العربية وأخذ ستاكوف يجرى الى
جوارها وهو يصيح بصوت متقطع : لا تنسى أن تكتبى يا
يلينا . ونظرت ييلينا من العربية وقالت : وداعا يا ابي .
وداعا ياندريا بتروفتش وداعا يا بافل ياكوفلبتشن وداعا
لكم جميعا . وداعا يا روسيا .

ثم عادته الى مقعدها . وخرجت العربية من الهواة
وانحرفت الى اليمين واختفت عن الانظار . .

- ٣٣ -

كان يوما من أيام ابريل المشرقة . وكان الجنودول
ينساب برقة فوق البحيرة الكبيرة التى تفصل بين فينسيا
والليدو وهو يهتز مع كل ضربة من ضربات المدافع بينا

جلست ييلينا وانزاروف فوق المراتب الجلدية فى القمرة
الصغيرة .

ولم تكن ملامح ييلينا قد تغيرت كثيرا منذ أن غادرت
موسكو ولكنها كانت تنطق الآن بتعبير جديد - تعبیر أكثر
جدية وأكثر تركيزا ، كانت عينها أكثر ثقة . وكان
جسدها بضا ناضجا وشعرها يتدلى على جبينها الناصع فى
بهاء ، وكانت وجنتها أكثر جمالا عن ذى قبل . ولكن
شفيتها كانتا تكشفان عن شيء من القلق اذا كفتا عن
الابتسام . أما وجه انزاروف فكان لا يزال يحتفظ بتعبيره
السابق وان كانت ملامحه قد تغيرت تغيرا ملموسا كان
يبدو أكثر نعافة وأكبر سنا كما كان شاحب الوجه وقد
انحنى ظهره قليلا . وكانت تنتابه نوبات كثيرة من السعال .
وكان سعاله قصيرا وجافا كما كانت عيناه الغائرتان تلمعان
ببريق غريب . وكان قد أمضى شهرين فى أحد مستشفيات
فينا وهو فى طريقه من روسيا . ولم يصل الى فينسيا الا
فى أواخر مارس .

وكان ينتظر أن يذهب من فينسيا الى الصرب وبلغاريا
عن طريق زار ، فقد كانت جميع الطرق الاخرى مغلقة
أمامه . كانت الحرب مشتعلة بالفصل فى منطقة الدانوب
وقد أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على روسيا وكانت
جميع الدول السلافية فى حركة واستعداد .

ووصل الجنودول الى الليدو . وأخذت ييلينا وانزاروف

يسيران على طريق رملي ضيق غرست على جانبيه أشجار
صغيرة هزيلة (تزرع كل عام وتموت كل عام) .

سارا على طول الشاطئ . وكانت مياه الادرياتيكي
الزرقاء تمتد أمامهما والامواج تتلاطم ارتفاعا وانخفاضا
تاركة بعض قطع المحار والأعشاب البحرية على الرمال .
وقالت يلينا :

— يا له من مكان بارد ! أخشى أن يكون هذا المكان
غير ملائم لصحتك . ولكنني أستطيع أن أفهم سبب مجيئك
إلى هنا .

فقال انزاروف: بمرارة وعلى شفثيه ابتسامة سريعة:
— بارد ! ان الجندي لا يخشى البرد . أما سبب مجيئي
هنا فمأخبرك به . انني عندما أنظر إلى البحر من هنا أحس
كان بلادي أقرب إلى . لقد انتهى كل شيء هناك .
قال ذلك وهو يمد يديه ناحية الشرق . ثم أضاف :
— وهذه الريح تأتي من هناك :

— ألا تعتقد أن هذه الريح قد تأتي بالسفينة التي
تنتظرها ؟ إلا يمكن أن يكون ذلك الشراع الأبيض الذي
ينعكس عليه الاضواء من بعيد هو شراعها ؟

فنظر انزاروف إلى المكان الذي أشارت إليه يلينا ثم
قال :

— لقد وعد رانديتش أن يصد كل شيء لنا خلال
أسبوع واعتقد أننا نستطيع الاعتماد عليه .

ثم بحماس مفاجيء :

— هل سمعت يا يلينا أن صيادي السمك في دالماشيا
قد انتزعوا قطع الرصاص المركبة في شباكهم لتحويله إلى
رصاص للبنادق ؟ انهم معدمون وصيد الاسماك هو مورد
رزقهم الوحيد ولكنهم تبرعوا به عن طيب خاطر وهم الآن
يتضورون جوعا وارتفع فجأة صوت يصيح :

« افسحوا الطريق »

وسمعا وقمح حوافر جواد يمر بهما سريعا عليه ضابط
تمساري وابتعد عن طريقه بسرعة . ونظر انزاروف إليه
وهو يتبعد . فقالت يلينا :

— لا لوم عليه فليس لديهم — كما تعلم — مكان آخر
لتدريب خيولهم .
فقال انزاروف :

— لا لوم عليه نعم ولكنه أثارني بصيخته وبشاربه
وقبعته وبمظهره كله . لنعد . . .

— نعم يا دمترى وان الهواء شديد هنا . وانت لم
تعتن بنفسك العناية الكافية بعد المرض الذي أصابك
في موسكو وقد دفعت ثمن ذلك في فينا . لا بد أن تكون
أكثر حرصا .

ولم يجيبها انزاروف ولكن نفس الابتسامة المريرة
ارتسمت على شفثيه . . .
وقالت يلينا :

- ما رأيك لو ركبنا جندولا فى القنال الكبير ؟
اننا لم نر فينيسيا جيدا منذ وصولنا • وسنذهب
هذًا المساء الى المسرح فقد حجزت تذكرتين لنشاهد أوبرا
جديدة • دعنا نستمتع معا بهذا اليوم وننسى كل شيء عن
السياسة والحرب ننسى كل شيء الا أننا نحيا وبتنفس
ونفكر معا واننا قد ارتبطنا الى الابد • ما رأيك ؟
- ما دامت هذه رغبتك يا يلينا فلك ما تريدن •

فقال تيلينا وهي تبتسم :

- كنت أعلم انك ستوافق هيا بنا •

وعاد الى الجندول وطلبها الى صاحبه أن يجدف بهما
فى القنال الكبير على مهل •

ان من لم ير فينيسيا فى شهر ابريل لا يستطيع أن
يكون فكرة عن سحر هذه المدينة وجمالها • ان الربيع
اللطيف المعتدل يناسب فينيسيا كما يناسب الصيف
المشمس جنوا الجميلة ، وكما يناسب الحريف روما وجمال
فينيسيا كالربيع يثيرك ويحرك فيك كوامن الرغبات •

وسرى الجندول يحمل انزاروف وييلينا حتى دخل الى
الканал الكبير • القصور الرخامية تنتشر على الجانبين • يلينا
فى سعادة جارفة ، ولكن سحابة واحدة معتمة بدت فى
سمائها • وأخذت هذه السحابة تنقش • وأحس انزاروف
بتحسن كبير فى ذلك اليوم • وتذكرت يلينا أكاديمية
الغنون الجميلة فطلبت من صاحب الجندول أن يجدف بهما

الى هناك • ولم يستغرقا وقتا طويلا فى زيارة حجرات
المتحف المختلفة • وطفى عليهما شعور بالمرح على غير انتظار
فكانا يريان فى كل شيء جامنا مضحكا (وهو احساس
معرفة الأطفال جيدا) ، فكانا يضحكان من الزوار ومن
بعض اللوحات والتماثيل •

وأخيرا خرجا من المتحف ولما شاهدا صاحب الجندول
بمعطفه وبنظونه القصير ضحكا أيضا ••

ثم شاهدا احدى البانعات وقد هجمت على رأسها
خصلة من الشعر الأشيب فضحكا أكثر وأكثر • وأخيرا
نظر كل منهما الى وجه الآخر وانفجرا ضاحكين دون توقف •
ولما وصلا الى الجندول وجلسا أمسك كل منهما بيد الآخر •
وعادا الى الفندق واسرعا الى حجرتهما وطلبيا طعام الغداء
ولم تتحركهما روح المرح حتى أنشاء تناول الطعام فكانا
يتمازمان على الطعام • وشربا نخب اصدقاؤهما فى موسكو
وكانا يصفقان ويمتدحان الطباخ على طعامه الشهى •
وعندما حان الوقت ذهبا الى المسرح •

كانت الأوبرا لفيردى وكانت رغم انها لم تكن من
روائع الأوبرا فقد عرضت بالمسرح الاوربية كما أن جمهورنا
الزوسى يعرفها جيدا ، وأعنى بها أوبرا لاترافياتا •

وكان الموسم فى فينيسيا قد انتهى فلم يكن بين
المغنين من ارتفع عن المستوى العادى وكان كل منهم يصيح
بأعلى صوته • أما دور فيولينا فقد قامت به مضية مقصورة

وتساءلت :

— ترى ماذا سيحدث في المستقبل وفي الحاضر ؟

وسعلت المثلثة وهي تقوم بدورها فتردد صدى
سعالها عندما سعل انزاروف ، فاختلست يلينا نظرة اليه
ثم ارتسم على وجهها تعبير هادئ وفهم انزاروف وابتسم
وهو يردد الأغنية بصوت منخفض .

ولكنه سرعان ماتوقف عن الغناء فقد تحسن تمثيل
فيوليفا وأصبح أقل عصبية وتخلصت من كل ما هو مفتعل
وظهرت كمثلة ناجحة . وتأثر المتفرجون وأظهروا
استحسانهم فقد سيطرت عليهم الفتاة بصوتها وجعلتهم
يتمايلون من الطرب . ثم دخل الفريدو وبدأ حوارهما
أجمل جزء في الأوبرا وهو الجزء الذي بدأ المؤلف يعبر فيه
عن الأسف على الشباب الضائع والكفاح الأخير . في سبيل
حب يائس .*

واندمجت المثلثة في الدور وتغير وجهها أمام شبح
الموت المخيف الذي اقترب فجأة وغنت المقطع الذي جاء فيه
« دعني أعيش — اننى لا أزال صغيرة ، بتوسل وضراعة
جعلت القاعة تدوى بالهتاف والتصفيق وصيحات
الاستحسان .

وأحست يلينا بقشعريرة تسرى في جسدها
وتحسنت بيدها يد انزاروف حتى وجدتها وضغطت عليها
بشدة وضغط هو الآخر على يدها ولكن أحدهما لم ينظر

وان لم تجل من موهبة كانت ملابسها متواضعة وبالية
من الذوق على نحو ساذج . وكانت تلف حول شعرها
شبيكة حمراء وترتدى ثوبا من الحرير الازرق الباهت
يضغط على بطنها وزوجا من القفازات السمكية يصل الى
مرفقيها المدبين . لم تكن تعرف كيف تتحرك على خشبة
المسرح على أن تمثيلها كان يتسم بالدقة والبساطة . كما
أنها كانت تغنى بأنفعال عاطفي واضح ونغم لا يجيده الا
الاطاليات . كانت يلينا تجلس الى جوار انزاروف في
المقصورة المجاورة لخشبة المسرح ، وكانت روح المرح التي
تملكتها في أكاديمية الفنون الجميلة لم تبارحها .

وقالت يلينا :

— ان الفتاة المسكينة لم تحصل على أى تشجيع من
المتفرجين ولكنني أفضلها عن كثيرات من الممثلات اللاتي
يتكلمن في تمثيلهن . انها تؤدي دورها دون أن تشغل
نفسها بالمتفرجين .

واتكا انزاروف على حافة المقصورة لينظر الى فيوليتا
جيدا ، ثم قال :

— انها جادة في تمثيلها وتجيد تمثيل دورها .
ولم تتحدث يلينا بعد ذلك .

ثم بدأ الفصل الثالث وارتفع الستار . وانزعجت
يلينا من منظر الفراش والستائر المسدلة وزجاجات الادوية
والمضئاج الخافت ، وتذكرت ماضيها القريب .

للأخسر . لم تكن هذه الضغطة كذلك التي تبادلها في
الجنود منذ بضع ساعات .

وقفلا راجعين الى الفندق على طول القنال الكبير .
كان الليل قد خيم بأضوائه الكثيرة . وأخذت نفس المناظر
تقابلهم ولكنها كانت تبدو مختلفة هذه المرة . القصور تبدو
في ضوء القمر غارقة في بياض مشوب باللون الفضي . أما
النقوش التي تزين هذه القصور والنوافذ والشرفات فتبرز
من المباني وقد غمرتها ظلال باهتة ، والزوارق تنساب
بأضوائها الخافتة جميلة على صفحة الماء وقد لمعت مقدماتها
في الظلام وأخذت مجاديفها تعلق وتهبط على مياه البحيرة
الفضية .

كان الفندق الذي نزل فيه انزاروف ويليينا يقع في
ريفاشيافونى . وغادرا الجنود قبل أن يصلا اليه ، وطافا
عدة مرات بميدان سانت مارك تحت القباء حيث كان كثير
من المتسكمين يتسكعون امام المقاهى الصغيرة . شعور جميل
ذلك الذى يشعر به المرء وهو يسير مع من يحب بين الغرباء
في مدينة أجنبية ، كل شيء يبدو جميلا وهاما . ونظرا
للسرور الذى تشعر أنه يملأ كل جوارحك فانك ترجو
للجميع السرور والطمأنينة . ولكن يليينا لم يعد فى وسعها
أن تستمتع بهنائها فى هدوء فان قلبها وقد هزته الانطباعات
الأخيرة كان يرفض أن يبدأ . أما انزاروف فكان يسير فى
سكون صوب قوهات المدافع النمساوية وهى تبرز من تحت
القباء . وجذب قبعته حتى غطت حاجبيه . وأدركه التعب

فالتقيا نظرة أخيرة على كاتدرائية سانت مارك وقبائها
الملتصعة فى ضوء القمر واتجها نحو الفندق .

كانت حجرتهما تطل على بحيرة كبيرة . وكان يواجه
الفندق كنيسة ويديتور وتعتبر من أجمل كنائس العالم .
وعلى اليسار كانت العين تلمح صاريات السفن ومداخن
البواخر كما كانت تظهر من أن لآخر سفينة شراعية وقد
فردت شراعها كجناح ضخم . وجلس انزاروف الى النافذة
ولكن يليينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلا فقد فاجأته
الحمى وأصيب بضعف شديد . وسندته حتى وصل الى
الفراس . نام فعادت فى هدوء الى النافذة . كان الليل
ساجيا والهواء لطيفا يزيل الألم والحزن تحت السماء
الصافية والأشعة المقدسة النقية وقالت يليينا لنفسها :

- يا الهى .. لماذا خلقت الموت والفراق والمرض
والبكاء والدموع ؟ ولماذا بدعت الجمال وهذا الاحساس
الجميل بالأمل والشعور المريح بالملجأ الآمن والحماية
الدائمة . والا فما معنى هذه السماء الباسمة التى تنزل
بركاتها على الأرض ، وهذه الأرض السعيدة المطمئنة ؟ هل
يمكن أن يكون كل هذا فينا نحن فقط ، بينما يسود
السكون والبرد فى الخارج ؟ هل يمكن أن نكون نحن فى
عزلة .. فى عزلة وان يكون كل شيء آخر فى كل مكان فى
كل هذه الأغوار السحيقة غربا عنا ؟ ماذا تجدى اذن هذه
الرغبة الملحة فى الصلاة وفى الابتهاج بالصلاة ؟ ألا يمكن
أن تسامحه وتغفقه ؟ ألا يمكننى أن أعتقد فى حدود

مفجزة؟ ثم وضعت رأسها على يديها وغمطت!

— هل هذه هي النهاية؟ هل يمكن حقا أن تكون هذه هي النهاية؟ لقد غمرتنى السعادة لا لعدة دقائق أو ساعات أو أيام بل لأسابيع متتالية. ولكن بأي حق؟ واستمرت في قائلاتها:

وماذا إذا كانت هذه السعادة أكثر مما نستحق؟ وماذا إذا كان لا بد لنا أن ندفع ثمن هذه السعادة. انها السماء وما نحن الا بشر — بشر مساكين عصاة — ابتعد ايها الشبيح المشنوم فلست أنا الوحيدة التي تهين حياتها.

ولكن ماذا إذا كانت هذه عقوبة؟ ماذا إذا كان علينا أن ندفع الآن نحن ثمن اثمنا كاملا؟ لقد كان ضميري صامتا وهو صامت حتى هذه اللحظة ولكن هل هذا دليل على البراءة؟ يا الهى هل نحن حقا آثمون؟ هل يمكن أن تعاقبنا لأننا احببنا احدنا الآخر وأنت الذى خلقت هذا الليل وهذه السماء؟ فإذا كان الأمر كذلك، وكان مذتبا وكنت أنا مذتبة، فلتكن ارادتك يا الهى أن نموت نحن الاثنين أخيرا ميتة كريمة — هناك فى الحقول فى بلاده لا فى هذه الحجرة الممتعة. ثم مضت تتساءل:

— ولكن ماذا يكون من أمر الحزن الذى سيحل بأم مسكينة وحيدة؟

وشعرت بالحيرة عندما لم تجد اجابة على سؤالها ..

لم تكن تعرف أن سعادة حكي انسان قائمة على تعاسة انسان آخر وان راحته تتطلب تعب الآخرين تماما كما يحتاج التمثال الى قاعدة.

وتحدث انزاروف وهو نائم فقال:

— راندتشي.

فأسرعت اليه يلينا على أطراف أصابعها وانحنى فوقه وجففت العرق من على وجهه. فحرك رأسه على الوسادة ثم هبط.

وعادت الى النافذة ولكن الأفكار السوداء استبدت بها. وحاولت أن تقتنع نفسها بأنه ليس ثمة ما يدعو للخوف بل عيرت نفسها بضعفها، وتمتمت لنفسها:

— ليس هناك أى خطر اليس كذلك؟
انه الآن أحسن حالا اليس كذلك؟

لاشك أننى لو لم أذهب الى المسرح لما خطر ببالي مثل هذا الخاطر.

ولفت نظرها فى هذه اللحظة طائر بحرى يحلق فوق الماء لا بد أن أحد صيادى السمك أزعبجه. كان يطير فى صمت فى خط متعرج كأنه يبحث عن مكان يهبط عليه. فقالت يلينا لنفسها:

إذا طار فى هذا الاتجاه فسيكون هذا فالأ حبيبا، ولكن الطائر طوى جناحيه وهوى وهو يصرخ صرخة طائر جريخ خلف احدى السفن. وانزعجت يلينا ولكنها شعرت

بالخجل من انزعاجها : واتجهت الى انزاروف وحدثت
بجانبه دون أن تخلع ملابسها . كان انزاروف يتنفس
بضعوبة .

- ٣٤ -

استيقظ انزاروف متأخرا على صداع مؤلم ، وكان
يشعر بضعف شديد في كل أطرافه .
ورغم ذلك فقد غادر الفراش .
وكان أول سؤال سألته ليلينا قوله لها :
- هل حضر راندتش ؟
فألت :

- كلا . ثم ناولته الطبعة الأخيرة من صحيفة
أونبرير فالور تريستينو التي أطالت في الحديث عن الحرب
وعن أرض السلاف وعن المقاطعات .

وبدا انزاروف يقرؤها بينما انشغلت هي باعداد
فنجان من القهوة له . ثم سمع طرق على الباب . واعتقد
كان منهسا انه راندتش ولكن الطارق قال بلغة روسية
واضحة ؟ هل أستطيع الدخول ؟ وتبادلت يلينا مع
انزاروف نظرة استغراب وقيل أن يجيبا الطارق دخل
عليهما شاب أنيق الملبس ذو وجه صغير مدبب وعينين

صغيرتين . وكان متهللا كأنه تلقى لتوه بشري سارة .
وقام انزاروف من مقعده وقال الغريب وهو يسير
اليه وينحن في ادب ليلينا :
- يبدو أنك لم تتذكرني . اننى لو بوفاروف
الا تذكر أننا تقابلنا في موسكو عند « ي » .
فقال انزاروف : نعم عند « ي » .
فقال الرجل :

- هذا صحيح . والآن أرجو أن تقدمنى لزوجتك .
اننى ياسيدتى من المبهين كل الاعجاب بدمترى فاسيليفتش
ويسعدنى أن يكون لى شرف التعرف عليك .
ثم التفت الى انزاروف وقال له :

- تصور اننى لم أكن أعلم بوجودك هنا الا أمس .
اننى أقيم فى نفس هذا الفندق . بالجمال مدينة فينسيا .
انها مدينة شاعرية . ان الشئ الوحيد الذى أكرهه فيها
أنك تقابل هؤلاء النمساويين الملاعين فى كل مكان . على
فكرة ، هل سمعت عن وقوع معركة حاسمة على الدانوب؟
لقد قتل فيها ثلاثمائة من الضباط الأتراك وتم الاستيلاء
على سيلستريا ، وأعلنت الصرب استقلالها .

انك كوطنى لابد أن تشعر بالغبطة . اننى أشعر
بدمعائى السلافية تغلى فى عروقى ولكننى أنصح بالهدر .
الذى على يقين بأنك مراقب كما أن المدينة تعج بالجواسيس .
وقد زارنى بالأمس شخص غريب وسألنى ان كنت روسيا ،
فأجبتة بأنى دانماركى . ولكنك تبدو مريضا يعزى

انزاروف فاسيليفتش ولا بد لك من العلاج • لابد لزوجك ياسيدتى من العلاج • لقد كنت بالأمس اسير كالمجنون من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة للفرجة • كذلك زرت السجون الشهيرة هنا فأثارت استيائي • لعلك تذكر اننى دائم الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية ، وقد ثرت على طبقة الارستقراطيين • كم اود لو أوتيت القدرة على القاء المدافعين عن ابناء هذه الطبقة فى اعماق السجون •

كان بايرون على حق عندما قال :

« لقد وقفت فى فينيسيا على جسر التهنيدات » وعلى كل فقد كان هو نفسه ارستقراطيا • لقد كنت دائما من دعاة التقدم • ان الجيل الصاعد يدعو كله للتقدم • ما رأيك فى الانجليز والفرنسيين ؟ سنرى الى اى مدى يمكن ان يصل نابليون الثالث وبالمرستون • لقد اصبح بالمرستون رئيسا للوزراء • ومهما قلت فأنتك يمكن ان تستهين بقبضة الروس • ان نابليون الثالث مجرم حقير •

انا لا اعرف شعورك ولكنى شخصيا معتبط بالحرب • وارجو ألا أستدعى الى روسيا لأننى أنوى الذهاب من هنا الى فلورانس وروما • أنا لا أستطيع الذهاب الى فرنسا ولذا فانى افكر فى الذهاب الى اسبانيا - يقال ان الاسبانيات جميلات ، ولو أن اسبانيا بلد الفقر المدقع والأمراض •

انا لا يهمنى أن اذهب حتى الى كاليفورنيا - فليس

هناك ما لا نستطيع نحن الروس أن نفعله - ولكننى وعدت أحد الناشرين أن أقوم بدراسة مفصلة لمشكلة التجارة فى البحر المتوسط • قد تقول انه موضوع ممل ويحتاج الى تخصص ولكننا نريد المتخصصين وكفانا فلسفة • ان ما نحتاجه الآن هو التدريب والتحرير • ولكنك تبدو مريضا جدا يادمتري فاسيليفتش • ربما ضايقتك ولكن حتى لو كان الامر كذلك فسأضئ معك وقتا أطول •

وظل لوبوفاروف يتحدث هكذا فترة طويلة ووعد قبل خروجه أن يعود ثانيا • أحس انزاروف بالارهاق من هذه الزيارة الطارئة فرقد على الارىكة وقال بمرارة :

— هذا هو نموذج الجيل الجديد • ان بعضهم يدعى الشجاعة ويتظاهر بها ولكنهم فى حقيقة انفسهم كالتبيل الأجوف مثل هذا الشاب •

ولم تناقشه يلينا فقد أقلقها ضعف انزاروف فى تلك اللحظة أكثر مما أقلقتها حالة الجيل الجديد فى روسيا • فجلست الى جواره وتناولت شغل الابرة الذى كانت تعمل به ، كان انزاروف قد أغلق عينيه ووقد بلا حراك وقد بدا عليه الشحوب والضعف الشديد • ونظرت يلينا الى ملامح وجهه البارزة والى ذراعيه الممتدتين ، واستحوذ على قلبها صوت مفاجئ • ونادت عليه بصوت رقيق :

— دمتري •

ولكننا لأبد أن نذهب على أي حال فليس هنالك وقت
نضيقه • كوني على استعداد •

ونام وكان كل شيء هادئا في الحجرة •

وأسندت يدينا رأسها الى ظهر المقعد ونظرت من
النافذة • كانت الريح قد اشتدت والسحب تسير بسرعة
عبر السماء وشراع صغير يررف على بعد وترفرف عليه
راية طويلة عليها صليب احمر •

كان بندول الساعة القديمة يهتز وكأنه يحدث
بدقاته أنينا حزينا •

واغلقت تدينا عينيها • كانت قد امضت ليلة سيئة
شيئا فشيئا استغرقت هي الأخرى في النوم •

ورأت حلما غريبا • رأت انها في قارب مع بعض
الغرباء في بحيرة تسارتسينو • وكانوا يجلسون في
صمت ودون حراك • لم يكن هناك من يجدف وكان القارب
يتحرك تلقائيا • ولم تكن يدينا • خائفة بل كانت تشعر
بالمثل •

كانت تود لو انها عرفت من هم هؤلاء الاشخاص
ولماذا كانت معهم • وبينما هي تنظر اخذت البحيرة تتسع
ولم تعد بحيرة ، بل أصبحت بحرا هائجا تهز أمواجه
العالية القارب • ثم ارتفع شيء مخيف في دوى شديد من
القاع فقفز رفاقها الغرباء وهم يصيحون ويلوحون

فتحرك ثم قال لها :

هل رادتش هنا ؟

— كلا ، لم يحضر بعد • ولكن ألا تعتقد — انك محموم
لاتبدو انك بخير — ألا ترى من الأفضل استدعاء طبيب ؟
— هل أخافك ذلك الثرثار ؟ أنا لست في حاجة الى
طبيب وسأستريح قليلا وسيصبح كل شيء على مايرام •
سنخرج ثانية بعد الظهر •

ومرت ساعتان وانزاروف لم يبارح الاريكة • ولكنه
لم يستطع ان ينام ولو أنه لم يفتح عينيه • وجلست يدينا
الى جواره ، وتركت شغل الابرة وظلت ساكنة •
واخيرا سألته قائلة :

— لماذا لا تنام ؟

فقال لها وقد أخذ يدها ووضعها تحت رأسه

كالوسادة :

— انتظري • ايقظيني عندما يصل راندتس • واذا
قال ان السفينة على استعداد للرحيل فسـرحل في
الحال • ولابد أن نحزم أمتعتنا •

فقالت يدينا :

— لن يستغرق ذلك طويلا •

وقال انزاروف : بعد هنيهة :

— هل سمعت ما قاله ذلك الثرثار الاحمق عن
الحرب في الصرب ؟ أعتقد ان كل ما قاله كان من تأليفه •

بأيديهم * وعرفتهم يلينا - كان والدها وأحدًا منهم *
ولكن هبت عليهم عاصفة ثلجية واختلط كل شيء *

ونظرت يلينا حولها * كان كل ما يحيط بها أبيض
ولكنه كان جليدا لا نهاية له ولم تعد هي في قارب بل
وجدت نفسها على زحافة على غرار تلك التي ركبتها
من موسكو * ولم تكن بمفردها فقد كان يجلس الى
جوارها كائن صغير ملفوف في معطف نسائي قديم *
ودقت يلينا النظر في رفيقها فتبينت أنه كاتيا صديقتها
الفقيرة فجزعت يلينا ، وقالت لنفسها :

- « كيف هذا ؟ ألم تمت هذه الفتاة ؟ » ثم سألتها
قائلة :

- الى أين نحن ذاهبون يا كاتيا ؟

ولم تجيبها كاتيا بل جمعت حولها اطراف المعطف -
فقد كانت تشعر بالبرد *
كانت يلينا هي الاخرى تشعر بالبرد * ونظرت
امامها على طول الطريق ومن خلال ذرات الجليد المعلقة في
الهواء *

رأت مدينة ذات أبراج عالية بيضاء ذات قمم فضية *
وقالت يلينا :

- هل هذه هي موسكو يا كاتيا ؟

وقالت يلينا ترد على نفسها :

- كلا هذا هو دير سولوفكس وهو يحتوي على كثير

من الصوامع الضيقة كخلية النحل ودمتري مجبوس فيه
ولا بد لي ان اطلق سراحه *

.. وفجأة انفتحت عند اقدامها هوة عميقة واندفعت
اليها الزحافة بشدة * وضحكت كاتيا وسمعت يلينا
صوتا يناديها من الهوة :

- يلينا .. يلينا ..

رن الصوت واضحا في اذنها ينادي : يلينا *
فحركت رأسها وتجمد الدم في عروقها عندما رأت
انزاروف ابيض كالثلج - الثلج الذي رآته في الحلم -
يجلس على الأريكة وهو يحلق فيها بعينين كبيرتين لامعتين
مخيفتين وقد تدلى شعره على جبهته وانفرجت شفاهه بشكل
غريب * كان وجهه قد تغير فجأة وارتسم عليه تعبير من
الرعب المختلط بالرقة والالام *

وقال انزاروف :

- يلينا انني احتضر *

فركعت على ركبتها واحتضنته الى صدرها وهي
تصرخ ..
وقال :

- لقد انتهى كل شيء * انني أحتضر * وداعا
يا حبيبتي المسكينة وداعا يا وطني .. ثم سقط على ظهره *
وخرجت يلينا وهي تـدو في طلب الغوث *
وأسرعت الخادمة لاحضار الطبيب * وتعلقت يلينا
بانزاروف * وفي هذه اللحظة ظهر عند مدخل الحجرة رجل

عريض الكتفين لفحت الشمس وجهه وهو يرتدى معطفا
ثقيلًا وقبعة • ووقف الرجل مهبوتا •

فصاحت يلينا :

— راندتش ! لقد جئت اخيرا • بحق السماء تقدم
وساعدنى •

لقد اغمى عليه ! يا الهى ما الذى اصابه ؟ لقد خرج
بالامس وكان منذ لحظة واحدة يتحدث معى •

ولم يقل راندتش شيئا وخطا جانبا ومر به رجلا
قصير هو الطبيب وكان يقطن فى نفس الفندق •• مقتربا
من انزاروف ••

وقال الطبيب بعد لحظات :

— سيدتى ، لقد مات هذا السيد الاجنبى من هبوط
فى القلب واضطراب فى الرئتين •

- ٣٥ -

فى اليوم التالى كان راندتش يقف امام نافذة
الحجرة نفسها ، بينما جلست يلينا امامه ملتفة بوشاح •
كان انزاروف يرقد فى تابوت فى الحجرة المجاورة •
غاضت الحياة من وجه يلينا الذى بدا عليه الخوف • وكان
جبينها مقطبا فاضفى على عينيها نظرة متوترة • كان هناك

خطاب من انا فاسيليفنا ملقى على قاعدة النافذة ، كانت تدعو
فيه ابتها للعودة الى موسكو لتمضى فيها شهرا على الأقل
كما كانت تشكو من الوحدة ومن ستاكوف • وكانت ترسل
تحياتها لانزاروف وتستفسر عن صحته وترجوه أن يسمح
لزواجه بالسفر •

كان راندتش بحارا من الدالماشيا وقد قابله انزاروف
اثناء اقامته فى بلغاريا ولقيه اخيرا فى فينيسيا • وكان
رجلا حازما قويا شجاعا كرس حياته للقضية المسلافية -
وكان يكره الاثراك والتمساويين •

وقالت له يلينا بصوت خلا من الحياة كوجهها :

— الى متى عليك ان تبقى فى فينيسيا ؟

فقال :

— اننا نحتاج الى يوم لنقل التابوت دون ان نثير الشك
وسوف نتجه بعد ذلك زارا مباشرة • انه خير سىء ذلك
الذى ساسحمله الى موطنى • لقد لموا ينتظرون انزاروف
طويلا ووضعوا فيه آمالهم •

فرددت يلينا قوله بطريقة آلية :

— وضعوا فيه آمالهم •

ثم قال لها راندتش :

— متى ستوارينه التراب ؟

فاجابت يلينا بعد قليل :

— غدا •

- غدا ؟ اذن سابقى • اننى أريد أن أرمى حفنة من التراب فى قبره • ثم لا بد لى أن أساعدك • من المؤسف أنه سوف لا يدفن فى أرض سلافية •

فنظرت يلينا اليه وقالت :

- خذنى معك على ظهر السفينة واحملنا عبر البحر بعيدا عن هنا •

هل يمكنك أن تفعل ذلك ؟

فأطرق راندتش مفكرا ثم قال :

- نعم • ولكن هذا لن يكون أمرا سهلا اذ لا بد لى أن أتحايل على السلطات اللعينة • ولكن لنفترض اننا سوينا هذا الامر وواريناه التراب هناك فكيف أستطيع أن أعود بك •

- لا حاجة بك الى العودة بى •

- ولكن أين تذهبين بعد ذلك ؟

- سأجد مكانا • فلا تقلق واصحبنا - خذنى معك •

فحك راندتش رأسه وقال :

- كما تريد • ولكن هذا يحتاج الى اجراءات كثيرة متعبة • سأذهب وأحاول • عليك ان تنظرى هنا وسأعود خلال ساعتين تقريبا •

وخرج • وذهبت يلينا الى الحجره المجاورة واستندت

الى الحائط وظلت واقفة فترة طويلة وكأنها قد تحولت الى تمثال • ثم ركعت على ركبتيها ولكنها لم تستطع أن تصلى • ولم تجرؤ على أن تسأل ربه لماذا لم يبق على حياته ولم يرحمه ولم يحفظه ولماذا عاقبه هذا العقاب الشديد الذى لا يستحقه • ان كلا منا يستحق هذا العقاب لمجرد أنه وجد على قيد الحياة • وليس هناك مفر مهما عظم ولا محسن مهما كثرت حسناته يستطيع أن يدعى لنفسه حق البقاء للأشياء المقيده التى أداها • ولكن يلينا لم تستطع أن تصلى • لقد تحولت الى تمثال •

وفى تلك الليلة رسا الى جانب الفندق الذى كانت فيه يلينا قارب ذو سطح عريض • ووضع فى القارب صندوق طويل مغطى بقماش أسود وجلست يلينا ورائدتش بجواره • وأبحر القارب مدة ساعة تقريبا ثم رسا الى جانب سفينة راسية عند مدخل الميناء • وصعدت يلينا وصعد راندتش الى السفينة وتبعهم البحارة بالصندوق • وهبت عاصفة عند منتصف الليل ولكن السفينة كانت قد ابتعدت عن الليدو • عند الفجر زادت العاصفة عنفا واثناء النهار وكان البحارة المتمرسون يهزون رؤوسهم خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه • فبحر الادرياتيك شديد الخطورة فى المنطقة بين فينيسيا وتربستا وساحل دالاماسيا •

وبعد أن غادرت يلينا فينيسيا بثلاثة أسابيع تلقت انا فاسيليفنا فى موسكو الخطاب التالى :

والدى العزيز ووالدتى العزيزة • اننى أودعكما الى

الإبده فيسوف لا ترياىى ثانياة • لقد مات دمترى بالأيس
وفد انتهى كل شيء بالنسبة لى • سأسافر الى زارا اليوم
مع جتته وسأواريه التراب ولا أدرى ما سيحدث لى ولكننى
لا وطن لى الآن غير وطن دمترى • وهناك نورة على وشك
القيام والشعب يستعد للحرب • سوف أعمل ممرضة
وأعتنى بالمرضى والجرحى • لا أدرى ما سيحل بى ولكننى
سأظل وفية لذكرى دمترى وللقضية التى كرس لها كل
حياته حتى بعد موته • وقد تعلمت اللغة البلغارية واللغة
الصربية ولكننى قد لا أعيش بعد كل هذا - وهذا ما
أفضله • لقد وصلت الى حافة الهاوية ولا بد لى أن أسقط •
لم يكن ارتباطنا مصادفة • وربما أكون أنا التى قتلته وقد
جاء دوره لكى يجزئى للموت • لقد كنت أبحث عن
السعادة وقد وجدت الموت وأعتقد ان ما قدر سيكون •
ويبدو أننى قد أذنبت ولكن الموت يخفى وينهى كل شيء
أليس كذلك ؟ أرجو أن تغفرا لى كل ما سببته لكما من
أحزان فلم يكن لى حيلة فى ذلك •
أما فيما يخص بالعودة الى روسيا فما الذى يجعلنى
أعود ؟ وما الذى أستطيع أن أعمله فى روسيا ؟ أرجو أن
تتقبلا قبلاتى الاخيرة ودعائى ولا تدينانى •

« ٥ »

مضت حوالى خمس سنوات على هذا الخطاب دون أن
تصل أى أخبار أخرى عن يلينا ، وراحت كافة الخطابات

والاستفسارات دون جدوى • وذهب ستاكوف بنفسه الى
فينيسيا وزارا بعد توقيع معاهدة السلام ولكن بلا فائدة •
وقد علم وهو فى فينيسيا ما علمه القارىء • أما فى زارا
فانه لم يستطع الحصول على معلومات دقيقة عن راندتس
أو عن السفينة التى استأجرها •

وكانت هناك اشاعات غامضة منها ان البحر قد قذف
الى الشاطئ بعد عاصفة شديدة تابوتا به جثة رجل ،
وذلك منذ بضع سنوات •

وقالت مصادر أخرى أكثر وثوقا ان التابوت لم يقذف
الى الشاطئ ولكن حملته الى الشاطئ ودفنته بالقرب منه
سيدة أجنبية قدمت من فينيسيا • وهناك من أضاف الى
هذه الرواية أن هذه السيدة شوهدت بعد ذلك فى
هرزيجو فينا مع جيش كان يجرى تكوينه ، وقد وصفوا
ملابسها فقالوا انها كانت ترتدى ملابس سوداء تغطي كل
جسمها • ومهما يكن من أمر فقد اختفى كل اثر ليلينا
نهائيا وليس هناك من يعرف أهى ما زالت على قيد الحياة
أم انها مختفية أو أن حياتها قد انتهت واختطفها الموت •
قد يحدث أحيانا أن يستيقظ المرء ويسأل نفسه فى
خوف :

- هل حقا انى قد بلغت الثلاثين - الاربعين -
الخمسين من العمر ؟ كيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ وكيف
اقترب الموت بهذا الشكل ؟ ان الموت كصياد السمك الذى

أمسك بسمكة في شبكته ولكنه أبقاها في الماء فترة من الوقت . فالسمكة لا تزال تسبح ، ولكنها سجينه سيخرجها الصياد من الماء متى أراد .
ولنا الآن أن نتساءل عما حدث لبقاى شخصيات هذه القصة .

ان أنا فاسيليفنا لا تزال على قيد الحياة ولكنها تقدمت في السن كثيرا - منذ النكبة التى حلت بها . انها لا تكثر الشكوى ولكنها كثيرا ما تشعر بالحزن والانقباض . وقد تقدم ستاكوف في العمر هو الآخر وهجر أوجاستينا كريستيانوفا ، وهو الآن ينتقد كل ما هو أجنبى وترتدى مدبرة منزله وهى امرأة روسية جميلة فى حوالى الثلاثين من عمرها ملابس حريرية وخواتم وقرطا من الذهب . أما كورناتوفسكى وهو شخص متقلب الطباع يحب الشقراوات، فقد تزوج زويا التى أصبحت مطيعة وهادئة حتى أنها كفت عن التفكير بالألمانية .

وقد سافر برزنيف الى هيد لبرج على نفقة الدولة وزار برلين وباريس واستفاد كثيرا بوقته وسيصبح أستاذا قديرا . وقد نشر مقالين أثارا اهتمام الطبقة المتعلمة أحدهما عن بعض النواحي الغربية فى القانون الالماني القديم فى حالات العقوبات القضائية . والآخر عن أهمية المبدأ الحضرى فى المدنية . ولكن الذى يؤسف له ان المقالين كتبنا بأسلوب صعب ورد فيهما كثير من المصطلحات الأجنبية .

أما شوبين فإنه فى روما وقد كرس كل حياته لفنه وأصبح يعتبر واحدا من أبرز المثالين الشبان وإن كان بعض الفنانين يرى أنه لم يقم بدراسة كافية للنحت القديم وأنه ينقصه الاسلوب وهم يضعونه مع المدرسة الفرنسية . وتصله طلبات كثيرة من الانجليز والأمريكيين . وقد أثار تمثاله « الراهبة » استحسانا كبيرا حتى أن الكونت الروس بوبوشكين وهو من الاثرياء كان على وشك ان يدفع الف سكودى تمثاله ولا يزال شوبين يكتب من آن لآخر ليوفار ايفانوفتش وهو الشخص الوحيد الذى لم يتغير قط . وقد كتب له منذ فترة ليست بالبعيدة يقول : هل تذكر ما قلته لى تلك الليلة عندما علمنا بزواج يلينا المسكينة وأنا أجلس على فراشك أتحدث ؟ هل تذكر أننى ساكتك ما اذا كانت روسيا سترزق يوما ما برجال حقيقيين ، فاجتنبى بانهم سيوجدون يوما ما ؟ هأنذا أسالك مرة أخرى من هنا . . من هذا المكان البعيد الجميل : هل سيوجد مثل هؤلاء الرجال ؟

أخذ يوفار ايفانوفتش يثنى أصابعه وهو ينظر الى الفضاء فى غموض . .

(تمت)